الإعلام

في صدر الإسلام

الدكتور عبد اللطيف حمزة
أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب بجامعة القاهرة (سابقا)

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني ـ القاهرة
ص ٠ ب ١٣٠ ـ ت : ٣٩٢٥٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور عبد الحليم محمود

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فمن حق الإنصاف علينا أن نؤمن أن كتاب « الإعلام فى صدر الإسلام » له الريادة فى هذا المجال من مجالات الدراسات الإعلامية .

فلم نعرف من قبل أن باحثا من الباحثين السابقين تناول موضوع : « الإعلام الإسلامى » بالدراسات المستقلة والمنهجية .

كذلك فى ثقافتنا المعاصرة لم يقدم باحث قبل الدكتور « عبد اللطيف حمزة » على هذا اللون من الدراسة ، بل لم يلتفت إليه مثقف .

وتلك بادرة ذكية من الأستاذ المؤلف تعرف له وتقدر ، وتأخذ بيده فى ثقة وحفاوة إلى مركز الريادة فى مجال هذه الدراسة .

وعلى الرغم من أن السيد المؤلف على صلة وثقى بالدراسات الإسلامية إذ شارك فيها بأكثر من عشرين كتاباً أسهم بها فى تعمير المكتبة الإسلامية فقد أبى عليه ضميره اليقظ وإحساسه بالتبعة العلمية وأمانتها إلا أن يصارح قارئه بخوالج نفسه عندما اعتزم معالجة هذا الموضوع الرائد فقال فى هذه المصارحة :

« . . . إننى أقدمت على هذا البحث بشىء غير قليل من التردد والخوف ، فما السبب فى ذلك ؟ وأجاب السيد الدكتور على السؤال الذى طرحه بقوله :

« إن الذى يبحث فى تاريخ الإعلام فى الاسلام لابد أن تكون له أصالة

حقيقية فى الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، والمذاهب الاسلامية ، ولابد أن تكون فى نفسه أصالة حقيقية فى علم الاتصال الذى يشتمل على فنون كثيرة من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة . وفن الدعاية بأشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين فى دقة وعمق معاً » . وهذا موقف للمؤلف له دلالته .

تلك هى أن التصدى لعمل علمى لابد أن يكون على مستوى هذا العمل معرفة واستيعاباً ، ومن قبل ذلك ومن بعده استعداداً ذاتياً .

وذلك حفز صادق فى نطاق التحريك النفسى للباحث — أى باحث — حتى يستشعر التبعة الملقاة على عاتقه ، وهى لاشك جد مهظة .

ومن ناحية أخرى ينحو به إلى تواضع العلماء حتى لا يجمح به الغرور إلى كبوات لا مأمن منها مع تلك الظاهرة الخطيرة التى تلم بكثير من المثقفين .

وقد استشعر السيد المؤلف عبء التبعة فأقدم فى تواضع الدارسين الأصلاء على هذا الموضوع البكر إقدام العالم الباحث متوخيا أغراضا ثلاثة كلها هادفة وشريفة . والأهداف الثلاثة هى :

الأول أن هذا الاتجاه الجديد فى بحوث الاتصال والإعلام الإسلامى سيغرى الباحثين بالدخول فى هذا الميدان ، وولوج شعاب بحوثه على طول الطريق من أول أيام الإسلام حتى عصرنا الذى نعيشه .

الثانى : الدفاع عن كرامة المؤلفين المسلمين الذين لايليق بهم أن يظلوا فى مواقع التبعية للمؤلفين الأجانب ، فلا ينبغى الانتظار حتى يأتى أجنبى ويؤلف فى النواحى التى لم يؤلف فيها بعد من الثقافة الاسلامية كناحية الدعاية والاعلام فى الإسلام ، وبهذا نتغلب على مؤامرة الصمت التى ترتكب ضد الثقافة الإسلامية .

الثالث : لفت شبابنا المعاصر إلى ثقافتنا الإسلامية ، إذ جمهرتهم منصرف إلى التراث الأجنبى مفتون به . ويعرف عنه أكثر مما يعرف عن التراث الإسلامى . بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم بعضا بهذه الظاهرة التى

تمثل مركب نقص فى الشباب يجب على الفاقهين من أبناء هذا الجيل تخليص الشباب من عقابيله .

وتلك محامد للسيد المؤلف تذكر بالعرفان ، وتقابل بما هى أهل له من الشكران ، وقد اختار السيد المؤلف أقوم منهج وأعدله فى الدراسة .

ذلك هو تتبع أحداث التاريخ فى مسايرة وتحليل معطيات تلك الأحداث ، واستخلاص النتائج من الشوائب التى قد تلتوى بالدارس عن الطريق الموصل .

وكانت الدقة طابع التعبير فى رحلة الكتاب ، إذ حدد المفاهيم تحديداً نقياً يحصن القارىء ويبتعد به عن الخلط ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

التفرقة بين الدعوة والإعلام والدعاية ، وتحديد المقصود بكلى واحدة من هذه الثلاثة مما يجده القارىء موضحا فى مواطنه من الكتاب ، وقد أبرز السيد المؤلف أن عمل النبى ﷺ كان دعوة من الله أمر بتبليغها إلى الناس كافة .

وإذا كانت كلمة « ثورة » قد وصف بها الإسلام فى الكتاب فإنه من الطبيعى ألا يقصد منها المعنى المتبادر والشائع من أنها ظاهرة ذاتية لفرد من الأفراد انفعل انفعالا خاصا بواقع يعيشه فى مجتمع ما أدى به إلى حمل تبعة التغيير ، وإنما المقصود بالكلمة هدفها وغايتها وهو التغيير وتعديل الأوضاع على النحو المستقيم .

ولم يترك المؤلف ثغرة ينفذ منها متربص بالإسلام عندما تناول «الجهاد» كوسيلة من وسائل الإعلام ، إذ حدد مفهوم الجهاد فى الإسلام ، وبين أنه ليس مقصداً إلى التوسع والسيطرة ابتغاء النفع ، وإنما كان لرد العدوان وتأمين الدعوة ، ومعتنقيها من مكان الدس والغدر والتربص والتحرش فى الداخل والخارج .

وقد أوضح السيد المؤلف الفواصل بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء ، وبين أن الأولى تعتمد على الصدق والشرف . والأخرى تبيح لنفسها الكذب والتحريف والاختلاق » وركز على أن القدوة الحسنة وسيلة من وسائل

الإعلام تغنى بذاتها عن جهود كثيرة تبذل فى سبيل الإعلام ، وقدم نماذج حية للقدوة الصالحة من سيرة الرسول الكريم. وكثير من رواد الصحابة عليهم رضوان الله تبارك وتعالى .

ونحن مع السيد المؤلف فى الانتفاع بموسم الحج كمجال لأكبر تجمع إسلامى فى مستويات متنوعة تجتمع كلها من القمة إلى القاعدة فى انسجام متهيىء للتأثير والحشد لما فيه خير الإسلام والمسلمين ، ولعل الأمل فى الاستجابة يخفف من آلام السيد المؤلف التى أحس بها والتى أشاركه الإحساس بمعاناتها ، والتى بقيت رواسبها فى نفسه منذ أدائه فريضة الحج عام ١٩٦٨ .

ومن اللمحات البارعة فى الكتاب استبطانه حادث الهجرة فى جميع جوانبه وزواياه ، وإبراز الحركة الإعلامية فيه ودراسته للأذان فى الاسلام واستخراج لون من الفنون الإعلاميه فيه سواء من جهة دلالته أو من جهة تركيبه اللفظى ، وتناوله صلح « الحديبية » ، وكيف كانت لحركات الهمس التى أسفرت عنها بعض شروطه أثر إعلامى فى نشر الدعوة ، وكيف كان الفاروق عمر رضى الله عنه يستعمل أحدث أساليب قياس الرأى العام وغير ذلك كثير فى ثنايا هذا الكتاب الرائد .

وربما تطرق إلى الفهم العجلان مايريب فى مواقف بعض الصحابه فى بعض الأحداث ، لذا ندعو القارىء إلى التأنى فى القراءة ، وفى تناول الأحداث السياسية التى ألمت بالمسلمين ، منذ عهد الخليفة الثالث رضوان الله عليهم أجمعين ، ونحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ولكنا ننبه على أمر قد يغيب عن بعض القراء .

ذلك أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه كما قال القاضى أبو بكر بن العربى : كان عند الظن به ، ماخالف عهدا ، ولا نكث عقدا ، ولا اقتحم مكروها ولا خالف سنة [1] وقد كان النبى ﷺ قد أخبر بأن عمر شهيد ، وبأن عثمان شهيد على بلوى تصيبه .

---

(١) العواصم من القواصم لابن عربى تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب من ٥٢ — ٥٥ .

وقد أورد ابن العربى رحمه الله جميع ما وجه إلى الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضى الله عنه من مآخذ وأتى على جميعها نقدا موضوعيا بالحجة والبرهان .

وكانت أصابع الفتن والكيد للإسلام والوقيعة من أعدائه هى محرك الأحداث فى نشأتها ومسارها وتواليها .

وبعد : فإن السيد المؤلف رحمه الله جدير بالتقدير ، وحسبه أنه بحق رائد هذا المجال الذى لم ينفذ إليه من قبله فكر .

وأقول متناسقاً مع المؤلف : إذا كان لى أن أقترح شيئاً على الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث فى مصر وغيرها من بلاد العالم الإسلامى فإنى أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بمشروع « التأريخ للدعاية والإعلام فى الإسلام » .

وأضيف إلى هذا تنقية التاريخ تنقية يمكن معهاتنحية كل مزور ، وإبعاد كل ما ليس له من الصحة حظ حتى تكون لدينا ذخيرة إعلامية متميزة الأبعاد تستقبل ما تفد به الأيام والأجيال من متنوع الأساليب .

والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، وجزى الله السيد المؤلف أطيب الجزاء وأجزله . ونفع بما قدم للمكتبة الإسلامية من جهود موفقة ، ورحمه رحمة واسعة .

إنه سميع مجيب . . .

والحمد لله رب العالمين .

دكتور

عبد الحليم محمود

الإهداء

إلى الجامعة الأزهرية العظيمة وقد
بدأت تتجه عنايتها إلى دراسة
الإعلام والدعاية ، وذلك فيما
عنيت به من الدراسات المعاصرة
.. أقدم هذا الكتاب ،

عبد اللطيف حمزه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدث التاريخ عن الإسلام من زوايا كثيرة :

منها الزاوية الدينية والسياسية ،والاجتماعية، والاقتصادية، والإدارية، ومنها الزوايا العلمية، والثقافية،والفلسفية ، والمذهبية، ومنهاالزوايا الخلقية، والفنية ، والحربية .

كما كتب الكثير عن تاريخ الأدب الإسلامى نفسه ، وبذلك أصبحت الثقافة الإسلامية من أوسع الثقافات التى عرفتها البشرية منذ ظهور الإسلام إلى اليوم .

ولكن بقيت من هذه الزوايا المتعددة زاوية واحدة هى زاوية الإعلام أو الاتصال بالناس .

ولم يكن ذلك تقصيراً من القدماء بوجه من الوجوه إذ أن علم الاتصال علم حديث كل الحداثة ، وإن كان الاتصال فى ذاته قديماً كل القدم ، فقد مارسه جميع البشر منذ وجدوا على ظهر الأرض، ومنذ احتاج بعضهم إلى الاتصال ببعض، وصدق الله تعالى إذ يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

والآن وقد أصبح الاتصال علماً من العلوم الحديثة المعروفة لم يبق هناك عذر للعلماء المحدثين إذا هم قصروا فى البحث عن الأديان ـ ومنها الاسلام ـ وذلك من الناحية الاعلامية ، أو من ناحية الدعاية ، وهاتان الناحيتان هما جانب من جوانب الاتصال .

وهذا وحده فى الواقع هو ما حفزنا إلى التفكير فى وضع الكتاب بين يدى القارىء .

* * *

غير أننى أريد أن أقول لهذا القارىء كلمة صريحة تنبع من ضميرى العلمى ، أو شعورى بمسئوليتى عن هذا البحث .

هذه الكلمة هى أننى أقدمت على هذا البحث بشىء غير قليل من التردد والخوف ، فما السبب فى ذلك ؟ .

إن الذى يبحث فى تاريخ الإعلام فى الإسلام لا بد أن تكون له أصالة حقيقية فى الثقافة الإسلامية ، والتاريخ الإسلامى ، والمذاهب الإسلامية ، ولابد أن تكون فى نفسه أصالة حقيقية فى علم الاتصال الذى يشتمل على فنون كثيرة ، من أهمها : فن الإعلام بوسائله الكثيرة ، وفن الدعاية بأشكالها المختلفة ، وأين من يدعى لنفسه الإحاطة الكاملة بهاتين الثقافتين السابقتين فى دقة وعمق معاً ؟

ثم عدت أسأل نفسى هذا السؤال :

هل أستطيع أن أفر من هذا الميدان ـ ميدان البحث فى تاريخ الإعلام فى الإسلام ـ وقد مضت لى تجربة طويلة إلى الآن فى كل من الثقافة الإسلامية والثقافة الإعلامية ؟ .

وسرعان ما أجبت عن هذا السؤال الأخير بالنفى .

فإننى أذكر ـ وليس ذلك تزكية لنفسى ، ولكن بنعمة الله أحدث ـ أننى شاركت فى الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما وضعت فى الثقافة الصحفية والإعلامية ما لا يقل عن أربعين بحثاً .

ومعنى ذلك أنه ليس من حقى بعد ذلك أن أتخلى عن هذا الميدان ، ميدان البحث فى تاريخ الإعلام فى الإسلام ، بل يجب على أن أدلى بدلوى وأضرب ضربتى الأولى فى هذه الأرض البكر .

وإننى لعلى يقين تام بأن هذا الاتجاه الجديد فى بحوث الاتصال فى

الإسلام سيغرى الكثيرين من الباحثين بالدخول فى هذا الميدان ، وبذلك يعرض لنا الباحثون صوراً جديدة من التاريخ الإسلامى ، وزوايا جديدة من هذا التاريخ كانت مجهولة كل الجهل من جمهور المثقفين قبل اليوم .

وكم من كنوز سيقع عليها الباحثون فى هذه المنطقة من مناطق البحث عندما يتحدثون عن الدعاية الأموية ، والدعاية العباسية ، والدعاية المذهبية ، والدعاية الفاطمية ؛ وكم من كنوز سيقعون عليها عندما يتحدثون بنوع خاص عن دعاية الشيعة ، ودعاية القرامطة والدعاية فى عهد الحروب الصليبية ، وذلك حتى يصلوا فى بحوثهم إلى الدعاية فى حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

* * *

شيء آخر دعانى إلى ترك الخوف والتردد فى اقتحام هذا الميدان — ميدان البحث فى تاريخ الإعلام فى الإسلام — هو الدفاع عن كرامة المؤلفين العرب الذين لا يليق بهم أن يظلوا تابعين للمؤلفين من غير العرب ، أو يظلوا مكتوفى الأيدى حتى يأتى علماء أوربا فيؤلفوا لهم فى النواحى التى لم يؤلف فيها بعد من نواحى الثقافة الإسلامية كناحية الدعاية الإعلامية فى الإسلام .

وبهذا وحده نتغلب على مؤامرة الصمت التى ترتكب ضد الثقافة الإسلامية من جانب علماء أوربا وأمريكا ، وذلك فى النصف الثانى من القرن العشرين على وجه التحديد كما صرح بذلك المؤرخ الفرنسى جارودى (١) .

* * *

وثالث الدوافع التى حفزتنى على تقديم هذا الكتاب إلى القراء ، هو ما نعلمه عن أكثر شباب الجيل الحاضر أنهم أصبحوا يعرفون عن التراث

(١) جريدة الأهرام : العدد الصادر بتاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٦٩ فى محاضرة ألقاها فى موضوع « الحضارة العربية وأثرها فى الثقافة العالمية » .

الأوروبى أكثر مما يعرفون عن التراث الإسلامى ، بل أصبح شباب هذا الجيل يفاخر بعضهم بعضاً بهذه الصفة .

وكان الأولى بهم أن يتشبهوا بآبائهم وأجدادهم منذ العصر العباسى ، وهم الذين جمعوا إلى الثقافة العربية كلا من الثقافتين اليونانية والفارسية ، وصهروا هذه الثقافات الثلاث فى بوتقة واحـــدة خرج منها ما يسمى « بالثقافة الإسلامية » التى تتألف من العنصر العربى ، والعنصر الفارسى ، والعنصر اليونانى ، أما اكتفاء الجيل الحاضر « بالثقافة الأوروبية » وتفاخرهم بتجاهل الثقافة الإسلامية ، فقد كان جائزاً فى عهود الاستعمار ، أما فى العهد الذى بدأت فيه الشخصية العربية تتميز بين الشخصيات ، فلا ، ثم لا .

* * *

ولقد كان الإسلام فى ذاته ثورة ، كما كانت المسيحية فى ذاتها ثورة ، وكانت اليهودية ثورة ، وكان لابد أن تعتمد هذه الثورات على كثير من وسائل الإعلام أو الاتصال حتى تنجح و تحقق الغرض الذى جاءت من أجله ، ومن ثم أصبحت دراسة الاتصال بأنواعه التى من أهمها الدعاية والإعلام واجبة على جميع معاهد الإعلام فى العصر الذى نعيش فيه ، وهى أشد وجوباً — فيما نرى — للجامعات التى تعنى بالدراسات الدينية أو المعاهد التى تشغل بإعداد المبشرين الدينيين وتخريج الدعاة .

أثر عن بعض البابوات المحدثين أنه قال :

لو بعث المسيح من جديد لاختار لنفسه أن يكون صحفياً ، وهذا قول ينطبق على الأنبياء جميعهم على السواء .

فإن النبى إذا بعثه الله فى أمة من الأمم وجب عليه أن يختار من وسائل الإعلام والإرشاد والاتصال بالناس أنجح هذه الوسائل فى العصر الذى ظهر فيه .

وقد كانت الوسيلة الإعلامية سحراً فى عهد موسى ، وكانت طباً فى عهد عيسى ، وكانت قرآناً فى عهد خاتم النبيين محمد ﷺ .

أليس معنى ذلك أن الإسلام دين إعلامى لأنه اعتمد على القرآن . . والقرآن آية الله تعالى فى البلاغة ، وفى التأثير فى نفوس البشر إلى الدرجة التى سجد لها العرب ، وإذا كان القرآن هو أكبر وسائل الإعلام فى الإسلام فلماذا لانسميه ديناً إعلامياً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟

ثم إن وسائل الإعلام فى ذاتها نوعان : نوع قديم وآخر حديث ، والنوع الأول منهما فطرى من صنع البشر ، كالخطابة والشعر والندوة والسوق، والنوع الثانى منهما صناعى من اختراع العلم كالصحف والراديو والتلفزيون ووكالات الأنباء والسينما ونحو ذلك . . وكل وسيلة من هذه الوسائل الحديثة من وحى العلم ووليدة الاختراع ولا ندرى ماذا سيستحدث منها فيما بعد، وبها تيسر الاتصال بين الناس، وقد كثر عددهم فى كل بقعة منها، ولم يعد فى وسعهم أن يتصل بعضهم ببعض عن طريق الخطابة فقط أو القصيدة فقط ، أو السوق فقط أو الندوة فقط وهكذا ، لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يجمع الملايين فى مكان واحد ليخاطبهم فى موضوع معين ، كما كان الحكام أو القادة يقدرون على شىء من ذلك فى الأزمنة القديمة ، وإنما أصبحت الوسيلة الوحيدة فى العصور الحديثة لهذا الاتصال هى الصحف أو الاذاعة أو وكالة الأنباء وما شاكل ذلك، ولهذا أصبحت عملية الاتصال فى ذاتها فى العصر الذى نعيش فيه عملية مصطنعة تفقد كثيراً من قيمتها وإن لم يكن فى استطاعة أى مجتمع من المجتمعات أن يستغنى عنها.

بينما الوسائل القديمة كانت لها قدرة أكيدة وعجيبة على التأثير فى الأفراد والجماهير بالقدر الذى لايمكن أن تحلم به وسيلة من وسائل الاتصال الحديث كالصحافة والإذاعة ونحوها .

* * *

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذى بين أيدى القراء مؤلف من ثلاثة أبواب :

الأول : يتحدث عن وسائل الإعلام التى عرفها العرب فى الجاهلية والإسلام ، فأما الجاهلية فقد عرف عنها وسيلة التجارة الخارجية ، والتجار العرب كغيرهم من تجار الأمم الأخرى كانوا يشتغلون بنقل الأخبار من مكان إلى مكان ، وكانوا يشتغلون بنقل الثقافة أيضاً . كما كان من الوسائل الإعلامية فى الجاهلية وسيلة البعثات الدينية كاليهودية والنصرانية ، وقد كان لها أثر كبير فى الإعلام العربى والثقافة العربية فى الجاهلية ، هذا كله فى خارج جزيرة العرب ، وأما فى داخل شبه الجزيرة فقد مارس العرب شتى الوسائل المعروفة فى البيئات القديمة ، ومن أهمها القصيدة الشعرية ، والخطبة والخطباء ، والنداء والمنادون والأعياد ، والأسواق والندوات وغير ذلك .

وجاء الإسلام فاستحدث صوراً جديدة فى مجال الإعلام والاتصال بالناس ، ومن أوضح هذه الصور القرآن الكريم الذى هو أكبر وسائل الإعلام فى الإسلام ، ثم الحديث الشريف ، وقد اعتمدت عليه جميع العصور الإسلامية من الناحية الدعائية ، وكانت القدوة الحسنة من جانب الرسول وكبار الصحابة من أكبر العوامل فى نشر الدين الجديد ، وقد اعتمد الرسول ﷺ إلى جانب ذلك على وسيلة معروفة فى علم الاتصال أو الإعلام ، وهى وسيلة الاتصال بنوعيه الشخصى والجمعى ، والنوع الأخير يتمثل بوجه خاص فى مجال الإعلام والدعاية ، ومع هذه الذرائع الاعلامية كلها كانت ذريعة القصص غير القرآنى ، وقد بدأت فى الظهور أيام الخلفاء الراشدين ، ثم اعتمدت عليها الخلافة الاسلامية بعد ذلك منذ الخليفة الأموى الأول معاوية ابن أبى سيفان . ويضاف إلى هذه الميادين الإسلامية كلها ميدان الحج ،

وقد كانت مواسم الحج ميداناً كبيراً للإعلام والدعاية، وقد أفاد الرسول ﷺ من هذه المواسم فى نشر العقيدة الإسلامية .

وباختصار جاء الباب الأول من أبواب هذا الكتاب عرضاً شاملا للوسائل الإعلامية التى عرفها العرب فى الجاهلية، والوسائل الإعلامية التى احتاج إليها الاسلام .

ثم فى الباب الثانى من أبواب الكتاب وعنوانه (الدعوة فى عهد الرسول) أتينا بكلمة تمهيدية للتفرقة بين الدعوة والإعلام والدعاية .

أما الدعوة فاسم عرفت به جميع الجهود التى بذلها الرسول فى سبيل الرسالة التى بعثه الله من أجلها ، وقد شملت هذه الجهود جميع الوسائل الإعلامية التى ظهرت فى الإسلام .

وأما الإعلام فاسم لجميع الجهود التى بذلها الخلفاء الراشدون وكانوا فيها صورة دقيقة من الرسول نفسه وذلك فى العقيدة ذاتها .

وأما الدعاية فهى الجهود التى بذلها الحكام المسلمون وأقاموا عليها حكوماتهم وذلك منذ حكم معاوية بن أبى سفيان إلى وقتنا هذا . وبعد هذا التمهيد شرح الكتاب مراحل الدعوة الإسلامية وهى المرحلة السرية ، والمرحلة العلنية ومرحلة الاضطهاد الدينى ، ومرحلة الهجرة ، ومرحلة الاستقرار بالمدينة . ووقف البحث عند كل مرحلة من هذه المراحل ، واستعرض الطرق الإعلامية التى سلكها الرسول فى كل مرحلة منها .

وبنوع خاص فى المرحلة الأخيرة ، وهى مرحلة الاستقرار بالمدينة ، وفيها اتسعت مجالات الإعلام وعظم نشاط النبى ﷺ فى هذه المجالات وتعددت صوره وأشكاله ، وجنى المسلمون ثمرة هذا النشاط فى كل صوره ، وفى نهايتها نزل قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »

وفى الباب الثالث والأخير من أبواب هذا الكتاب حديث عن الإعلام فى عهد الخلفاء الراشدين وذلك فى فصول أربعة : فصل فى الإعلام على

عهد أبى بكر ، وفصل فى الإعلام على عهد عمر ، وفصل فى الدعاية والإعلام على عهد عثمان ، وفصل فى الإعلام على عهد على . وانتهى البحث عند هذا الحد .

اقتراح :

(وبعد) فإذا كان لى أن أقترح شيئاً على الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى ، فإنى أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم . وأعنى به مشروع :

التأريخ للدعاية والإعلام فى الإسلام

ولهذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكرة فكرة ، أو مذهباً مذهباً ، ففى النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإعلامية الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رافد من الروافد التى تصب فى نهر الإعلام .

نعم — ألح فى العناية بهذا المشروع الجلل لأمرين :

أولا : أننى لا أستطيع بمفردى أن أقوم بجمع الحلقات التى تتألف منها هذه السلسلة .

ثانياً : أننى لم أقل غير الكلمة الأولى فقط من هذه الحلقة الأولى بمعنى أن موضوع (الدعاية والإعلام فى صدر الإسلام) ما زال مفتوحاً أمام الباحثين لأننى لم أقل فيه الكلمة النهائية .

* * *

وبعد : فإننى أقدم الشكر لجميع من تفضلوا بمعاونتى فى هذا البحث ولو بإبداء الرأى .

فأشكر صديقى وزميلى الدكتور : إبراهيم إمام أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة .

وأشكر الشاب العراقى الأستاذ عناد الكبيسى فقد جاءنى ببعض

النصوص التى احتاج إليها البحث . وأشكر موظفى المكتبة التابعة لجامعة أم درمان الإسلامية . فقد يسرت لى الحصول على بعض المراجع القديمة والحديثة منذ كلفتنى هذه الجامعة بإلقاء بعض المحاضرات فى موضوع الدعوة الإسلامية وأساليب نجاحها .

ثم أشكر — مقدماً جميع الذين يتعرضون لنقد هذا الكتاب من جميع جوانبه . وأنا أشد الناس حاجة إلى هذا النقد .

والله أسأل أن ينفع بهذا جميع المثقفين فى العالم العربى والراغبين فى إنصاف الثقافة الإسلامية من رجال العلم فى كل بقعة من بقاع الأرض .

مصر الجديدة فى فبراير ١٩٧٠ **عبد اللطيف حمزة**

صور الاتصال والإعلام

عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام

الفصل الأول

الاتصال بالجماهير

بعض صوره في الجاهلية

تختلف المجتمعات القديمة عن الحديثة فى نواح شتى : أهمها ناحية الاعلام والاتصال بالجماهير. ذلك أن المجتمعات القديمة كانت ضيقة بالقياس إلى المجتمعات الحديثة ، وفى البيئات الضيقة من حيث المساحة والعدد يسهل اتصال الأفراد بعضهم ببعض .

ونستطيع أن ندرك هذه الحقيقة بجلاء حين نوازن — من هذه الناحية — بين القرية من جهة والمدينة أو العاصمة الكبيرة من جهة ثانية ، ذلك أن التفاهم بين الأفراد فى القرية أيسر بكثير من التفاهم بينهم فى العاصمة أو المدينة المزدحمة بالسكان .

ومعنى هذا أن قلة العدد فى أى بيئة أو مجتمع مما يسمح بحرية المناقشة وإبداء الرأى . أما كثافة السكان فى البيئة أو المجتمع فإنها تعوق هذه الحرية وتجعل الأفراد فى الأمة الواحدة أشبه بالقطيع الذى لا حيلة له إلا الخضوع للراعى . ونكاد لا نستثنى من هذه القاعدة غير بيئة مكة والمدينة فى صدر الإسلام ، وبيئة أثينا فى بعض عصور التاريخ القديم . ومع هذا وذاك فإن المجتمعات القديمة كانت — كما يحدث التاريخ — لا تحفل كثيراً بما يسمى (بالرأى العام) .

أما المجتمعات الحديثة فلها عناية بهذا الرأى ، ومن ثم وجدنا فيلسوفاً كبيراً كأفلاطون يجرد الرأى العام للجماهير من كل قيمة . ومن أقوال فلاسفة اليونان ، فى ذلك ، أن الأمة إذا اتسعت اتساعاً كبيراً لا تقوى على المحافظة على حريتها . والسبب فى ذلك أنه لابد أن يجتمع الناس كلهم فى ساحة واحدة لكى يستمعوا إلى أقوال الزعماء والقادة . وبدون ذلك

لا يستطيع الشعب الاطلاع على أحوال الحاكم – أو بعبارة أخرى – لا يستطيع تتبع أعمال الحكومة[١] .

من أجل هذا لم يكن التاريخ يعطينا الدلائل الكافية على وجود رأى عام بمعناه الصحيح فى البيئات القديمة ، وذلك باستثناء مكة والمدينة وأثينا. بل إن التاريخ أمدنا بالشواهد الكثيرة على وجود رأى واحد فقط هو رأى الحاكم ، والذى ينظر إليه فى بعض تلك البيئات القديمة على أنه ظل الله فى الأرض ، ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأوامره[٢] .

مهما يكن من شىء فقد كان للإعلام والاتصال بالجماهير ميادين كثيرة فى البيئات القديمة . غير أن تلك الميادين الإعلامية القديمة كانت تختلف فى صورتها عن الميادين الحديثة .

فنحن نعرف أن الاتصال بالجماهير فى هذه العصور الحديثة يشمل ميادين كثيرة من أهمها : الإعلام والدعاية والإعلان والعلاقات العامة والتعليم والحرب النفسية .. إلخ . ونفس هذه الميادين فى الواقع هى التى وجدت العصور القديمة وذلك مع فارق واحد لابد من وجوده ، هو اختلاف الصورة فى البيئات القديمة عنها فى الحديثة .

لقد عرف الناس فى البيئات القديمة كلا من الإعلام والدعاية ، ولكن بالصور والوسائل التى تناسبها ، كما عرف الناس فى تلك البيئات القديمة كلا من الإعلان والعلاقات العامة والتعليم بالصور والوسائل التى تتناسب معها وهكذا .

فأما الإعـــلام

فقد عرف الناس فى البيئات القديمة من أساليبه المتعددة ووسائله الكثيرة – وخاصة فى العصر الجاهلى – أشياء كثيرة من أهمها فيما يتصل بالإعلام الخارجى ما يلى :

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ٥ . الناشر دار الفكر العربى .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الإعلام له تاريخه ومذاهبه ص ٩٥ الناشر دار الفكر العربى .

١ — وسيلة التجارة : والتجار فى الجزيرة العربية كمافى البلاد الأوربية كانوا ينقلون الأخبار ويقتبسون بعض مظاهر المدنية وينقلونها من مكان إلى مكان ، يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتاب فجر الإسلام[1] :

« شاع بين الناس أن العرب فى جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها لاتتصل بهم فى مادة ولا تقتبس منهم أدباً ولاتهذيباً . والحق أن هذه الفكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً » .. ونزيد نحن على ذلك أن هذا الاتصال بين العرب ومن حولهم من الأمم كان إعلامياً إلى جانب أنه مادى وأدبى .

٢ — ومن تلك الوسائل الإعلامية كذلك البعثات اليهودية والنصرانية التى كانت تتغلغل فى جزيرة العرب تدعو إلى دينها ونشر تعاليمها . فقد تكونت مستعمرات يهودية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون. وأشهرها «يثرب» التى سميت فيما بعد (بالمدينة) وكان من أشهر القبائل اليهودية فى يثرب قبيلة (بنى النضير) وقبيلة (بنى قريظة) وقبيلة (الأوس والخزرج) وهما من اليمن. وكان اليهود حملة الثقافة اليونانية إلى الجزيرة العربية لأنهم نزحوا إليها من مراكز هذه الثقافة بالشام والإسكندرية .

وأما البعثات النصرانية ومن أهمها بعثة تنتمى إلى فرقة النساطرة وأخرى تنتمى إلى فرقة اليعاقبة . النسطورية فى الحيرة واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام ، وأهم مركز للنصرانية فى الجزيرة العربية هو نجران . وكان يتولى أمورها ثلاثة رؤساء . السيد ، والعاقب ، والأسقف . فالسيد كان رئيس القبيلة فى الحروب وكان يتولى أمر العلاقات بينها وبين القبائل الأخرى . والعاقب يتولى الأمور الداخلية ، والأسقف يتولى الأمور الدينية .

وكان بنجران كعبة تضاهى الكعبة بمكة . ثم تحولت كعبة نجران إلى كنيسة ، وكان لنجران اتصال كبير بالحبشة لأنها يعقوبية المذهب . . وكان

(١) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ٣٢ ومابعدها .

قسس نجران يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

وكانت النصرانية قبل دخولها الجزيرة العربية تحمل فى ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن فى اليهودية . وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين فلجئوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان[1] .

هكذا كانت هذه البعوث اليهودية والنصرانية وسائل اتصال بين العرب والأمم والمدنيات المجاورة .

٣ — ثم من وسائل الاتصال بالجماهير فى الجاهلية أو من أسباب هذا الاتصال ووجوده — إنشاء الإمارات على الحدود . ذلك أن الجزيرة العربية كانت تقع بين أعظم حضارتين آن ذاك : الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية — أولاهما من ناحية الشرق والثانية من ناحية الغرب ، وقد حاول كل من الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لشرهم وسلبهم ونهبهم . وبدلا من أن يكلفوا أنفسهم غزو جزيرة صحراوية لا أمان لها ، فإنهم — أى الفرس والروم — ساعدوا بعض القبائل العربية المجاورة لهم على أن يستقروا فى الحدود يزرعون فيها ويتحضرون ، ويكونون فى الوقت نفسه رداً لهم ضد بقية البدو المقيمين فى صحراء الجزيرة العربية . ومن ثم تكونت فى شبه الجزيرة إمارات على الحدود منها :

إمارة الحيرة على تخوم الفرس .. إمارة الغساسنة على تخوم الروم . فكانت هذه الإمارات أو المدن الجديدة همزة الوصل بين العرب من جهة والأمم المجاورة لهم من جهة ثانية .

قال الهمذانى فى كتاب (الوشى المرقوم)[1] .

« لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب . وذلك

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣٣ ومابعدها .

(١) أحمد أمين — فجر الإسلام ص ٣٢ نقلا من الكتاب .

لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الشام أخبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً .. إلخ .

* * *

تلك إذن هى أهم وسائل الاتصال بين العرب ومن جاورهم من الأمم فى العصر الجاهلى ، وثم وسائل الاتصال بين العرب بعضهم وبعض فى داخل شبه الجزيرة أشرنا إليها فى كتابين سابقين هما كتاب « الإعلام له تاريخه ومذاهبه » وكتاب «الإعلام والدعاية » ولا بأس من أن نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ — القصيدة الشعرية :

الحق أن الشعر فى العصر الجاهلى كاد يكون هو الوسيلة الوحيدة من وسائل الإعلام والدعاية ؛ والحق أنه لم توجد إلى جانب هذه الوسيلة غير وسيلة الخطابة ، ولكن المنزلة الأولى فى الجاهلية كانت للشعر دائماً ، وفى بيئة لا يعرف القراءة والكتابة فيها إلا قليلون يكادون يعدون على الأصابع كان لابد للشعر أولا ثم للخطابة بعد ذلك أن يقوم بوظيفة الإعلام ووظيفة الدعاية للقبيلة . ولعل أكبر دليل على أهمية القصيدة العربية واهتمام العرب بها ما رواه التاريخ عن العرب أنهم كانوا يختارون أجود القصائد ويكتبونها على (القباطى) بماء الذهب ، وكانوا يعلقونها على أستار الكعبة أو فى بيوت الملوك ، ومن أشهر هذه القصائد ما سمى (بالمعلقات السبع أو العشر) .

صحيح أن قلة من المؤرخين أنكروا ذلك ، وعلى رأسهم (أبو جعفر النحاس) وتبعهم بعض المستشرقين فى هذا الرأى . ولكن بقية المؤرخين والنقاد ذهبوا فى قصة المعلقات إلى أنها صحيحة . ذكر البغدادى فى خزانة الأدب : أن العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتى قائله فى موسم الحج فيعرضه

على أندية قريش . فإذا استحسنوه روى وكان فخرا لقائله . وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه[1] .

والعقل لا يرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد فى الكعبة . ويجوز أن يقع ذلك فى أيام المواسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن يكون فى ساعة من نهار . والتاريخ يذكر أن قريشاً حين استقر رأيها على قطيعة بنى هاشم كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة .

ولم تجد قريش أفعل من هذه الطريقة الإعلامية ولا أقوى منها تأثيرا فى نفس الرسول وأصحابه وفى نفوس بنى هاشم ليفهموهم أن قريشاً مصممة على تعذيبهم بهذه الطريقة لأن تعليق الصحيفة على أستار الكعبة يعطيها كل هذه الأهمية الإعلامية التى لا تجارى . .

والتاريخ يذكر لنا كذلك أن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون بالخلافة بعده أمر أن يعلق فى أستار الكعبة ليكتسب بذلك قوة وهيبة ، وليزداد الناس خضوعاً لهذه الطريقة الإعلامية الضخمة .

إذا صح كل ذلك فلامانع من أن يكون للعرب وللشعر عندهم كل هذه المنزلة — عناية بالمعلقات التى هى من أجود القصائد العربية باعتراف جميع النقاد ، والتى تعتبر فى الوقت نفسه من أعظم أنماط الدعاية للشاعر ولقبيلته التى يدافع عنها ويفتخر بها فى معلقاته .

أجل لقد شهد التاريخ أن القصيدة الشعرية قامت بوظيفتها فى العصر الجاهلى خير قيام . وأن الشاعر إذا ظهر فى قبيلة من القبائل هنأ أفرادها بعضهم بعضاً ، وهنأتهم القبائل الأخرى كذلك بهذا الحادث السعيد وهو ظهور هذا الشاعر .

والسبب فى ذلك أن الشاعر فى القبيلة كان يقوم مقام الصحيفة بالنسبة للأحزاب فى الوقت الحاضر . فهو الناطق بلسان هذه القبيلة . وهو المناضل عنها بشعره ، وهو الحافز لهما فى أوقات الحروب وهو المصور لأخلاقها

(١) محمد هاشم عطية : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ص ٢٢٣ .

وعاداتها ومكانتها بين القبائل الأخرى . غير أن أكثر هذا الشعر كان من باب الفخر ، والفخر من أنسب الأبواب الشعرية فى الجاهلية وذلك لظهور العصبية والقبلية — فترى على حد قول القائل :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

... إلخ

وقد بقى هذا النوع من الشعر القبلى سائداً فى الجزيرة العربية حتى بعد ظهور الإسلام، وأظهر ما كان ذلك فى الدولة الأموية . ومن أكبر شعرائها جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وذو الرمة ، ولهم فى (باب النقائض) أو شعر المهاجاة القبلية شأن وأى شأن .

٢ — الخطبة والخطباء :

وقد كان هؤلاء يقومون بما قام به الشعراء من الوظائف الاجتماعية والسياسية وخاصة فى أوقات الفتن والحروب والقلاقل ، وقد كانوا يعتنقون النصرانية ، وكان لشعرهم وخطبهم طابع دينى فى أكثره .

٣ — المناداة :

وكان الناس يمارسون هذه الطريقة الإعلامية بأشكال مختلفة منها دق الطبول ومنها إشعال النار على قمم التلال أو المرتفعات ، ومن أهمها الأصوات التى ترتفع بها حناجر المنادين فى القرى والمدن .

وما زال كثير من هذه الأشكال سائداً فى البيئات العربية إلى يومنا هذا ، وإن أضاف إليها مرور الزمن أشكالا أخرى من المناداة ومنها إطلاق الأعيرة النارية فى الأفراح أو البشائر كالإعلان عن نجاح مرشح فى الانتخابات أو الإعلان عن نجاح شاب فى بعض الأسر وحصوله على شهادة علمية .

ومنها — أى من أشكال المناداة — ما كنا نراه فى القرية المصرية حين يختم صبى من صبيانها حفظ القرآن الكريم فإذ ذاك يركب الصبى جملا أو حماراً أو حصاناً ويطاف به فى القرية إعلاناً بأنه أتم حفظ القرآن الكريم .

وقد اختفت هذه الأشكال الأخيرة من أشكال المناداة فى الوقت الحاضر . كما سيأتى ذكر ذلك .

٤ — الأعياد :

وقد عرفت البشرية الأعياد فى جميع عصورها ولم يستغن عصر من هذه العصور عن الأعياد فى أى شكل من أشكالها . وعرف العرب فى الجاهلية كثيراً من الأعياد ومنها على سبيل المثال :

عيد الشباب :

فيه كان يجتمع شباب كل قبيلة تحت شجرة كبيرة ، أو فى مكان به أشجار كثيرة . ويأتى الشاب منهم فيعلق رمحه أو يعلق سيفه أو يعلق نوطه على غصن من أغصان الشجرة . ويحتفل الجميع بهذا اليوم وكانوا يطلقون على الشجرة اسما يعرفونه بينهم ، فيسمونها (ذات أنواط) يفعلون ذلك من قبيل الفخر بالقوة . وكان هذا الفخر فى ذاته يتفق وطبائع الجاهلية .

فلما جاء الإسلام ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على هذه الشجرة وكان معه أصحابه وفيهم بعض الشباب قالوا « يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط » فضحك رسول الله ﷺ ولم يجبهم إلى ما طلبوا . وعرف الشباب من الصحابة بعد ذلك أن الإسلام له أعياد من نوع آخر ، وله ذرائع لإظهار القوة من طراز جديد لأغراض جديدة لم تعرفها الجاهلية .

ومهما يكن من شىء فقد كان (عيد الشباب) فى الجاهلية وسيلة من الوسائل الإعلامية وطريقاً من طرق الدعاية . وبهذا الطريق كانت كل قبيلة تعلن عن قوتها حتى تخشاها القبائل الأخرى .

٥ — الأسواق :

يحدثنا الألوسى فى كتابه (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب) عن الأسواق فى الجاهلية والإسلام ، ومن هذا الحديث نعلم أن الأسواق عند العرب لم تكن مراكز للمبادلات التجارية فقط ولكنها كانت معرضاً

للبضائع الفكرية والأدبية إلى جانب أنها معرض للبضائع المادية أو التجارية. وفى الأسواق كانت تفض المنازعات القبلية . وفيها كانت تعلن القبيلة الحرب على قبيلة أخرى . وفيها كان يحدث التعارف بين الناس . وقد يؤدى هذا التعارف إلى عقد الزواج بين بعض وبعض . وفيها كان يأتى من كل قبيلة شاعر ليعرض شعره على الناس ويحتكم فيه إلى المحكمين فى نقد الشعر (كالنابغة) وغيره .

وفيها كان يأتى الخطباء ليخطبوا الناس فى مختلف الشئون ، وكان من أولئك الخطباء « قس بن ساعدة الإيادى » الذى كان يخطب الناس فى الأمور الكونية ويدعوهم إلى التأمل فى الموت وما بعد الموت . وقد سمعه رسول الله ﷺ وأعجب به .

وقد كانت هذه الأسواق على ضربين من حيث الإتاوات والمكوس (أو الضرائب)، منها مايفرض المكوس على الوافدين إليها ، وهى الأسواق التى تتبع قبيلة من القبائل بالذات . ومنها ما لايفرض هذه المكوس أو الضرائب لأنها لا تتبع قبيلة بالذات ، ومن الأخيرة سوق عكاظ . وقبل أن نتحدث عن سوق عكاظ التى هى فى نظر التاريخ أعظم أسواق العرب فى الجاهلية يجدر بنا أن نمر مروراً سريعاً ببقية الأسواق ومنها :

سوق دومة الجندل :

وهى سوق تجارية بحتة يحل موعدها كل عام فى أول ربيع الأول . وتقطنه قبيلتا كلب وجويلة طيء . ويشرف على موسمه أمراء من العرب . وكان (أكيدر) صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم فى أول يوم .

سوق المشقر : (بكسر الميم وتشديد القاف) .

وهى حصن قرب هجر وتنزل هذه السوق أخلاط من جميع العرب . وكان امرؤ القيس ينزلها . وفيها حصر كسرى بنى تميم ، وأغلق عليهم باب الحصن ، ثم قتل الجند وسبى الذرارى .

سوق هجر :

وهى سوق تجارية أيضاً تشتهر باللؤلؤ والنخيل وفيها تروج تجارات الهند وفارس ويدير أمورها (المنذر بن ساوى) ملك البحرين .

ثم من هذه الأسواق كذلك (سوق عمان) (وسوق حباشة) على أرض تهامة على بعد ست ليال من مكة إلى جهة اليمن . وقد تاجر فيها رسول الله ﷺ وسوق (صحار) وسوق (دبى) وسوق (الشحر) وغيرها .

وكل هذه الأسواق المتقدمة لاتعنينا كثيراً فى هذا البحث لأنها أسواق تجارية خالصة تفيد الناس من ناحية التجارة ومن ناحية الاتصال بعضهم ببعض ، ولـكن السوق التى تستحق منا كل عناية فى هذا البحث هى :

سوق عكاظ :

وعكاظ هى المعرض العربى العام أيام الجاهلية :

فهو مجمع أدبى لغوى رسمى له محـكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، وما استجادوه فهو الجيد ومابهرجوه فهو الزائف . وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية ، فما ينطق الحـكم بحـكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة ، فتسير فى أغوار الجزيرة وأنجادها ، وتلهج بها الألسن فى النوادى والحواضر ، ويحمل إلى هذه السوق التهامى والحجازى والنجدى والعراقى ، واليمانى واليمامى كل ألفاظ حية ، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلا واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ، ويطرح المجفو الثقيل ، كما أنها السوق التجـارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة . وهى معرض لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعية ، فهنا قس بن ساعدة يخطب فى الناس ويذكر الخالق ويعظم من كان قبلهم ويأمرهم بفعل الخير ، وهنا ندوة سياسية عامة تطرح فيها أمور كثيرة بين القبائل : فمن كانت له إتاوة على قبيلة نزل عكاظ فجاءوه بها . ومن أراد تخليد نصر لحيه — فعل فعل عمرو بن كلثوم — فرحل إلى عكاظ

وخلده فيها شعرا . ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك فى عكاظ حتى يسمع عامة الناس . ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه فى سوق عكاظ .

وكانت هذه السوق تقوم بين العرب يومئذ مقام الصحيفة الرسمية فى أيامنا هذه ، فمن أتى عملا شائناً تأباه مروءة العربى شهروا به فى عكاظ ونصبوا له راية غدر : فعرفوه فلعنوه فاجتنبوه . ومن أراد التبرؤ من قريب لسبب أو لآخر تبرأ منه فى عكاظ .

وعكاظ نخل فى واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وموقعها جنوب مكة إلى الشرق . وتقام هذه السوق فى ذى القعدة وتنزله قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وطوائف من العراق والبحرين واليمامة وعمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة . وليس فيها مكس ولا أعشار ، لأنها لاتتبع أحداً من الأمراء . حتى جاء الإسلام فكان يعظ بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع . وكان أبوه قاضياً فى الجاهلية . فمات فصار ميراثاً لهم .

وتقيم العرب فى عكاظ وهم يتهيئون للحج ويتناشدون ويتفاخرون ويتنازعون ويتنافرون ويتعاظمون ، ولم يكن للعرب سوق كعكاظ ، وبقيت له هذه الشهرة بعد الإسلام ، فقد جاء فى الأمالى لأبى على القالى أن (عبد الرحمن بن ملجم) قاتل على لما سئل عن قتله علياً قال : ضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ لقتلتهم . وكان يقوم بأمر الحكومة عامة بنو تميم وكانت الحكومة فى الشعر للنابغة ، وكانت تضرب له قبة بهذه السوق يجتمع إليه فيها الشعراء فدخل إليه حسان وعنده الأعشى ، قال النابغة أنشده شعراً وحكم له . ثم أنشدته الخنساء قولها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

وإن صخراً لكافينا وسيدنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير (يريد الأعشى) أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة (كناية عن المرأة) فقالت : والله من كل ذى خصيتين (كناية عن الرجل) ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها . قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : إنك لشاعر لولا أن قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

* * *

ووقف رسول ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنوات فى عكاظ يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة والإيمان ، وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، فعزم ليقصدن المواسم وليأتين فيها القبائل كل قبيلة بمنزلها وكل جماعة فى حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين .

قام فى عكاظ يقول :

يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ،

ويتبعه رجل له غديرتان وهو يقول :

يأيها الناس ، إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه .

فعرف الناس أن هذا الصاد عن سبيل الله هو عمه (أبو لهب) يكذبه كلما قال كلمة الحق .

وعاود الرسول الدعوة مراراً فلم يستجب له ولم ييأس ، فكان يقول للحى فى موسم عكاظ : لا أكره منكم أحداً على شىء ، من رضى الذى أدعوه إليه قبله ومن كرهه لم أكرهه إنما أريد أن تجوزونى مما يراد بى من القتل حتى أبلغ رسالات ربى . ويغفر الله لى ولمن صحبنى بما شاء .

ولعل أشهر أسواق الجاهلية أيضاً :

سوق مجنة : (بتشديد النون)

يقصده العرب بعد أن تنقضي سوق عكاظ .

سوق ذى المجاز :

ورد ذكرها كثيراً فى شعر العرب . وخاصة شعراء هذيل — لأنها من أسواقهم الكبرى . وهذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز كانت تقوم فى أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة . وقد شهدت إلى جانب البيع والشراء والمفاخرة مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى للرسول وابتلعت بضجيجها صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات .

وجاء الإسلام فاستمرت بعض هذه الأسواق وأضيف إليها أسواق جديدة منها :

المربد :

ولم يعهد لهذه الأسواق فى الإسلام تلك القيمة التى كانت لها فى الجاهلية ، وذلك أن العرب تحضرت وسكنت الأمصار وكثرت فيها الأسواق الدائمة إلا ما كان من أمر المربد الذى ورث عكاظ . وأخذ أمر المربد (وهو عكاظ الإسلام) يزداد شيئاً فشيئاً .

وتقع هذه السوق قرب البصرة ، وقلت أهميتها فى عصر الخلفاء الراشدين وعادت إلى قوتها فى العهد الأموى ، وذلك للعصبية القبلية التى كانت من صفات هذه الدولة .

وتتعدد حلقات هذه السوق ويتوسطها الشعراء والرجاز ، ويؤمها الأشراف وسائر الناس يتآمرون ويتفاخرون ويتهاجون .. إلخ .

ولكل قبيلة شاعر يعرض شعره فى المربد ، وكانت تموج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو ، معهم محابرهم ودفاترهم يكتبون من فصحاء الأعراب فلجرير والفرزدق حلقة والراعى النميرى وذى الرمة لكل منهما حلقة .. إلخ .

وكان لكل من الشعراء رواة ينقلون له ما قاله خصمه وينشرون فى الناس جواب شاعرهم عليه .

٦ — الندوة :

ولعل من أقوى طرق الاتصال بين العرب فى الجاهلية — عدا الأسواق — الندوة . وهى مكان يجتمع فيه أهل الرأى فى الأوقات التى تحتاج إلى تبادل الرأى .

ومن الأمثلة عليها (دار الندوة) قرب الكعبة ، وهى الدار التى اجتمع فيها رؤساء القبائل العربية ومنهم بنو هاشم وأخذوا يتشاورون فى الطريقة التى يتخلصون بها من محمد ﷺ . وكان ذلك قبيل الهجـرة ، وكان العرب ينتهزون فرصة اجتماعهم كذلك بالأسواق على النحو الذى شرحناه فى هذا الفصل ويعقدون فيما بينهم (ندوة) يتباحثون بها فى شتى المشكلات التى تعرض لهم ويخرجون بحل لكل مشكلة . وقد يشتد بينهم الجدال فلا يخرجون بشىء .

٧ — إشعال النار فى رءوس الجبال :

كذلك كان من وسائل الإعلام فى الجاهلية وسيلة فطرية لا تكلفهم شيئاً من الجهد والمشقة ، وهذه الوسيلة الأخيرة هى إشعال النيران فوق رءوس الجبال يخبرون بها عن عدو يريد الإغارة على القبيلة ، أو يخبرون بها عن حادث كبير ، ساراً كان أو محزناً حدث فى القبيلة ، أو يعلنون بها عن وليمة كبيرة وهكذا ، وحول هذه النار تحلق العرب ومعهم ضيفانهم وهم الذين من أجلهم أوقدوها . وكثيراً ما يكون بين القوم شاعر ينفعل بهذا المجلس ويمدح صاحب النار ويصفه بالكرم والجود ، فإذا روى هذا الشعر أصبحت لصاحب النار شهرة كبيرة .

وتحدثنا كتب الأدب عن رجل اسمه المحلق كانت له بنات لم يتزوجن وعلت بهن السن ، وفى ذات ليلة من الليالى جاءه شاعر من الشعراء فأوقد له

النار وبالغ فى إكرامه وطعامه وشرابه ، ونظم الشاعر قصيدة فى مدح هذا الرجل الذى أشعل النار (وبات على النار الندى والمحلق) وسارت هذه القصيدة ، وعلم الناس بأخبار الرجل وبناته فتقدم للزواج منهن خير شباب العرب .

والظاهر أن طريقة إشعال النار فوق الجبال هى التى تطورت بعد ذلك فى الإسلام إلى (المناور) والمناور هى مواضع رفع النار فى جنح الليل ومواضع الدخان فى وضح النهار . وتكون تارة على رءوس الجبال . وتكون تارة فى أبنية عالية . وفى كل واحد من هذه المناور — كما يقول صاحب صبح الأعشى — نظارة لرؤية ما وراء (المناور) وما يكون أمامها .

يقول صاحب صبح الأعشى : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند لكثرة وجود الجبال فى تلك البلاد .

ونحن نقول إن الأمر لا يحتاج إلى نقل فكرة (المناور) من بلد إلى بلد . لأن الطبيعة هدت العربى إلى إشعال النار فى رءوس الجبال لجميع تلك الأغراض الإعلامية ، ومن الطبيعى كذلك أن تخضع هذه الفكرة البسيطة للتطور شيئاً فشيئاً حتى تصبح فى العهود الإسلامية اللاحقة على صورة (المناور) .

٨ — المناداة :

وهى من أقدم الطرق الفطرية فى الإسلام وجدت فى جميع البيئات القديمة بدون استثناء ، والنداء فى جميع تلك البيئات وسيلة لنشر الأخبار ومازال إلى اليوم فى بعض البلاد العربية المتخلفة أو النامية . وذلك فى الوديان والسهول والقرى وبعض الجهات المتطرفة ، وما زال المنادى يتجول فى بعض المدن ، وقد يكون للمدينة الواحدة منادون كثيرون ، وأكثر ما يكون ذلك فى المواسم الدينية كشهر رمضان والعيدين ونحو ذلك .

لذلك كان من الأمور الطبيعية أن يوجد المنادى فى الجاهلية وأن يقوم بكثير من الأغراض الإعلامية ، وأن يشبه فى ذلك (المنادى) فى الإسلام

وهو الرجل الذى يعهد إليه بإذاعة الأوامر الحكومية والأخبار الحربية وبعض الأخبار الرسمية كوصول حاكم جديد للولاية وتحديد الأعياد الدينية .

وكما تطور إشعال النيران فى رءوس الجبال إلى (مناور) كذلك — فى رأينا تطور النداء فى الجاهلية إلى (الأذان) فى الإسلام وهو هذا النداء الذى يسمعه الناس خمس مرات فى اليوم والليلة إيذاناً بالصلوات الخمس المعروفة .

* * *

الباب الأول

أشهر صور الإعلام في صدر الإسلام

تمهيد

عرفنا أن العصر الجاهلى لم يكن يمارس من وسائل الإعلام غير الوسائل الفطرية المعروفة عند الأمم المتخلفة أو الجماعات البدائية ، وأن أهم هذه الوسائل التى عرفها الناس فى الجاهلية وسيلة القصيدة الشعرية ، ووسيلة الخطب ، ووسيلة الندوات ، والأسواق والمناداة ، ووسيلة إشعال النيران من أعلى الجبال ونحو ذلك .

ومنذ ظهور الإسلام كان لا بد من أن يصبح للإعلام صور جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، وصور قديمة احتفظ بها الإسلام وكانت معروفة للعرب من قبل :

فأما الصور القديمة التى احتفظ بها الإسلام فهى القصيدة الشعرية وإن لم يصبح لها فى الإسلام شأن كبير كما كان لها هذا الشأن فى الجاهلية ، ومنها الخطابة وهى الصور الإعلامية التى أصبح لها فى الإسلام شأن أكبر من شأنها فى الجاهلية ، ذلك أن الخطابة فن الاقتناع وأنها لا تزدهر فى عصر من العصور كما تزدهر فى عصر الثورات ، ولذلك بلغت الخطابة أوجها على يد الرسول وأيدى الخلفاء الراشدين من بعده : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وكان هذا الأخير مضرب المثل فى البلاغة العربية على حد سواء .

ثم من الوسائل الإعلامية التى احتفظ بها الإسـلام وسيلة الأسواق ووسيلة الندوات لأنهما متصلتان اتصالا قوياً بحياة الناس فى كل زمان ومكان .

جاء الإسلام واستحدث الكثير من الأساليب الجديدة فى ميدان الإعلام والاتصال بالناس منذ عرض عليهم هذا الدين الجديد . وبذل النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل هذه الغاية من الجهود الكبيرة التى ستتضح عند الكلام على كل أسلوب من هذه الأساليب على حدة .

وقد سبق أن قلنا فى التمهيد إن الجهود التى بذلها النبى فى ميدان الاتصال تسمى بالدعوة ، وإن الجهود التى بذلها الخلفاء الراشدون فى هذا الميدان يمكن أن نطلق على أكثرها اسم (الإعلام) ، ذلك أن الرسول كان قد أدى الأمانة وقام بالرسالة وفرغ من عرض الدين الجديد على الناس . أما الخلفاء الراشدون من بعده فكان عليهم واجب آخر لايصح أن نسميه (دعوة) ولكن نطلق عليه اسماً آخر هو (الإعلام) فى سبيل نشر الدعوة .

وإذا ذهبنا نستعرض أساليب الدعوة والإعلام فى صدر الإسلام وجدناها كثيرة فى جملتها ، وكانت كلهامن وحى القرآن ، أو كانت كلها من وحى الرسالة التى بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام . فمن هذه الأساليب بعد القرآن الكريم والحديث الشريف والخطبة النبوية :

أسلوب الأذان لإقامة الصلاة ، وأسلوب الغزوات والسرايا الحربية التى كان الرسول والخلفاء من بعده يقومون بتنظيمها لاستطلاع حال العدو وإعلامه أن الدين الجديد له من القوة الحربيـــة ما يستطيع بها المحافظة على نفسه فى الداخل والخارج ، وقد نظر هذا البحث — كما سبق القول فى ذلك — إلى الغزوات على أنها كانت من أقوى وسائل الإعلام بهذا المعنى .

أسلوب العلاقات الودية :

وقد كانت معروفة فى الحيـــاة الجاهلية ولكن لم يكن لها من الخطورة والأهمية ما أصبح لها منـــذ ظهور الثورة الإسلامية ، والسبب فى ذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا يقيمون حياتهم على العصبية القبلية .

وهى التى أشعلت بينهم نار الحرب لأتفه الأسباب ، ثم هى العصبية التى جاء الاسلام لمحاربتها واقتـــلاع جذورها من الوجود العربى ، ومن أجل ذلك وجدنا الاسلام قـــد أحل أسلوب العلاقات الودية محل العصبية ، ومارسها الرسول مع أصدقائه وأعدائه على السواء .

ولا شك أن الذى ساعد الرسول على القيام بهذه العلاقات الودية هم أصحابه من القراء والمتفقهين فى دينه ، فقد كان هؤلاء هم الصلة بينه وبين

القبائل العربية التى كانت تكرم هؤلاء الرسل تارة ، وكانت تسىء إليهم إلى درجة الغدر بهم وقتلهم تارة أخرى .

ومهما يكن من شىء فنحن إذا استعرضنا وسائل الاتصال بالجماهير فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين فسنجد أن أقواها تأثيراً فى النفوس وأعظمها نجاحاً فى الترويج للعقيدة التى جاء بها الرسول مالا يقل عن تسع وسائل نذكرها مرتبة حسب أهميتها على الوجه الآتى :

١ — القرآن الكريم .

٢ — الحديث الشريف والخطبة النبوية .

٣ — القدوة الحسنة من جانب الرسول والصحابة أجمعين .

٤ — الاتصال الشخصى والجمعى وهو من أقوى وسائل الإعـلام قديماً وحديثاً .

٥ — أسلوب القصص ، وهو وسيلة إعلامية ظهرت أول ماظهرت فى القرآن الكريم . ثم ظهرت على أيدى نفر ممن دخلوا الدين ا لجديد أطلق عليهم اسم(القصاصين) وكان لهذه الوسيلة أعمق الأثر فى تعلق المسلمين بهذا الدين ، ثم فى ميدان الجهاد من أجل نشر هذا الدين .

٦ — مواسم الحج أو مواطن التجمعات الاسلامية على أوسع نطاق . وقد كانت هذه المواسم أشبه شىء بالمؤتمرات الاسلامية الكبرى أو ، الأسواق العامة .

٧ — الغزوات التى نظر إليها البحث على أنها وسيلة إعلامية أوجبها القرآن لنشر الإسلام .

٨ — العلاقات الإنسانية .

٩ — القصيدة الشعرية .

من هذه الوسائل التسع سنتحدث عن الوسائل الإعلامية الآتية كل على حدة وهى :

أولا : القرآن الكريم .   ثانياً : الحديث الشريف .

ثالثاً : القدوة الحسنة . رابعاً : الاتصال الشخصى .
خامساً : القصص . سادساً : مواسم الحج .
سابعاً : العلاقات الإنسانية .

أما الغزوات والبعوث الحربية وأما القصيدة الشعرية وأما الخطبة النبوية فسنرجىء الحديث عنها إلى الوقت الذى نتحدث فيه عن (الدعوة الإسلامية على يد الرسول وطرق نجاحها) وتلك هى الخطة التى وضعناها للباب الأول من أبواب هذا الكتاب .

هذه هى أهم صور الإعلام والاتصال فى عهد رسول الله ﷺ وسنرى أن الخلفاء الراشدين اتبعوا هذه الطرق الإعلامية نفسها . ولم يكادوا يزيدون عليها . وذلك أن تاريخ الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم كان صورة دقيقة — فى ميادين الإرشاد والتعليم والاتصال والإعلام — من حياة الرسول .

ونحن حين نقف عند كل وسيلة إعلامية من هـذه الوسائل السبع سنضرب المثل فيها بالرسول . وذلك لأنه أضخم شخصية فى الوجود الإسلامى ، ولأن الاستشهاد بسيرته ومسلكه فى ميدان الاتصال يغنى عن الاستشهاد بالصحابة أنفسهم ، كما سنشرح ذلك فى كلمة بعنوان (تمهيد) سنبدأ بها الكلام فى الباب الثانى من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول
القرآن أكبر وسائل الإعلام
فى الإسلام

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم هو الوسيلة العظمى والطريقة المثلى للدعوة الإسلامية ، ولا محل للمناقشة أو الجدل فى هذه الحقيقة سواء كان هذا الجدل من المسلمين أو من غير المسلمين أو من الدهريين أو الوثنيين الذين لا دين لهم ولا عقيدة .

والبحث فى القرآن الكريم باعتباره أكبر وسيلة من وسائل الإعلام منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا بحث ليس بالهين . إنه بحاجة أولا إلى دراسة عميقة لهذا الكتاب السماوى من الزاوية الإعلامية ، وهو بحاجة ثانياً – إلى من من يجمع من صور هذا الكتاب المقدس كل الآيات القرآنية التى تحمل معنى الدعوة – أو التى رسمت للرسول طريق هذه الدعوة ، ومن أمثلة هذه الآيات – قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقد نص القرآن فى كثير من آياته على أن الرسول مكلف من قبل الله تعالى بشىء واحد فقط هو تبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة . وأنه ليس مسئولا عن تصديق الناس لها أو عدم تصديقهم إياها. قال تعالى : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » .

كما نص القرآن الكريم فى آيات كثيرة على الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها الداعية بوجه عام ، والتى يتحلى بها الرسول الكريم بوجه خاص . ومن هذه الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدال بالتى هى أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين ، والبعد عن الغلظة قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وحض الله رسوله كذلك على قتال المشركين ونشر الدعوة الاسلامية بطريق السيف ، فصدع الرسول لهذا الأمر ومارس الحرب لا للتوسع الإقليمى ولا للحصول على السلطان ولا للانتقام من أحد من المشركين : فليس بينه وبين أولئك المشركين إلا أن يقولوا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فإن قالوها عصموا منه دماءهم ولم يجز له أن يقاتلهم ، وأسلوب آخر من أساليب القرآن فى الدعوة إلى الاسلام — ولعله كان أكثرها وقعاً فى نفوس العرب وغيرهم من الأمم التى اعتنقت الاسلام — وهو أسلوب القصص ، وقد حفل الكتاب بقصص الأنبياء وما لقيه كل نبى منهم من أذى بأعنف الصور والأشـــكال التى عرفتها البشرية ، ومع ذلك صبر الأنبياء على ما أوذوا فى سبيل الله ، وكانت هذه الطريقة السلبية — وهى الصبر — من أنجح الطرق فى تبليغ رسالتهم السماوية إلى الأمم التى بعثوا إليها ، وكانت هذه القصص التى حكت حيـــاة الرسل من لدن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام قد بثت فى المسلمين روح التضحية والصبر من أجل الدين . وأوحت إليهم بالقدوة الحسنة التى سبق القول أنها كانت فى العصور القديمة من أنجح الوسائل فى ميادين الإعلام والتربية والتعليم وميدان العلاقات العامة .

ثم إن القرآن الكريم نزلت آياته حسب المواقف والحوادث التى مرت بالرسول ، يسترشد بهذه الآيات التى نزل بها الوحى فى كل حادثة من هذه الحوادث وفى كل موقف من هذه المواقف ، وكانت بعض آيات الكتاب تنبىء الرسول بما سيحدث له ولأصحابه فى المستقبل ، وكانت بعض آياته تقف الرسول على أخبار المشركين والمنافقين وما كان يدبره هؤلاء وهؤلاء من المؤامرات ونحو ذلك ، كما كانت بعض آياته تنقد حالة المسلمين فى كثير من المواقف التى تمر بهم وترشدهم إلى الصواب فى هذه المواقف .

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم من جميع هـــذه النواحى الإخبارية وما يتبع هذه الأخبار من نقد وتحليل لمواقف المسلمين والمنافقين ورسم

الطريق الذى يسلكه المسلمون تجاه المنافقين ورسم الآداب التى يجب على المسلمين أن يعاملوا بها الرسول . نقول إذا نظرنا إلى القرآن الكريم من هذه الناحية فقط أمكننا أن نعتبر هذا الكتاب المقدس صحيفة العهد الذى ظهر فيه الاسلام ، إذا صح هذا التعبير ، ولكنها صحيفة من طراز آخر يمتاز بالصدق كأحسن ما يكون الصدق وبالنزاهة فى التوجيه والارشاد كأحسن ما تكون النزاهة ، ولا غرو إنها صحيفة الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا .

وأهم من ذلك كله أن هذه الصحيفة الإلهية كان لها الأثر كل الأثر فى خلق مجتمع جديد فى الجزيرة العربية هو المجتمع الاسلامى الذى يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمع الجاهلى . يدلنا على ذلك أنه أصبح للمجتمع الاسلامى الجديد على يد الرسول مجموعة من القيم والمفاهيم مخالفة كل المخالفة للقيم والمفاهيم التى كانت للعرب فى الجاهلية ، وبعبارة أخرى أصبح المثل الأعلى للمسلمين على يد الرسول شيئاً مغايراً كل المغايرة للمثل الأعلى للعرب فى العصر الجاهلى .

وقد بحث المستشرقون من الغربيين هذه القضية بحثاً مستفيضا ، وأفاد الأستاذ أحمد أمين من هذه البحوث فى كتاب « فجر الاسلام » ، وقال : إن المثل الأعلى للرجل فى الجاهلية كان يتمثل فى الشعر العربى عامة وفى المعلقات بوجه خاص ، وقد صور طرفة بن العبد — وهو من شعراء المعلقات — هذا المثل الأعلى فى الجاهلية بقوله :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ۝ وربك لم أحفل متى قام عودى(١)
فمنهن سبق العاذلات بشربة ۝ كميت متى ما تعل بالماء تزبد(٢)

---

(١) معناه ولولا ثلاثه أشياء تقوم عليها حياتى لم أهتم متى جاء الأجل وتركنى جميع من يعودوننى فى المرض .

(٢) أول هذه الأشياء الثلاثة إسكات العاذلات والعذل الذين يلوموننى على شرب الخمر المعتقة التى يعلوها الزبد متى ما علاها الماء .

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الخباء المعمد(١)

وكرى إذا نادى المضيف مجنبا كسيد الغضا ذى السورة المتورد(٢)

وليس شك أن القارىء الحديث يجد صعوبة ما فى قراءة هذه الأبيات الجاهلية ولكننا نطالب هذا القارىء الحديث بأن يفهم مغزاها وأن يرسم فى ذهنه من خلالها صورة للمثل الأعلى للرجل العربى فى الجاهلية .

وهى صورة رجل يقول أنه لا يعيش حياته إلا لغايات ثلاث :

الغاية الأولى : شرب الخمر ،

الغاية الثانية : قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الجميلة ،

الغاية الثالثة : النجدة لكل من يستنجد به والهجوم على من يتعدى على هذا الضعيف هجوم الذئب على فريسته ، والغاية الأولى هى التى عبر عنها البيت الثانى وهى شرب الخمر التى يعلوها الزبد متى علاها الماء ،

والغاية الثانية هى التى عبر عنها البيت الثالث — وهى الجلوس إلى الحسناء فى اليوم الغائم تحت الخيمة القائمة على العمد ، والغاية الثالثة هى التى عبر عنها البيت الأخير وهى الاسراع لنجدة الخائف أو الملهوف أو الضعيف ، ليقفز لنجدته كما يقفز الذئب المختفى وراء الأشجار استعداداً للهجوم على

---

(١) الدجن : الغيم وبهكنة ، المرأة الحسناء ، والمعمد : القائم على أعمدة ، والمعنى أن الشىء الثانى من هذه الأشياء الثلاثة التى أعيش من أجلها هو قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الحسناء فى خيمة كبيرة ذات أعمدة .

(٢) كرى : من الكر وهو الجرى ، والمضاف : اللاجىء أو المستنجد والمجنب (بكسر النون المشدده) المنحنى من شدة الضعف أو الخوف وسيد الغضا (بكسر السين) هو الذئب المختفى وراء الأشجار استعداداً للهجوم على فريسته . وذى السورة ، معناه ذو الغضب الشديد. والمتمرد : أى الوارد على عجل . .

والمعنى : إن الشىء الثالث من الأشياء التى يعيش من أجلها وثوبه لنجدة من يستنجد به كما يثب الذئب على فريسته .

فريسته بكل عنف . ذلك إذن هو المثل الأعلى للرجل العربى فى العصر الجاهلى .

أما المثل الأعلى الذى رسمه القرآن للرجل المسلم فإنه يظهر فى آيات كثيرة ليس من السهل أن نحصرها ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم » ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى للرجل فى الإسلام هو مخافة الله تعالى مخافة تحول بينه وبين معصية الله ورسوله ، وقوله تعالى يشرح معنى التقوى التى هى المثل الأعلى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

الحق لقد كان الاسلام فى ذاته ثورة كبيرة ، وكان لابد لهذه الثورة أن تكون مقرونة بطائفة من القيم الجديدة والمفاهيم الجديدة ، ومثل جديدة يقوم عليها المجتمع الجديد ، ويصبح بها مغايراً كل المغايرة للمجتمع الذى سبقه إلى الوجود ، وهو المجتمع الجاهلى .

* * *

يقول الأستاذ توماس أرنولد فى كتابه (الدعوة الاسلامية)(١) .

إن دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه الغريب نظرة ملؤها التقدير والإجـــلال حتى ذلك الحين . كما كانت تعلم حديثى العهـــد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانت قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار . كان العربى يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، تأليف أرنولد — وترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى . الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ ص ٦٢ .

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

ولقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم أمثال هؤلاء بقول القرآن الكريم « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ».

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية من هؤلاء العرب الذين يوجه إليهم محمد رسالته أول الأمر ، وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق فلم يكن هذا الشيء معروفا لدى الوثنيين من العرب ، ولذلك لم يكونوا مهيئين كل التهيؤ لتلقى تعاليم الرجل ، ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم صارما شديدا في نواهيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس وتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة أصحابه .

كل ذلك بطبيعة الحال كان بفعل القرآن الكريم الذى وضع الأساس المتين للمجتمع الإسلامي الجديد ودعا محمد أصحابه إلى التعاون معه في هذا البناء .

* * *

وهدف آخر من أهداف القرآن الكريم ، في ميدان الدعوة لهذا الدين الجديد ، هو تحريض المؤمنين على قتال المشركين حتى ينطقوا « بشهادة « أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » فإذا رفضوا أن يقولوها وجب على المسلمين أن يقاتلوهم ، وهذا معنى قولنا في أول هذا الكتاب أن الإسلام كان ثورة كبيرة ودعوة جديدة اعتمدت في نجاحها على وسيلتين كبيرتين هما ، الكلمة من جهة والسيف من جهة ثانية ، وقد اعتمد الرسول الكريم على الكلمة وحدها في العهد المكي . فلما انتقل إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى بأن يعتمد عليها وعلى السيف معاً .

ولعل من أخطر القيم أو المفاهيم التى بنى القرآن عليها صرح المجتمع الإسلامى الجديد مفهوم الجهاد فى سبيل الله وهذا الجهاد فى ذاته من أكبر وسائل الإعلام والدعوة إلى الدين الجديد ، وكتاب الله زاخر بالسور والآيات التى تدعو المسلمين إلى القتال باعتباره إحدى الدعامتين اللتين قام عليهما الإسلام . من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : « وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

وقوله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » . . . إلخ .

وقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

إن الروح المعنوية بين المسلمين كانت تعلو بهذه الآيات إلى الدرجة التى كانوا فيها يتسابقون إلى الموت فى سبيل الله وإلى الدرجة التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا فى غير عهد النبى ﷺ .

* * *

إننا لا نستطيع ولو حرصنا أن نحصى القيم والمفاهيم الجديدة التى أتى بها القرآن الكريم التى بنى عليها النبى هذا المجتمع الإسلامى بناء سليما ، ولكننا لا نستطيع أن نترك الكلام عن هذه القيم والمفاهيم دون الإشارة إلى مفهوم الشورى .

قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » معنى ذلك أن العصمة لا تكون لبشر ولو كان هذا البشر نبياً من الأنبياء أو رسولا من الرسل ، ومحمد معصوم من الخطأ فى تبليغ الرسالة ولكنه ليس معصوماً عند الاجتهاد فى الرأى ».

أذن الرسول لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعاتبه الله على ذلك فى قوله تعالى ، « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .

الخلاصة :

إن النبى ﷺ كان على سمو منزلته ، وكمال عقله وخلقه معرضاً للخطأ لأنه بشر وكان بحاجة إلى الرجوع فى كل أمر من أموره إلى أصحابه يقف على آرائهم ويوازن بينها بعقله ، ثم يأخذ بالأمثل فى نظره من هذه الآراء ، وكان لا يمنعه خطأ واحد من أصحابه فى الرأى من أن يعود إليه بالمشورة فى المرة الثانية ، وهذا ماعناه القرآن كما سبق ذكر ذلك — بقوله تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

الحق — لقد كانت حياة النبى من أول الرسالة إلى آخرها تشاوراً بينه وبين كبار الصحابة ، وكان النبى لا يهمل مع ذلك آراء غير الكبار من الصحابة .

فهذا رأى لبعض المسلمين العاديين يظهر على بقية الآراء فى غزوة بدر ، فقد خرج رسول الله فى ذلك اليوم واختار هو وكبار الصحابة موضعاً معيناً لهم ولبقية الجيش ، فقال « الحباب بن المنذر » للرسول ﷺ : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال له رسول الله : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : يارسول الله — فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل ، وتردم الآبار ، وتبنى لنا حوضاً نملؤه بالماء فنشرب ولا يشربون ، ففعل رسول الله ما أشار به الحباب .

وفى غزوة الخندق أو الأحزاب أشار سلمان الفارسى على رسول الله ﷺ

أن يحفر خندقا حول المدينة ليدرأ عنها الخطر . فعمل الرسول بمشورته واشترك بنفسه فى هذا الحفر .

وأتى الخلفاء الراشدون فأرسوا قواعد الشورى وكان أحدهم لا يقطع بأمر حتى يرجع فيه إلى أهل (الحل والعقد) من كبار الصحابة، ومن ذلك أن اختيار أبى بكر أو عمر لعمالها (أى لأمراء الأقاليم) كان يقوم على أساس من تقديم الرأى أو تقديم المشورة . قال عمر ذات يوم لأصحابه (أشيروا على ودلونى) على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ماعندكم فإنى أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة « الربيع بن زياد الحارثى » فنشير على أمير المؤمنين به فاستدعاه عمر فولاه ووفق فى عمله وحقق ما أراد عمر .

* * *

وقيمة كبيرة ومفهوم عظيم من المفاهيم التى بنى عليها القرآن بناء المجتمع الإسلامى الجديد — هو المفهوم الذى يتصل بعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وهى علاقة تتلخص فى أول كلمة قالها أبو بكر بعد توليه الخلافة : — « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم » ، وعلى نفس الطريقه سار عمر بن الخطاب فى خلافته، وهو القائل : « ومن رأى فى اعوجاجا فليقومه » فرد عليه أحد الجالسين فى المسجد : والله ياعمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا .

كان عمر بن الخطاب يشتغل يوما بتقسيم بعض الغنائم فإذا بعض الحاضرين يقف بينهم ليقول : اتق الله ياعمر. فغضب الحاضرون لقوله هذا واستكثروا على أمير المؤمنين أن يقال له هذه الكلمة . فما كان من عمر إلا أن قال لهم: دعوه يقولها فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ولا خير فينا إذا لم نتقبلها منكم .

وهكذا قامت العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الإسلام على هذه القاعدة،

وهى قاعدة العدل ، فإذا وقع شيء من الجور — وإن كان قليلا ، وجب على المسلمين أن يكلموا فيه الحاكم ويمنعوه منه فإن اقتنع ورجع إلى الحق وأقام الحدود فلا يخلع ولا يحل خلعه، وإن امتنع عن إقامة الحدود وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »(١) .

وهل نستطيع أن نترك القيم القرآنية والمفاهيم الإسلامية دون أن نقف وقفة عابرة عند مفهوم التكافل الاجتماعى. ولعل من مظاهر التكافل الاجتماعى فى الإسلام علاقة المسلم بالمسلم وعلاقة المسلم بالجماعة وعلاقة الرجل بزوجته وعلاقة الفرد بأفراد أسرته ، وقد حض القرآن والحديث جميع المسلمين على أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم لمصلحة الآخرين ، بل يتنازلوا عن حريتهم الفردية فى سبيل الجماعة ، ومن الشواهد على ذلك فى الإسلام نظام الوراثة، وذلك بين الأصول والفروع بلغة الفقهاء ، أو بين الأقارب ـ أقارب العصب ، وأقارب الحواشى ، فنظام التوارث عبارة عن التكافل الاجتماعى ، بين الأجيال المتعاقبة وبين أفراد الأسرة الواحدة ، وهو نظام تقول به الغرائز الإنسانية ، وتحتمه الضرورات الاجتماعية ، وتشجع عليه محبة الآباء لأبنائهم .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . إن نظام التكافل الاجتماعى يوجب على كل فرد فى المجتمع الإسلامى مراعاة صالح الجماعة التى يعيش فيها كمراعاة صالح نفسه سواء بسواء . قال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وقال رسول الله ﷺ . « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا

---

(١) ابن حزم ، فى الملل والنحل جـ٤ ص ١٧١ إلى ١٧٦ :

خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً »(١) .

لقد حث القرآن كما حض الحديث على أن يرعى كل مسلم مصلحة المسلم سواء كان أخاه أو أباه أو أمه أو أخته أو زوجته أو خادمه ، ولا أدل على هذا المعنى الأخير من معانى التكافل الاجتماعى الذى دعا إليه القرآن والحديث من قوله ﷺ . « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

أجل لسنا فى مقام الإحصاء الدقيق للمفاهيم الجديدة التى أتى بها القرآن الكريم ، ولكنا نلام إذا أهملنا الحديث عن « مفهوم المساواة فى الإسلام » على النحو الذى شرحه لنا الكتاب الذى نزل على النبى ﷺ .

والإسلام دين جاء بتحريم التفرقة العنصرية أو الجنسية أو التفرقة على أساس المال أو الجاه أو السلطان ونحو ذلك .

والرسول نفسه — رغم أنه المثل الأعلى فى سمو الأخلاق بشهادة القرآن الكريم كان بحاجة إلى طريقة ترشده أو درس يتعلمه فى هذا المفهوم الجديد ، وهو مفهوم المساواة ، وقد تولى القرآن إرشاده إلى هذا المعنى وأعطاه هذا الدرس ، يدلنا على ذلك حادثان حدثا للرسول الكريم فى حياته بمكة .

الأول : حكايته مع الأعمى . فقد كان الرسول يدرك جيداً أنه إذا نجح فى إقناع السادة والأشراف من قريش بصدق دعوته جاء إقناع بقية أهل مكة وبقية الأفراد فى القبائل العربية بهذه الدعوة ، وهى حقيقة من الحقائق التى يعترف بها (رجال الاعلام) . وما زال يؤخذ بها إلى يومنا هذا ، وقد كان الرسول مشغولا فى يوم من الأيام بإقناع بعض السادة من قريش ، وإذ ذاك دخل عليه شاب أعمى من فقراء مكة يقال له (عبد الله بن أم مكتوم) وسأل الرسول أن يعلمه مما علمه الله . فما كان

---

(١) روى هذا الحديث بصورة كثيرة ، وكلها ترمى إلى معنى الحرية المحدودة بحدود المسئولية الاجتماعية والتكافل الاجتماعى :

من الرسول — بحكم أنه بشر — إلا أن عبس في وجهه وهو يعلم علم اليقين أن هذا الشاب لم ير شيئاً من هذا العبوس، غير أن السماء رأت هذا العبوس من النبي ولامته عليه، وفي هذا نزلت سورة عبس (عبس وتولى، أن جاءه الأعمى. ومايدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى، فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى، وهـــو يخشى. فأنت عنه تلهى).

والثاني: من هذين الحادثين اللذين وقعا بمكة، أن نفرا من أشرافها وسادتها ذهبوا إلى رسول الله في مجلسه وصارحوه بقولهم: يامحمد إننانريد أن نستمع إليك وننظر في دعوتك ولا يمنعنا من ذلك إلا جلوسك إلى هؤلاء العبيد الذين يحيطون بك وهؤلاء الفقراء الذين لا يليق بنا أن نجلس معهم جنباً إلى جنب، وقد جئنا إليك لتدبر لنا مجلساً لا يكون فيه واحد من هؤلاء الفقراء أو العبيد، ولحرص النبي على أن يؤمن بدعوته سادة قريش وسراتهم وقد تهيئوا — في نظره — لشيء من ذلك، ولأن عمر بن الخطاب استحسن هذا الرأي وأشار على النبي بأن يعمل به من أجل الدعوة، أظهر النبي لهم شيئاً من القبول. لهذا أجمعوا على طلبه وكاد يهيء لهم هذا المجلس بالصورة التي سألوها منه، ولكن السماء لم تسمح بهذه الصورة التي تنم عن التمييز بين البشر على أساس لا يرضاه الإسلام فلا يميز بين الناس إلا على أساس التقوى.

ولذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى مخاطباً الرسول:

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» .:. إلخ(١).

من هذه الآيات وأمثالها تعلم الرسول — وتعلم الصحابة — كيف تكون

(١) سورة الكهف — مكية — الآيتان ٢٨، ٢٩

المساواة التى يدعو إليها القرآن فمارسها الرسول فى حياته ، ومارسها الصحابة فى حياتهم ، ونجح الجميع فى تثبيت هذه الصورة فى أذهان المسلمين ، وتاريخ الصحابة حافل بالأمثلة علـى هـذه الحقيقة وإن كان عمر أشدهم استمساكا بهذه المساواة على أكمل صورها — كما شهد بذلك التاريخ ، وربما أتينا بشواهد على ذلك عند الكلام فى عهد عمر بن الخطاب فى الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأخيراً نأتى إلى مادة من مواد الإعلام فى القرآن ، ونعنى بها المادة التى تتحدث عن الجنة والنار ، وفيها أوصاف كثيرة لما أعده الله لعباده المؤمنين من نعيم كبير فى الجنة ، وماأعده الله تعالى للكافرين من العذاب فى النار .

والجنة والنار واليوم الآخر أو يوم الحساب كلها أمور غيبية أخبر بها الرسول الكريم وعنيت بها الكتب السماوية كلها على السواء ، وليس هذا هو موضع بحثنا الآن ، ولكن موضوع البحث هنا هو (القيمة الإسلامية) لهذه الأوصاف التى وصف بها القرآن — بنوع خاص — كلا من الجنة والنار ، فإلى أى حد تأثر المسلمون بهذه الأوصاف ؟ وإلى أى حد ترك ذلك أثره فى سلوكهم مع الرسول ومع الصحابة إذ ذاك ؟

من الصعب علينا فى الواقع أن نحصى الآيات التى جاءت بأوصاف الجنة والآيات التى جاءت بأوصاف النار ، ولكن يكفى أن نذكر أن من أوصاف الجنة أنها كبيرة ومتسعة (عرضها كعرض السموات والأرض) وأنها تحوى من أنواع النعيم والملذات (مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر) فيها حور عين ، وولدان مخلدون ، وأكواب وأباريق وكأس من معين ، وأنهار من لبن وأنهار من عسل مصفى ، وغير ذلك مماتشتهى النفس البشرية من ألوان الشراب والطعام إلى آخر هذه الأوصاف التى حفل بها القرآن الكريم والتى قلنا إننا لا نستطيع ولو حرصنا أن نحصى بعضها فى هذا الفصل ، ترى ماذا كان لهذه الأوصاف من أصداء فى

نفوس المسلمين منذ قرأ عليهم الرسول هذه الآيات ؟ لقد أخبرنا التاريخ أن المسلمين الذين سمعوا هذه الآيات تبدل حرصهم على الحياة وتقديرهم لها سخرية بهذه الحياة وبيعاً لها فى سبيل الله تعالى ، وهذا هو السبب الذى من أجله تسابق المسلمون الأولون فى ميدان الاستشهاد أو الجهاد فى سبيل الله .

ولماذا لا يتسابقون إلى ذلك ! ألم يعدهم الله بأنهم سينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى حياة أفضل منها ، وأنهم سيبدلون بهذه الأعمار القصيرة أعمارا طويلة لا يذوقون فيها طعم الموت ولا طعم العذاب الذى وجدوه فى الدنيا ؟

إن رجل الإعلام إذا نظر إلى هذه المادة من مواد القرآن وإلى التأثير الذى أحدثه فى نفوس الناس عندما أصبحت هذه المادة جزءاً من نسيج عقولهم وشيئاً يمتزج بأرواحهم ودمائهم لايحق له أن يهمل الحديث عنها أو التنويه بها ، والتاريخ حافل بآلاف الشواهد على المسلمين والمسلمات وعلى الرجال والصبيان الذين يتسابقون إلى الاستشهاد فى سبيل الله حتى لقد أقبل على الجهاد من أعفاهم الله من عبء الجهاد ، فقد قال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولاعلى المريض حرج) ومع ذلك فقد كان عمرو بن الجموح رجلا أعرج وله أربعة أولاد وكان لهم جميعاً شرف الغزو مع رسول الله فلم يكتف أبوهم بذلك حتى ذهب واستأذن رسول الله فى أن يخرج مع أولاده للغزو ليكون له شرف الاستشهاد فى سبيل الله فأحاله الرسول إلى قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) وألح الرجل أن يخرج إلى الغزو فى سبيل الله وهو أعرج فلم يسع رسول الله إلاأن أذن له .

ويحدثنا التاريخ كذلك عن أمهات وزوجات كن ينافسن أولادهن وأزواجهن على بلوغ هذا الشرف ، حتى لقد كانت واحدة من أولاء تدافع عن الرسول فى غزوة أحد ، وقد أحدق به المشركون يريدون

قتله ، وكانت الفرصة مواتية لهم للإقدام على هذا العمل ولكن قوة الإيمان عند بعض الصحابة إذ ذاك ، ومنهم هذه السيدة — هى التى حمت الرسول من هذا المصير .

وقل مثل هذا فى كثير من الصبية الذين تطوعوا للقتال فى صف الرسول قبل أن يبلغوا الحلم ،ويقدروا على حمل السيف أو الرمح ، وكان الغلمان والصبية يفعلون ذلك بوازع من ضمائرهم وإيمانهم أولا ، وبدافع من أمهاتهم المسلمات بعد ذلك .

ولا يسمح لنا المجال فى هذا الفصل أن نسترسل فى ضرب الأمثلة والإتيان بالشواهد الكثيرة التى تدل دلالة كبيرة على القيمة الإعلامية لهذه المادة من مواد القرآن — ونعنى بها الأوصاف الممتعة أو المذهلة التى وصف بها الجنة والنار .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم كان ضرباً رائعاً من ضروب الإعلام على يد رسول الله الكريم ، بما أتى به من قيم ومفاهيم جديدة تختلف كل الاختلاف عن القيم والمفاهيم فى عصر الجاهلية . بل كان من أنجح وسائل الإعلام فى الإسلام على وجه الإطلاق .

الفصل الثاني
الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية

كان رسول الله ﷺ معلم هذه الأمة ، وكان قبل ذلك داعية لهذا الدين الذي دخلت فيه هذه الأمة ، ومن أجل هذا حملت خطب النبي ﷺ وأحاديثه طابعين في وقت معاً ، وهما :

١ - طابع التعليم والإرشاد والهداية .

٢ - طابع التبشير والدعوة أو الدعاية .

والطابع الأخير هو الذي يعنينا في هذا الفصل ، ولعل أكبر شاهد على هذا الطابع أحاديثه ﷺ في موضوع الجهاد ، والجهاد كان ولايزال من أقوى وسائل الدعوة الإسلامية ومن أعظم أسباب انتشارها - كما نعلم ، ومن أبواب الفقه الإسلامي باب يسمى باب الجهاد - نوه فيه الفقهاء بأجر المجاهدين في سبيل الله ، واعتمدوا في ذلك على كثير من آيات الكتاب الكريم وعدد عظيم من الأحاديث النبوية .

وفي كتب الحديث طائفة صالحة من كلام الرسول في هذا الباب ، فإذا رجعنا إلى كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم الهولندي ونستك[1] وجدنا للبخاري خمسة وخمسين حديثاً في هذا المعنى . ولمسلم تسعة وستين ، وللترمذي خمسة وأربعين ، ولأبي داود ثمانية وثلاثين . وللنسائي واحداً وخمسين . ولابن ماجه اثنين وثلاثين .

وهؤلاء هم أشهر من جمعوا حديث رسول الله ﷺ ، وهم خير من تحروا في جمعه كل الصدق والدقة وتحملوا في سبيله كل ما يمكن أن نتصوره من تعب وكد ومشقة .

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي ، راجع باب الجهاد في هذه الترجمة ص ١٢٩ .

ومن هذه الأحاديث على سبيل المثال (رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها) .

ومنها : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهد فى سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض) .

ومنها : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يارسول الله ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ، فرفع إليه النبى ﷺ رأسه وقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل » .

وفى الحديث الأخير ما يدل على اختلاف مفهوم القتال فى الجاهلية عنه فى الإسلام . فالقتال فى الجاهلية عن حمق وحمية وعصبية ، والقتال فى الإسلام عن رغبة صادقة فى إعلاء كلمة الله واعتقادا بوجوده ، ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق » .

وخرج رسول الله على جماعة من المسلمين فيهم ابن عباس . فقال : (ألا أخبركم بخير الناس منزلة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : رجل ممسك برأس فرسه فى سبيل الله حتى يموت أو يقتل) .

ومن أحاديثه ﷺ فى هذا المعنى كذلك : (من شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة) .

ومن أشهر أقواله ﷺ (الجنة تحت ظلال السيوف) .

* * *

الحق أن كل واحد من هذه الأحاديث وأمثالها كان بمثابة « شعار » للثورة الجديدة التى أتى بها الإسلام ، ونحن نعلم أنه لا غنى لكل ثورة عن الشعارات ، ووظيفة الشعار فى كل ثورة هى تلخيص العمل الذى جاءت من أجله أو الأفكار التى أتت لإعلانها والمناداة بها ، ومن أجل

ذلك نرى كل زعيم من الزعماء فى كل ثورة من الثورات يجتهد فى صياغة هذه الشعارات ويحاول بعد ذلك أن يرددها ، ويكثر من ترديدها بين الناس حتى يحفظها الناس عن ظهر قلب . وبذلك تصبح لهذه الشعارات قدرة كبيرة على الإيحاء ، وعليها يعتمد الزعماء فى إذكاء شعور الجماهير وفى سرعة اعتناقهم للفكرة الجديدة أو العقيدة الجديدة أو الدعوة الجديدة .

من أجل هذا وجدنا فى أحاديث الرسول الكريم مادة قوية تصلح لكل ثورة من الثورات الإسلامية ، فلم يكد يمر بالمسلمين عصر من العصور ينتقلون فيه من دور إلى دور ، أو من نظام إلى نظام ، ومن خلافة إلى خلافة أو من ملك إلى ملك : أو من مذهب إلى مذهب إلا واعتمدوا فيه اعتماداً قوياً على الأحاديث النبوية ، وأخذوا منها ما يتفق ودعوتهم أو فكرتهم ومذهبهم ، ذلك أن الشعب الاسلامى لا يسمع حديثا من أحاديث النبى ﷺ إلا وترك فى نفسه من الأثر العميق مالا تتركه وسيلة أخرى من وسائل الاعلام أو الإرشاد وذلك باستثناء القرآن الكريم .

وهذه حقيقة ثابتة لا تحتمل الجدل ولا يرقى إليها الشك .

ألا ترى أن الأئمة فى جميع المساجد بالبلاد العربية فى وقتنا هذا يسلحون أنفسهم ويملأون خطبهم بمثل هذه الأحاديث فى معنى الجهاد ضد إسرائيل؟ ولو خلت خطبة من الخطب الدينية من بعض هذه الأحاديث النبوية قلت قيمتها وانصرف الناس عنها .

ولنستطرد قليلا فنقول إنه لعل من أبرز الأدلة التاريخية على استغلال الأحاديث النبوية ما قامت به الخلافة الأموية ، ثم الخلافة العباسية ، ثم الخلافة الفاطمية ، من الاعتماد فى دعايتها السياسية على هذه المادة .

وسنكتفى هنا بضرب المثل بما فعلته الخلافة الأموية وبما قامت به هذه الدولة من الدعاية القوية ضد الإمام على بن أبى طالب . فقد روت لنا بعض الكتب الأدبية أن الدولة الأموية عمدت إلى تحريف الأحاديث أو إلى

اختلاقها وإسنادها إلى رواة ثقات حتى يصدقها الناس فور سماعها مسندة إلى أولئك الرواة .

ومن هذه الأحاديث التي يشتم منها أنها موضوعة لغرض من الأغراض حديث فيه طعن ظاهر على الإمام على بن أبي طالب : (روى عن عروة ابن الزبير أنه قال : حدثني عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل العباس ، وعلى، فقال النبي ﷺ ياعائشة إن هذين (يشير إليهما) (يموتون على غير ملتي)(١) .

وأغرب من هذا وذاك أن في هذه الكتب رواية عن معاوية بن أبي سفيان تقول إن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم ليقرأ الآية الكريمة :

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » وأمره معاوية أن يقول إنها نزلت في على(٢) ثم أمره معاوية بعد ذلك أن يقرأ الآية :

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله » ويقول إنها نزلت في عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ، ولكن الفقيه سمرة بن جندب لم يقبل ذلك ، فبذل له معاوية مائتي ألف درهم فلم يقبل ، فبذل له معاوية أربعمائة ألف درهم فقبل . وكان لكل شرف نقطة انصهار — كما يقول الإنجليز — ودرجة الانصهار عند هذا الفقيه وصلت إلى هذا الرقم ، ومن حق المؤرخ أن يشك في هذه الروايات وأمثالها — مما نسجه الخيال حول معاوية ولكنها في نظر رجل الإعلام والدعاية لا تخلو مطلقاً من دلالة ، وهي أن رجال السياسة في تلك العصور كانوا يلجأون إلى طرق كثيرة لكسب الجماهير إلى جانبهم ، ومن هذه الطرق تفسير القرآن بما يناصر دعوتهم .

ومن هذه الطرق أيضاً تحريف الأحاديث أو اختلاقها بحيث تدخل

---

(١) كتاب شرح النهج لابن أبي الحديد جـ ١ ص ٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

فى روع الجماهير أن القادة أو الساسة على حق وأن خصومهم على باطل وهنا يظهر الفرق واضحاً بين الدعاية البيضاء والدعاية السوداء .

فالدعاية البيضاء تقوم عــلى أهداف شريفة وتستعين على غاياتها بالأحاديث الصحيحة .

أما الدعاية السوداء فإنها تبيح لنفسها تحريف الأحاديث واختلاقها وتفسير الصحيح على غير الوجه الذى قيلت فيه .

وقد كان معاوية يحس إحساساً قوياً بحاجة إلى تثبيت ملكه وتأييد سلطانه والدفاع عن هذا السلطان ضد هذه الشخصية الرهيبة التى لا يمكن التغلب عليها بالطرق المستقيمة وهى شخصية على بن أبى طالب .

فنحن وإن كنا لا نميل إلى تصديق الروايات التى نقلناها عن ابن أبى الحديد فإننا نضع فى اعتبارنا معنى لا مفر منه وهو كراهية الشيعة لمعاوية بن أبى سفيان ، ومن الجائز أن تكون هذه الكراهية هى التى حملتهم على نسبة هذه التصرفات إلى معاوية .

مهما يكن من شىء فإنه إذا صحت هذه الروايات فإنها تذكر رجل الإعلام والدعاية بالمساومات التى تحدث أحياناً بين بعض أصحاب الصحف من جهة وكبار المعلنين والساسة المغرضين من جهة ثانية .

فاذا جاء أحد من الساسة أو الرأسماليين وعرض على صاحب جريدة من الجرائد مائة جنيه لكى يتنازل عن نشر مقال من المقالات التى تحارب سياسته أو تضر برأسماله فإنه لا يقبل هذا المبلغ . فإذا عرض عليه السياسى أو المعلن مائتين فإنه لا يقبــل أيضاً وتمضى المساومة بينهما حتى يعرض السياسى أو صاحب رأس المال مبلغاً يقرب من ألف جنيه فإن صاحب الجريدة فى هذه الحالة قد يقبل ؛ وهذا هو سلطان رأس المال على الصحافة وبهذه الطريقة كان الملوك والسلاطين والخلفاء فى بعض عصور الإسلام يتغلبون على الفقهاء وهم الذين يمثلون الرأى العام الإسلامى يستعبدونهم بالمادة ويشترون ضمائرهم بالمال ويستخدمونهم لتحقيق أغراضهم بمثل هذه الطرق.

وإن الفقهاء فى تلك العصور الماضية كانوا كالصحفيين فى الوقت الحاضر ، منهم من كان له ضمير حى وخوف صحيح من الله ورعاية تامة لمصالح الرعية وشجاعة نادرة فى مجابهة السلطان ، ومنهم من كان رقيق الدين غير مكترث بمصالح المسلمين فهو لا يرغب فى أن يقوم بالواجب الذى فرضه عليه الدين والضمير .

* * *

لقد استطردنا فى الكلام عن الأحاديث النبوية وطرق استغلالها فى الأمور السياسية لنقدم الأدلة الواضحة على أن لها قدرة دعائية ازدادت مع الأيام قوة .

غير أننـــا يجب أن نقول فى هـذا الفصل أن الأحاديث النبوية كانت تتمشى مع الدعوة الاسلامية ومع القرآن ، وذلك فى عهد الرسول وفى عهود الخلفاء الراشدين ، وأنها كانت قوة هائلة فى نشر الدين والعمل بالقرآن وذلك ، على الوجه الذى لا نظير له فى أية فترة أخرى من فترات الاسلام .

ذلك أن الرسول ﷺ كان فى جميع أحواله ، وفى كل ما ينطق به من أقوال وأحاديث يمثل القرآن الذى نزل عليه وصدقت السيدة عائشة أم المؤمنين حين سئلت عن خلق الرسول فقالت ﷺ « كان خلقه القرآن » .

ونختم الكلام عن الحديث بهذه العبارة التى أوردها الأستاذ(١) أحمد أمين وفيها ، يقول : وبعد — فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحاً أو موضوعاً — أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الإسلامى . فقد أقبل عليه الناس يتدارسونه إقبالا عظيما وكانت الحركة العلمية فى الأمصار تكاد تدور عليه .

وعن طريق الحديث انتشرت فى العالم الاسلامى أنواع من الثقافة

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٦

عدة : فالتاريخ الاسلامى بدأ بشكل الحديث . . وقصص الأنبياء وما إليهم، جاءت فى القرآن وتوسع فيها أصحاب الحديث . ثم توسع فيها القصاص ، وظهر القصص ومعه الحكم وقواعد الأخلاق وشىء من فلسفة اليونان والهند والفرس ، ووضعت كل هذه المواد وضعاً فى الحديث وانتشرت بين الناس على أنها دين . فكان لها من الأثر فى الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية . وفوق ذلك كان الحديث منبعاً للتشريع والمسائل المدنية والجنائية. وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم وللثقافة فى ذلك العصر .

أجل ، كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة وقد أثبتنا فى هذا الفصل كيف أن الحديث كان — إلى جانب هذا وذاك — أوسع مادة للدعاية . فقد اعتمد عليه الحكام فى الترويج لسياستهم ؛ كما اعتمد عليه أهل المذاهب الدينية لنشر مذاهبهم ، ومن هنا كثر فيه الوضع ، وذلك تبعاً لكثرة الدواعى التى دعت إلى هذا الوضع .

الفصل الثالث
القدوة الحسنة

والقدوة الحسنة مبنية على غريزة من غرائز الإنسان هى غريزة التقليد أو المحاكاة ، ولهذه الغريزة الإنسانية تأثير فعال فى ميدان الإعلام وميدان الإعلان وميدان التربية والتعليم على السواء ، ولذلك يعتمد عليها رجال هذه الميادين كلها بدون استثناء ، فالمربون والمعلمون فى جميع مراحل التعليم يسوقون إلى الشباب أمثلة كثيرة للبطولة والأبطال . وذلك فى كل مجال من مجالات العمل والكفاح ، كمجال العلم ومجال الكشف ، ومجال الأدب ، فضلا عن مجال الحرب والجهاد .

والمعلنون ورجال التسويق يجذبون الناس إلى بضائعهم بطرق الإعلان المختلفة ، ومنها طريقة الترغيب فى هذه السلعة أو تلك — ولتكن نوعاً من المنسوجات بأن فلاناً من العظماء أو اللامعين فى المجتمع يؤثرونها على غيرها من الأنواع الأخرى .

ورجال الإعلام — هم الذين يقومون بتزويد الناس بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة — ينظرون إلى القدوة الحسنة على أنها وسيلة من وسائل الإعلام تغنى فى ذاتها عن بذل الجهود الإعلامية فى سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون إليها أو عقيدة أو سياسة جديدة ينشرون بها ونحو ذلك ، وسنرى فى تاريخ الإعلام فى صدر الإسلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان من أنجح أساليبهم فى نشر الدعوة الإسلامية أسلوب (القدوة الحسنة) .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وهذا ما فعله الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، ثم هذا ما فعله بقية أصحاب الرسول من أمثال

عبد الرحمن بن عوف وغيره ممن كانوا مثلا أعلى فى مجال القدوة الحسنة ، ولانبالغ إذا قلنا أن تاريخ الرسول والخلفاء الراشدين من بعده وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم كان ينحصر فى هذا المعنى .

لقد أثبت التاريخ أن الرسول كان مضرب المثل فى معاملة المسلمين وغير المسلمين .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صفة الرسول « وإنك لعلى خلق عظيم » . كما أثبت التاريخ أن كل واحد من صحابة الرسول كان مضرب المثل فى القيم الجديدة التى دعا إليها الدين الجديد ، وفى تحقيق الأهداف التى رسمها الرسول .

أجل — فأبو بكر — وكان رجلا مرموقا فى الجاهلية — حين دخل الإسلام — وهو أول من دخله من الرجال وحذا حذوه كثير من أصحاب رسول الله ، فدخلوا معه هذا الدين الجديد ، كان قدوة حسنة . أبو بكر الصديق حين رأى ما عاناه العبيد من العذاب الشديد على أيدى سادتهم الذين لم يسمحوا لهم بدخول الإسلام اشتراهم بماله الخاص ، ثم أعتقهم وتركهم أحراراً فى اعتناق الإسلام ، نقول : أبو بكر حين فعل هذا كله كان بلاريب قدوة حسنة .

وعمر بن الخطاب حين سمع بأن أخته استجابت لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام غضب لذلك وحمل سلاحه واقتحم عليها بيتها يريد أن يقتلها فوجدها تقرأ فى صحيفة فى يدها بعض آيات الكتاب فأخذ الصحيفة من يدها وقرأ ما فيها فتأثر قلبه ووضع السلاح من يده وذهب مسرعاً إلى الرسول — وكان يومئذ فى دار الأرقم — ودق الباب بعنف فخرج رسول الله بنفسه وحاول أن يبعده عن الدار ، فأعلن عمر إسلامه وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فصاح الجميع ! الله أكبر ! الله أكبر ، نقول : عمر حين فعل هذا كله كان بلا ريب قدوة حسنة .

وعثمان بن عفان حين تبرع بكل ماله لتجهيز حملة أو غزوة من غزوات

الرسول ، فقال له الرسول الأعظم : وماذا أبقيت لأولادك يا عثمان ؟ قال له أبقيت لهم الله ورسوله ، نقول إن عثمان بن عفان حين فعل هذا كله كان بدون شك قدوة حسنة .

وعلى بن أبي طالب حين نام فى مكان الرسول ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة وخاطر بنفسه وروحه ودمه فى تلك الليلة ومكن الرسول وصاحبه أبا بكر من الخروج فى جنح الليل وجنود المشركين رابضون على باب المنزل ، نقول : إن على بن أبي طالب حين فعل كل هذا كان بلا ريب قدوة حسنة ، وقل مثل هذا فى بقية صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونخص بالذكر منهم العشرة المبشرين بالجنة وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن معاذ ، وأبو عبيدة بن الجراح ، والذى لا شك فيه أن النبي ﷺ بشرهم بالجنة حين رأى بنفسه وسمع بأذنه أن كل واحد منهم كان قدوة حسنة .

ويطول بنا القول لو أخذنا نذكر الأمثلة التى ضربها كل واحد من هؤلاء فى مجال القدوة الحسنة وليس ذلك غاية لنا فى هذا البحث ، لأن مجاله كتب التاريخ والسيرة وغيرها . المهم أن الرسول وأصحابه نجحوا فى ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام والتأثير فى نفوس الجماهير كان نجاحهم فى الوسيلة لا يقل عن نجاحهم فى الغزوات والبعوث وغيرها من الوسائل الإعلامية الأخرى ، وهكذا نجد أن الإسلام قام فى حياة الرسول على رقة أبي بكر وعلى حزم عمر وعلى بذل عثمان وعلى فدائية على بن أبي طالب ، إذ كل واحد من هؤلاء الأربعة كان أمة وحده فى مجال القدوة الحسنة وهى القدوة التى اقتدى بها بقية الصحابة أولا ـ كما اقتدى بها المؤمنون الأوائل بعد ذلك ، وجميع هؤلاء كانوا قدوة حسنة فى الجهاد فى سبيل الدين ، وذلك فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

القدوة الحسنة وصاحب الدعوة

ولكن مما لا شك فيه أن المثل الأعلى فى القدوة الحسنة إنما كان يتمثل فى الرسول نفسه ﷺ فقد كان المثل الأعلى فى الصبر ، ولذلك تكرر له الأمر من الله تعالى بالصبر وخاصة فى العهد المكى قال تعالى : فى سورة(ن) وهى السورة الثالثة فى تاريخ النزول « فاصبر لحكم ربك » إلخ .

وقال تعالى فى السورة الرابعة فى تاريخ النزول وهى سورة المزمل « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » ، والمدقق فى السورة النبوية يرى أن النبى ﷺ التزم خطة الصبر فى نشر الدعوة وكان أكثر ما صبر عليه فى الحقيقة أمران هما :

١ — أذى المشركين فى مكة .

٢ — والحرب الباردة بينه وبين المنافقين فى المدينة .

أما أذى المشركين فى مكة فقد ضاق به صدر الرسول عشر سنوات كاملة ذلك لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم. ونزل عليه قول القرآن الكريم « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ونزل عليه قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، وقوله تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » : وقوله تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »

إلى هـذا الحد بلغ الغضب والحزن برسـول الله ﷺ على إعراضهم عن دعوته ، وإلى هذا الحد شدد الله تعالى فى لوم رسوله على هذا الغضب أو الحزن .

على أن الكفار سلكوا كل طريقة ممكنة فى رد محمد عن دعوته ولم يبق أمامهم إلا أن جمعوا كبراءهم وعلى رأسهم أبو سفيان وذهبوا للقاء

عمه أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل بآبائنا فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ،ولكن أبا طالب ردهم رداً جميلا وأفهمهم أن التهم التي يوجهونها لمحمد مبالغ فيها فإن محمداً لم يندد بآلهتهم لأن القرآن نفسه ينهى عن ذلك في قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » فلما لم يصل المشركون إلى هدفهم ذهبوا مرة أخرى إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد سألناك أن تنصفنا من ابن أخيك فلم تنهه عنا ،وإنا لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، حتى تكفه عنا أوننازله وإياك ، فكانت هذه العبارات بمثابة البلاغ النهائي والإنذار بالحرب القومية أو الفتنة الأهلية التي لا يعلم مداها إلا الله .

فأرسل أبوطالب إلى النبي يقول له : أبق على نفسك وقومك يا ابن أخي ولا تحملني مالا طاقة لي به ، فما كان من النبي إلا أن زادته الأزمة إيمانا بالله وإصراراً على موقفه من قريش ، واتجه من فوره إلى عمه أبي طالب يقول له (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه) .

فازداد العم تقديراً لابن أخيه ،ووقف إلى جانبه في أحرج ساعات الخطر ، وقال للرسول (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لن أسلمك لشيء أبداً) .

محمد المثل الأعلى في الصبر على الحرب الباردة بينه وبين المنافقين بالمدينة :

على أن شر ما مني النبي به في حياته شيئان هما : النفاق والمنافقون من جهة وترويج الشائعات المضادة من قبل أولئك المنافقين من جهة ثانية ، وقد ضرب النبي أروع المثل في صبره على هاتين الجبهتين ونصره الله في كلتا الجهتين ، وكان قدوة للمسلمين في هذين الموقفين .

وقد تعرض النبي لكل هذا الأذى وهو بالمدينة أي بعد هجرته إليها

من مكة ، وكان بالمدينة رجل أسلم على نفاق — هو عبد الله بن أبي بن سلول ، ويعرف فى تاريخ الإسلام بكبير المنافقين ، وكانت له منزلة كبيرة بين قومه حتى ليخيل إلى الناس أنه كان يريد أن يولى أميراً على جميع من بالمدينة ، ولذلك كان يغار كثيراً من الرسول ويحمل فى قلبه حقدا دفيناً ضده : وأوضح ما ظهر حقده هذا على النبى ﷺ فى حادثتين رواهما التاريخ .

الأولى : حادثة الشائعة الخطيرة التى أشاعها (عبد الله بن أبى) ليفرق بها بين المهاجرين والأنصار فى المدينة حتى لا يجد المهاجرون لهم مفراً من الخروج بأنفسهم وأهلهم عنها — وتفصيل ذلك أنه حدث أن أجيراً لعمر ابن الخطاب اصطدم بحليف لقبيلة الخزرج فضربه أجير عمر ، فنادى حليف الخزرج : يامعشر الخزرج ، ونادى أجير عمر يا معشر الأنصار وكادت تكون فتنة بين الفريقين فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مابال دعوة الجاهلية ! فأخبره القوم بما حدث . فقال ﷺ : دعوها فإنها كلمة خبيثة منتنة . . فغضب عبد الله بن أبى — وكان معه جماعة من قومه (أى من قبيلة الخزرج) وفيهم غلام يقال له زيد بن الأرقم ، ثم أخذ عبد الله ابن أبى ينطق بكلمات فيها تعيير للمهاجرين بأن الأنصار آووهم ، ومنها قوله : (والله ما رأيت كاليوم مذلة . . أو قد فعلوها) ؟

نافرونا وكاثرونا فى بلادنا والله ما أظننا ورجال قريش إلا كما قال الأقدمون فى أمثالهم : (سمن كلبك يأكلك) أما والله لئن رجعوا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل (يعنى بالأعز نفسه والأذل النبى) ثم أقبل على من حضره من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم مابأيديهم لتحولوا إلى غير داركم ..

وسرت الشائعة فى أجواء المدينة كالبرق ، فقد ذهب الغلام (زيد بن الأرقم) يبلغ رسول الله بما حدث وما سمع فتغير وجه الرسول وقال : ياغلام

لعلك غضبت منه ؟ قال الغلام : لا . فقال الرسول : لعله أخطأ سمعك؟ فأصر الغلام على أن نقله صحيح ، ثم زاد على ذلك : وإنى لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثى .

وكان عند الرسول عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله مر عباد بن بشر فليقتل عبد الله بن أبى ، فقال الرسول : كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

واتسعت الشائعة فى المدينة ولم يكن للناس حديث إلا فيها ، فأمر الرسول أن يؤذن للمهاجرين بالرحيل عن المدينة ، وكانت ساعة لم يكن لرسول الله أن يرحل فيها لشدة الحر ، ولكنه ارتحل بالناس ليشغلهم عن الحديث فى هذه الشائعة وبذلك يبدد ما كان يخافه من الحرج ، وهدأت النفوس بعض الشىء ، ثم لم يلبث أن نزلت عليه سورة المنافقين وفيها يقول الله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وإذ ذاك مشى عبد الله بن أبى إلى رسول الله وحلف له بالله أنه ما قال بهذا القول ولا تكلم به ، واعتذر الأنصار لرسول الله واتهموا الغلام أنه لم يحفظ ما قال ابن أبى ، وقال بعضهم للنبى : فأنت يا رسول الله تخرجه من المدينة إن شئت وهو الذليل وأنت العزيز . ثم قالوا له : يا رسول الله ارفق به فلقد جئتنا وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا وإنه ليرى أنك قد استلبت هذا الملك .

والثانية : من الحوادث التى حقد فيها كبير المنافقين (عبد الله بن أبى ابن سلول) على الرسول وقابلها الرسول بصبر عظيم ، حادثة مشهورة فى حياة النبى تعرف بحادثة (الإفك) وقد وجد كبير المنافقين فى هذه الحادثة فرصة طيبة لترويج شائعة طعن بها شرف السيدة (عائشة أم المؤمنين) وكانت ساعة

حرجة لم ير النبى ﷺ فى حياته أشد منها . لولا أن الله تعالى نجى الرسول منها وأظهر له الحق فيها، وذلك حيث قال تعالى فى سورة النور : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

هكذا كانت حادثة الإفك وما دار حولها من الشائعات مأساة كبيرة فى حياة الرسول ، ولكن الرسول صبر عليها ولم يسىء معاملة زوجه وانتظر حتى جاءه الوحى الذى برأها من هذه التهمة الشنيعة التى لا تتفق وبيت النبوة ، ولا تتفق وسمعة رجل كأبى بكر كان من أشرف الناس فى الجاهلية فكيف ينأى عنه الشرف أو ينأى هو عن الشرف فى الاسلام .

هكذا كانت الحرب بين النبى والمنافقين حرباً قائمة على الشائعات ولو نجحت واحدة منها فى بلوغ الهدف منها لكانت خطراً على الدعوة وصاحب الدعوة ، وكانت كفيلة بهدم الإسلام فى مهده وهدم الرسول فى أول مجده ، ولكن الله حماه وحمى دعوته من جميع هذه الشرور والآفات والشرور .

هكذا كان الرسول مثلا أعلى فى القدوة الحسنة لجميع المسلمين . كان مثلا أعلى فى الصبر وفى الحلم، وهذا كله من حسن سياسته ﷺ ومن توفيق الله له فى تأدية رسالته .

ثم هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يقتدون بالرسول فى جميع

أقوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم ، فكتب الله لهم النجاح فى إقامة هذا الدين ثم صيانته وتثبيته بكل ما فى وسعهم من عزم وإيمان وقوة ثم أتموا نشره بعد ذلك بطريقين هما القدوة الحسنة من جهة والسيف من جهة ثانية .

* * *

لقد قلنا غير مرة أن محمداً عليه الصلاة والسلام ، نشر الدعوة وحارب من أجلها بسلاح الأخلاق قبل سلاح الجند والرماح ولولا حسن الأخلاق لما حظى النبى عندهم — أى العرب — بكل هذا التقدير — حتى من أعدى أعدائه — وهو أبو سفيان — وكثيراً ما سمعنا عن بعض اليهود والنصارى أنهم دخلوا الإسلام لمجرد اقتناعهم بسمو أخلاقه وحسن معاملته وجميل معاشرته وبلوغه فى كل ذلك الدرجات العليا من درجات القدوة الحسنة .

إن القدوة الحسنة هى من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال بالناس ،

ومن ثم وجب على كل زعيم أو حاكم أو قائد أن يكون قدوة طيبة لغيره متى أراد لنفسه النجاح فى الفكرة أو العمل الذى جاء يدعو له .

الفصل الرابع

الاتصال الشخصى والجمعى
وأثره فى نشر الدين وجمع كلمة المسلمين

إن الذى لا شك فيه أن الاتصال الشخصى فى ذاته أساس لجميع العمليات الإعلامية من حيث هى ، ومن بينها العملية الإعلامية التى تعرف (بالعلاقات العامة) والعملية التى تعرف (بالإعلان) ولكن الاتصال الشخصى أكثر ما يؤثر فى الحقيقة فى ميدانين خطيرين هما ميدان الدعوة وميدان الدعاية ، والقدرة على ممارسة الاتصال الذى من هذا النوع شرط فى نجاح العمليات الإعلامية التى أشرنا إليها ، ذلك أنه يلعب دوراً خطيراً فى الاعلام على جميع المستويات ، ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصى وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير فى الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة[1] .

والمهم فى هذا الاتصال هو مدى ثقة الجمهور فى مصدر الاعلام، لأن هذه الثقة هى الأساس الذى يبنى عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية. ويعلل الباحثون من أمثال لازرسفيلد وكارتز وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصى فى التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التى لا تتفق مع آرائهم وميولهم فإنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفاً ، كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر فى عرض وجهات النظر والتأثير فى الناس[2] .

وربما أنه من أجل ذلك تعب الرسول تعباً شديداً فى ممارسة هـذه

---

(١) د. إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

الوسيلة من وسائل الإعلام مع قومه ومواطنيه فى مكة — وغيرها من مدن الحجاز وذلك فى العهد الأول من عهود رسالته وهو العهد المكى بالذات ، ذلك أن الرسالة التى جاء بها ﷺ — لقيت نفورا واعتراضاً كبيراً من جانب العرب فى مكة ، وإن كانت تربطه بهؤلاء المكيين وشائج القربى لأنهم من قريش ومحمد من قريش ، ومن ثم لم يكن غريباً ما سمعناه عن الأذى الذى لقيه من بعض أعمامه وهو — أبو لهب — وقد بالغ هذا الأخير هو وزوجته فى إعنات الرسول حتى نزلت سورة من سور القرآن الكريم فى ذمهما ، وفيها يقول الله تعالى :

« تبت يدا أبى لهب وتب * ماأغنى عنه ماله وماكسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد » .

وهذا معنى قولنا أن الرسالة الاعلامية لا تؤثر فى الأفراد أو الجماعات مباشرة ولكن تؤثر فيهم من خلال قادة الرأى فى المجتمع ، وإذا كانت الدعوة الجديدة لاتتفق مع آراء زعماء قريش وميولهم فقد كان من الصعب أن تتأثر بها جموع مكة والطائف وغيرها من المدن فى الحجاز ، ومع هذا وذاك فلم ينصرف الرسول فى بعض الأحيان عن ممارسة الاتصال الشخصى بهؤلاء القادة والزعماء .

وطفق الرسول يمارس هذه الوسيلة الفعالة فى أول الأمر مع العامة والفقراء ، وقد رأى هؤلاء فى العقيدة الجديدة تحريراً لأنفسهم من قيود وأغلال كثيرة ، ولم تكن لهم أموال ضخمة يخشون عليها ولا تجارة عظيمة يخافون كسادها ولا زعامات كبيرة يضنون بها .

وأخذ الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية هنا وهناك ويحاول أن يناقش أفرادها سواء كانوا من الأغنياء أو الفقراء وذلك على النحو الذى سنشرحه هذا البحث عند الكلام عن مراحل الدعوة وأسباب نجاحها على يد الرسول .

ومهما يكن من شىء فإن أكثر ما استند الرسول على وسيلة الاتصال

الشخصى كان فى المراحل الأولى من الدعوة وبنوع خاص فى العهد المكى ، ومعنى ذلك باختصار شديد أن وسيلة الاتصال الشخصى كانت أولى الوسائل التى مارسها الرسول فى نشر الدعوة .

لقاء الرسول برجال من الخزرج فى البيعة الأولى

وما دمنا نتحدث عن طريقة الاتصال الشخصى المباشر على يد الرسول، فلا ينبغى لنا أن نغفل الحديث عن اتصاله صلى الله عليه وسلم برجال من الخزرج وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وكان هذا اللقاء عندما خرج الرسول فى موسم من مواسم العرب ليعرض نفسه على القبائل ، وبينما هو عند (العقبة) إذ لقى رهطاً من الخزرج ،وكان الخزرج فى نزاع مستمر مع الأوس فى داخل يثرب ، وكانوا يخرجون من حين لآخر للبحث عن قبيلة من قبائل العرب تعينهم على الأوس ، ووصلوا فى ذلك إلى العقبة ولقيهم النبى هناك فسألهم قائلا : من أنتم ؟ فقالوا من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى. وجلسوا معه صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم الاسلام وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم إن نبياً قد حان وقت ظهوره ، وقد أظل زمانه وسيتعقبونه ليقتلوه كما قتلت عاد وإرم ، فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه عليه الصلاة والسلام فيما دعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك . وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبى الجديد ودعوهم إلى الإيمان به — حتى إذا كان العام القادم أتى من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوا الرسول (بالعقبة) وكانت البيعة الأولى للنبى ﷺ(١) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٧١ .

وعن ابن مسعود قال : وعدنا رسول الله ﷺ فى أصل العقبة يوم الأضحى ونحن سبعون رجلا ، فأتانا رسول الله فقلنا ، يا رسول الله: سلنا لربك وسلنا لنفسك وسلنا لأصحابك وأخبرنا ما لنا من الثواب على الله تبارك وتعالى وعليك .

قال: أما الذى أسأل لربى فأن تؤمنوا به ولاتشركوا به شيئاً، وأما الذى أسأل لنفسى فأن تطيعونى أهدكم سبيل الرشاد ، وأسألكم لى ولأصحابى أن تواسونا فى ذات أيديكم وأن تمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، فإذا فعلتم ذلك فلكم على الله الجنة . فمددنا أيدينا فبايعناه ».

من أجل ذلك كان الاتصال المباشر أول خطوة من خطوات العمل الاعلامى الكبير الذى قام به الرسول . بل كان من أخطر هذه الصور الاعلامية على الإطلاق ، وقد التزم الرسول بهذه الوسيلة الخطرة منذ بدء الرسالة إلى أن توفاه الله سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

سبق أن ذكرنا فى الفصل الذى عنوانه (القرآن أكبر وسائل الإعلام) أمثلة من المساواة ، ومرة أخرى نؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان فى ممارسته لهذه الوسيطة من وسائط الإعلام وهى وسيطة (الاتصال الشخصى) لا يفرق بين الأغنياء والفقراء ولا بين العبيد والسادة وقدحدث فى مرة من المرات أن اجتمع النبى بسادة قريش يغريهم بدخول الإسلام وشرح لهم مزايا الدين الجديد ، ثم حدث فى تلك اللحظة التى كان فيها النبى مشغولا بهذه المهمة أن دخل عليه رجل أعمى من عامة الناس هو عبد الله ابن أم مكتوم ولكن الرسول أهمل هذا الرجل حتى يفرغ من هؤلاءالقوم وفى هذا الموقف من مواقف الرسول نزلت سورةمن سور القرآن الكريم يعاتب الله فيها الرسول عتاباً كبيراً على إهمال هذا الأعمى بحجة انصرافه إلى أولئك السادة، وفى ذلك يقول الله تعالى: (عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * ومايدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى فأنت له تصدى * وماعليك ألايزكى * وأمامن جاءك يسعى * وهو يخشى فأنت عنه تلهى » ... إلخ .

وهذا مثل آخر من أمثلة الاتصال الشخصى المباشر مارس فيه النبى الوسيلة الاعلامية الخطيرة لغرض آخر عدا نشر الدين وهو المحافظة على الوحدة بين الأنصار والمهاجرين ، وذلك كما يتضح فيما يلى من حديث .

والحق فقد كان اعتماد الرسول ﷺ على هذه الوسيطة من وسائط الإعلام — وهى وسيطة الاتصال الشخصى اعتماداً كبيراً يدل على حسن سياسته وعلى عظم حكمته فى معالجة المواقف الحرجة التى كانت تمر به فى حياته ، وكادت تفسد العلاقات الطيبة بينه وبين أصحابه وأنصاره ، ولكنه استطاع بسياسته ومبادرته بالاتصال الشخصى المباشر بينه وبين مصادر الفتنة فى مثل تلك الساعات الحرجة أن يهدم كل ثورة وأن يمحو كل سخط وأن يذيب كل حقد ، وأن يعيد نفوس أصحابه أصفى مما كانت عليه قبل حدوث الفتنة ، وقد كانت طريقته فى كل ذلك الصراحة التامة ، والصدق الذى ليس بعده صدق ، والشجاعة التى لا تماثلها شجاعة ، وبذلك أعاد العلاقات الطيبة التى بينه وبين هذه الجماهير إلى أحسن مما كانت عليه من قبل ، ومارس فن الاتصال الشخصى بالطريقة التى لا يرقى إليها زعيم فى أمة أو قائد فى حركة وما ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى وحسن توجيهه .

أعطى رسول الله من فىء هوازن ما أعطى فى قريش وقبائل العرب ، ولم يعط من هذا الفىء لأحد من الأنصار شيئاً ، فغضب الأنصار لذلك ، غضباً شديداً وفشت فيهم الشائعات المسيئة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض إن هذا هو العجب يعطى قريشاً ويحرمنا — وسيوفنا تقطر من دماء القرشيين فإن كان ما فعل النبى من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله عاتبناه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء ، فقال عليه الصلاة والسلام فأين أنت من ذلك . فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فاجمع لى قومك فى هذه القبة ، فلما اجتمع الأنصار أتاهم رسول الله فقال لهم : من كان من غير الأنصار

فليرجع إلى رحله ، ثم وقف النبي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها على فى أنفسكم ، ألم آتكم ضالا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغنا كم الله بى ؟وأعداء فألف بين قلوبكم.ثم قال يا معشر الأنصار ألا تجيبوننى ؟ قالوا بماذانجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنة والفضل ، قال رسول الله : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا وصدقناك ، ومخذولا وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك .

فقال الأنصار : المنة لله ولرسوله.قال رسول الله مرة أخرى: ماحديث بلغنى عنكم؟ فسكتوا ، فأعاد مرة ثانية وقال : ما حديث بلغنى عنكم؟فقال فقهاء الأنصار أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً ، وأما حديثو السن منا فقالوا: يغفر الله تعالى لرسوله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطرمن دمائهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أوجدتم يامعشرالأنصار فى شىء قليل من الدنيا تألفت به قوما ليسلموا ويسلم غيرهم تبعاً لهم ، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذى لايزلزل ؟ إنى لأعطى الرجل — وغيره أحب إلى منه — خشية أن يكبه الله فى النار ، ألاترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت رجلا من الأنصار ، ولوسلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار . فبكى القوم حتى ابتلت لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسما وحظاً . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

فهذه طريقته ﷺ فى معالجة الأمور ، وهى طريقته فى إطفاء نار الفتنة ، وهى طريقة بنيت على الصدق والصراحة والرحمة والتقرب إلى الناس والتودد إليهم ومباشرة الاتصال الشخصى بهم ، هذه الطريقة فى السمو بنفوس أصحابه عن الماديات ، والعلو بها إلى مستوى الروحانيات ، وكان من نتيجة هذا الموقف المثالى فى مواقف رسول الله أن رجع القوم من عنده أكثر صفاء فى النفوس وطهارة فى القلوب وتعلقاً بالرسول ، وحباً

للمبادىء الإنسانية التى دعاهم لها ، وما أعلم أن زعيما من زعماء الأرض كان يستطيع أن يتصرف مثل هذه الفتنة على هذا النحو أو يذيب السخط من نفوس قومه بمثل هذه الطريقة .

ضربنا المثل هنا فى مجال الاتصال الشخصى المباشر بالرسول لأنه أضخم شخصية فى الوجود الإسلامى كلـه ولأن الاستشهاد بمـواقفه يغنى عن الاستشهاد بموقف أصحابه .

أما الاتصال الجمعى فأظهرما يكون عادة فى مجال الخطابة حين يجتمع الخطيب بعدد كبير من الناس يوجه إليهم كلامه ، ومن أجل ذلك سيتناول هذا الكتاب موضوع (الخطب النبوية) فى الباب الثانى وهو الباب الذى سنتحدث فيه عن (الدعوة فى عهد الرسول ﷺ وطرق نجاحها) .

الفصل الخامس
القصص غير القرآني

رأينا فيما سبق أن القرآن الكريم اعتمد على وسيلة القصص فى سبيل الدعوة والاتصال بالجماهير ، وسنرى الآن كيف أن المسلمين بعد انقطاع الوحى ووفاة الرسول مضوا فى طريق القصص ،ولكن مع الفارق الشديد بين القصص القرآنى والقصص غير القرآنى ، فالأول وهو القرآنى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،والثانى غير القرآنى كان يبنى على الصدق حيناً وعلى الكذب أحياناً ، يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (فجر الإسلام)[1]

(كان أول من قص فى مسجد رسول الله ﷺ (تميم الدارى) ، استأذن عمر بن الخطاب أن يذكر الناس ، فأبى عليه ذلك ، حتى كان آخر ولايته فأذن له عمر أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر من المسجد ، واستأذن تميم فى ذلك عثمان بن عفان ، فقبل عثمان ذلك) .

وكان تميم هذا نصرانياً من اليمن أسلم سنة تسع من الهجرة .

وأما صورة هذه القصص فهى أن يجلس القاص فى المسجد ، ويقص على الحاضرين حكايات وأحاديث وأساطير عن الأمم الأخرى لايعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، والظاهر أن هذا القصص كان على نوعين :

قصص للعامة ، وقصص للخاصة .

فأما قصص العامة فهو الذى يجمع إليه نفوس أكثر الناس ، وهذا من القصص مكروه عند فقهاء المسلمين ، وأما قصص الخاصة فهو الذى اعتمد عليه أكثر الخلفاء الراشدين ، فلما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة الأموية ولى رجلا من قبله على القصص . فكان إذا انتهى من صلاة الصبح

---

(١) ص ١٩٠ وما بعدها .

جاس هذا الرجل وأخذ يذكر الناس فيبدأ باسم الله والصلاة والسلام على رسوله ، ثم يدعو للخليفة وأهل بيته ويدعو لجنده وقواده ، ثم يدعو على المخالفين له من المسلمين ، كما يدعو على المشركين كافة [1] .

وانتشر القصص ودخل عليه الكذب وذلك منذ خلافة على بن أبى طالب حتى اضطر على إلى طرد جميع المشتغلين بالقصص فى المساجد واستثنى منهم (الحسن البصرى) لتحريه الصدق فى القول، ولكن مما لا شك فيه أن القصص كان من أكبر أسس الدعاية فى عهد الفتن الإسلامية ، وأولها : الفتنه الكبرى التى حدثت فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم علا شأن القصص شيئاً فشيئا حتى أصبح عملا من الأعمال الرسمية فى الدول الإسلامية ، وأصبح القاص أشبه بوزير الإعلام والدعاية فى الوقت الحاضر مالم يكن أكبر منه ، وكان بعض القصاص فى تلك العصور يجمعون بين وظيفتين فى وقت واحد هما : وظيفة القضاء ووظيفة القصص أو بلغة العصر الذى نعيش فيه بين وزير العدل ووزير الدعاية ، ثم رؤى فيما بعد أن يختص الرجل بإحدى هاتين الوظيفتين .

وكان أول من جمع بين القصص والقضاء فى مصر الإسلامية هو (سليمان ابن عتر التجيبى) سنة ثمان وثلاثين للهجرة .

مهما يكن من شىء فعن طريق القصص دخلت على المسلمين أساطير الديانات الأخرى اليهودية والنصرانية ،وكان ذلك سببا من الأسباب التى كلفت رجال الحديث كثيراً من الجهود المضنية فى التحرى عن صدق الأحاديث النبوية إلى جانب الأسباب الأخرى التى جعلتهم يعانون من أجل هذه الغاية .

وبسبب ذلك أيضاً امتلأت كتب التاريخ الإسلامى بكثير من الوقائع الزائفة والحوادث المختلفة ، وذلك منذ اعتمد المؤرخون المسلمون على مصدرين كبيرين هما (وهب بن منبه) (وكعب الأحبار) . أما وهب بن منبه فرجل

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥٣ — المطبعة الأميرية .

يمنى من أصل فارسى وكان من أهل الكتاب وله معرفة واسعة بقصص الأنبياء وأخبارهم ، وأما كعب الأحبار فيهودى من اليمن أيضاً وكان مصدراً لتسرب أخبار اليهود إلى المسلمين وعن طريقه أيضاً دخل فى تفسير القرآن الكريم ما يعرف (بالإسرائيليات) .

والخلاصة أن القصص أفاد المسلمين فائدة جزئية عن طريق الدعاية للخلفاء والملوك والسلاطين ، ولكن هذا القصص أخر بنواح ثلاث وهى :

ناحية الحديث النبوى ، وناحية التاريخ الإسلامى ، وناحية الديانة الإسلامية نفسها عن طريق الإسرائيليات — هذا ماحدث فى صدر الإسلام ولكن بتحول الخلافة الإسلامية إلى ملك حقيقى على يد معاوية أصبح للقصص شأن كبير فى تحميس الجنود للقتال فضلا عن الدعاية لخلافة جديدة أو مذهب جديد ونحو ذلك .

لقد كان القصص عنصراً أساسياً فى جيوش المسلمين ، وعليه اعتمد أولوالأمر فى شد أزر الجنود فى الفتوح الإسلامية والحروب الدينية ومن أشهرها الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ .

* * *

وبعد — فقد كان لكل نبى من الأنبياء السابقين معجزة ، وكانت هذه المعجزة فى ذاتها أقوى وسائل الدعاية لنجاح النبى فى دعوته التى بعث بها من قبل الله تعالى .

فكانت لموسى معجزته التى حدثنا بها القرآن الكريم وهى العصا ، وكانت لعيسى معجزاته التى منها أنه يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله ، ومنها أنه يحيى الموتى بإذن الله ، وهكذا ، أما محمد بن عبدالله فمعجزته القرآن ، ولم نتحدث عن القرآن بحيث إنه معجزة لهذا المعنى ، ومانريد أن نتحدث عن كتاب الله من هذه الناحية ، ذلك أننا نحرص على أن نكتفى بالجانب العلمى من جوانب

الإعلام والاتصال بالجماهير فى الإسلام ، وليس معنى ذلك أن العلم ينكر المعجزات أو أن العلماء كلهم فى تاريخ العالم منكرون لها ، ولـكن يمنعنا من الحديث عن المعجزة من الزاوية الإعلامية الخاصة أننا سنلتقى بكثير من الباحثين يأخذون علينا هذا السلوك ، ومن هنا تحدثنا عن القرآن فى مجال الإعلام والاتصال بالجماهير ، وذلك بالطرق والأساليب التى يفهمها البشر فى كل زمان ومكان ، وكفانا ذلك عن االحديث عن القرآن الكريم من حيث إنه المعجزة الكبرى الوحيدة أو الفريدة لرسول الله ﷺ :

* * *

الفصل السادس

مواسم الحج

من أعظم وسائل الدعوة

أجمع الباحثون على أن الإسلام دين السلام والمحبة ، ودين الاجتماع والوفاق والوحدة، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه الدين الذى أدرك قيمة الإعلام السليم وقيمة الاتصال بالناس على قاعدة متينة من قواعد الألفة والصدق والإخلاص والأخوة .

وفى الشريعة الإسلامية كثير من العبارات التى تدل دلالة واضحة على هذا المعنى ،فصلاة الجماعة تقام خمس مرات فى اليوم والليلة ،وصلاة الجمعة تقام فى كل أسبوع مرة، وذلك على نطاق واسع وتجمع أكبر ، وفيها يقول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون *فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » ، ثم هناك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى وفيهما تهليل وتكبير وذكر لله كثيرا يصدر من جميع المصلين على شكل نشيد جميل يترك أعظم الأثر فى نفوس المسلمين ،ويعبر عن شكر جميع المسلمين لله تعالى على النعم التى أفاضها عليهم والانتصار الذى خص به نبيهم ودينهم حتى أظهره على الدين كله .

وأخيراً نأتى إلى التجمع الأكبر الضخم، والمؤتمر الأعظم ونعنى به يوم الحج الأكبر ، وفيه يلتقى المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها مستجيبين لنداء الله ،مهاجرين بقلوبهم إلى الله متجردين لعبادة الله ، وذلك بالطريقة التى رسمها لهم لايحيدون عنها قيد شعرة .

لقد أخبرهم الله تعالى بقوله : (إن أول بيت وضع الناس الذى بمكة

مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً) .

كما أعلمهم الله تعالى أنه كلف أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأن يدعو الناس للحج والطواف بالكعبة فقال تعالى (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات)

* * *

ونحن لانتحدث عن الحج من حيث هو ركن من أركان الإسلام ولا من حيث هو نوع من الهجرة إلى الله والتجرد الكامل لعبادة الله ، كما لانتحدث عن الحج من حيث حكمته البالغة فى جمع كلمة المسلمين من شتى بقاع العالم ، ولا من حيث الغاية التى شرع من أجلها لأتباع هذا الدين ، فكل هذه البحوث ليست من قصدنا ولا هى هدف لنا وإنما هدفنا هو التحدث عن الحج من حيث إنه من أكبر وسائل الدعوة الاسلامية حيث إنه مقرون بكثير من المظاهر الإعلامية والأشكال الدعائية التى صحبت أداء هذه الفريضة من أولها إلى آخرها .

ربما كان أول شكل من هذه الأشكال الدعائية هذا النشيد الذى يردده الحجيج وهم مقبلون على مكة ، ويرددونه فى أثناء طوافهم بالكعبة وهو النشيد الذى وضعه لهم رسول الله ﷺ وفيه يقول (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك لا شريك لك لبيك ، وإن الخير كله فى يديك لبيك) .

مشهد رائع جميل من مشاهد الدين يثبت العقيدة فى نفوس المسلمين ويزرع الإيمان والسكينة زرعاً آخر فى قلوب المؤمنين ، وللأناشيد الحماسية فى كل ثورة دينية أو سياسية أثرها الذى لا يحتاج منا إلى شرح .

من أجل ذلك جعل الله الحج ركناً من أركان الدين وفرض على كل مستطيع أن يقوم به من المسلمات والمسلمين ، وذلك فى قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) .

وقوله ﷺ (أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا) فقال رجل من الحاضرين : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت النبي حتى قالها الرجل ثلاث مرات ، فقال عليه الصلاة والسلام (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم).

ولحكمة جليلة أيضاً جعل الله العمرة مثل الحج لقوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) .

وهى فرض على المسلم كالحج مرة واحدة فى العمر ، ولكن ذلك مشروط كما فى الحج بالقدرة مالا وصحة . وهما — أى الحج والعمرة — مفروضات على كل مسلم ومسلمة ، وفى الحديث قالت السيدة عائشة (يارسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال: نعم ، عليهن جهاد لاقتال فيه ، الحج والعمرة) [1].

ونتساءل : ماهى هذه المنافع التى يشهدها الناس فى الحج بجانب العبادة والتجرد لله تعالى ؟ إن مما لاشك فيه أن التجمعات السلمية فى كل زمان ومكان لا تخلو من الفوائد التى تعود بالخير على الإنسان ، فمن هذه الفوائد التجارة وتبادل السلع المادية ، ومن هذه الفوائد أيضاً الإعلان وتبادل السلع الإخبارية والمواد الروحية ، وليس من حق مفسر للقرآن مهما عظم شأنه أن يتجاهل الناحية الأخيرة ، ونعنى بها السلع المعنوية أو الاعلامية فما الحج فى جانب من جوانبه إلا سوق كبيرة تعلو على جميع الأسواق المشهورة فى الأمم القديمة والحديثة ، وما كانت هذه الأسواق فى يوم من الأيام مقصورة على البضاعة التجارية دون البضاعة المعنوية إلا إذا كان هناك سلطان غاشم يحول بقوته وجبروته دون تبادل السلع المعنوية .

ودعنا مرة أخرى نوازن بين (النادى) (والحج الأكبر) ولو أن القياس هنا مع الفوارق العظيمة ، فإذا كان النادى وسيلة من أقوى وسائل الإعلام فى العصور القديمة والحديثة ، فى القرية أو الحى . . أو المدينة فى الدول الصغيرة أو الكبيرة فكيف بناد كبير ليس له نظير فى العالم كله ، كنادى الحج يجتمع فيه المسلمون من أقاصى الأرض حول مكان واحد ،

---

(٢) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥١٣ .

هو الكعبة أو جبل (عرفات) ،وفى وقت واحد هو شهر ذى الحجة ، إن المسلمين فى جميع أقطار الدنيا لو دبروا أمرهم وهيئوا نفوسهم لمثل هذا الاجتماع الكبير أو المؤتمر العظيم لما استطاعوا تنظيم ذلك بخير من الحج .

فى هذه البقاع المقدسة يجتمع المسلمون لا فرق بين كبير وصغير ولا بين أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر ولا بين غنى وفقير ولا بين سيد ومسود ولا بين رجل وامرأة فيتعارفون ويتآلفون ويزورن تلك البقعة التى شهدت مولد الرسول ، وكان فيها نزول القرآن الكريم وكان فيها جهاده ﷺ ضد المشركين والمنافقين ،ودارت فيها الحرب الباردة بينه وبين اليهود كما دارت فيها الحرب الساخنة بينه وبين الكافرين ، كما يشهدون تلك الأرض التى هاجر إليها الرسول وشهد فيها من النصر والتأييد ما أنعم به الله عليه وعلى دينه الحنيف .

وانظر معى بعين الخيال مرة أخرى إلى بقية مظاهر الدعوة الاسلامية والأشكال الدعائية التى اقترنت بهذه الفريضة الدينية وهى فريضة الحج . فمن ذلك الطواف حول الكعبة سبع مرات طواف قدوم أو إفاضة وطواف توديع ، وغير ذلك من ضروب الطواف التى أمر بها الرسول .

ثم انظر معى إلى الصور التى اختارها النبى ﷺ لهذا الطواف . لقد أمر النبى أصحابه أن يتجردوا من ثيابهم المعهودة أو التى تعودوا لبسها كل يوم ،وأن يرتدوا ثياباً أخرى غير مخيطة ، ويتألف كل ثوب من إزار يغطى النصف الأسفل من الرجل [ورداء يجعل وسطه تحت منكبه الأيمن ويجعل طرفيه على منكبه الأيسر ، وقد سميت هذه السنة من سنن الحج (بالاضطباع)(١) .

أتدرى ما هى الحكمة التى دعت الرسول إلى أن يأمر أصحابه باتخاذ هذه الهيئة فى تغطية الجسم فى أثناء الطواف ؟

---

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٥٣٢ :

لقد كان الرسول يذهب إلى الحج وهو بالمدينة، فحرص على الظهور هو وأصحابه على هذه الهيئة التى يغطى فيها أحد كتفيه ويكشف فيها عن الكتف الأخرى لكى يظهر للمشركين هو وأصحابه بمظهر الأقوياء المفتولى العضلات الذين يستطيعون مع قلتهم أن يقاوموا المشركين مع قوتهم ومتانة بنيانهم الجسدى .

إن الطواف إذن — لايخلو من معنى (المظاهرة) الكبرى التى قصد إليها الرسول قصداً ، وذلك بغية الإعلان عن الدين ، وبغية الظهور بمظهر القوة البدنية إلى جانب القوة الروحية للمسلمين وفى ذلك تخويف للمشركين فى مكة وإرهاب لرءوس الكفر فى تلك البلدة التى اضطرت النبى وأصحابه إلى الهجرة .

الحق — إن فى كل شعيرة من شعائر الحج فضلا عن معنى التجرد والعبادة كما قلنا — معنى من معانى الدعوة الإسلامية، وإشارة بليغة إلى قوة هذه الدعوة .

ومن أهم هذه الإشارات البليغة أو الدعائية — التلبية والطواف .

وفى وقفة عرفات — وذلك فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة — يجتمع المسلمون كذلك من كل أقطار الأرض فى هذا الوادى القريب من مكة فى وقت واحد وبقلب واحد وعيد واحد من أكبر أعياد المسلمين ، وينظمون لأنفسهم أو ينظم الله لهم مؤتمراً ثانياً كمؤتمرهم حول الكعبة، وفى هذا المؤتمر العظيم، يستطيع المسلمون — لوأرادوا — أن يتبادلوا الرأى فيما يعود على الأمة الإسلامية كلها بالخير ، ويذود عنها الشر وينصرهم على العدو.

وإن أسلوب المؤتمرات هو السمة الأساسية للاتصال الشخصى فى عالمنا الحاضر ، ولكن مؤتمر الحج يختلف عنها من حيث تجتمع له كل مقومات النجاح العقائدية والروحية والفكرية .

وشعيرة أخرى من شعائر الحج — هى رمى الحصى أو الجمرات — إذ يأخذ كل واحد منهم تسعاً وأربعين حصاة من أرض يقال لها (المزدلفة)

فى طريقهم إلى (منى) ويبيتون فى تلك الجهة حتى إذا أشرق الصباح ذهبوا بجموعهم إلى مكان يقال له (العقبة) وهناك يأخذون فى رمى الحصى أو الجمرات فإذا انتهوا من ذلك ذبحوا ذبائحهم وأطعموا الفقراء .

أليست هذه الأعياد من الأمور التى تتدرج بها الدعاية فى كل زمان ومكان ؟ وماذا يفعل الناس فى أعيادهم منذ القدم أكثر من هذا ؟ إنها إذن مظاهرة كبرى من هذه المظاهرات التى اقترنت بالحج الأكبر ، وإنها لذريعة من أقوى ذرائع الدعوة للإسلام والانتصار لنبى الإسلام والاحتفال به على النحو الذى يلقى الرعب فى قلوب خصومه وأعدائه .

وشعيرة أخيرة من شعائر الحج هى سعى الحجيج بين الصفا والمروة وإنها لمظاهرة كبرى لاتقل فى روعتها عما سبقها من المظاهرات فيها يعلو الهتاف للإسلام ، ونبى الإسلام ، وفيها يكثر الدعاء إلى الله بالرحمة والغفران ، وبها يزداد المسلمون تعلقاً بالرسول وإصراراً على التمسك بمبادئه العالية .

وقبل أن يغادر المسلمون مكة المكرمة يعودون إلى الطواف حول الكعبة المشرفة طواف وداع ، وقلوبهم تفيض بالإيمان وقوة الاعتقاد بهذا الذى أرشدهم إلى مواطن الرفعة المعنوية والنفسية والمادية .

فأين الزعيم الدينى أو السياسى أو الاجتماعى الذى يستطيع تنظيم مثل هذه التجمعات أو المؤتمرات ؟ وأين الفرصة التى تتاح للاتصال بالجماهير وتبادل الأفكار والآراء والأخبار والمعلومات مثل هذه الفرصة التى تتاح للناس فى الحج ؟

ولعل ذلك ما أراده الله تعالى من قوله (ليشهدوا منافع لهم) كما سبق القول فى ذلك ، فليت المسلمين فى هذا العصر ينتفعون بهذه الوسيلة الإعلامية القوية ، إنهم يستطيعون أن يتخذوا من موسم الحج فى كل عام مؤتمراً إسلامياً عالمياً يعرضون فيها آراءهم وأفكارهم ومشكلاتهم وقضاياهم ومنها قضية فلسطين[1]

---

(١) أذكر أننى أديت فريضة الحج عام ١٩٦٨ وأديت شعائر الحج ما استطعت حتى وصلت مع الحجاج إلى جبل عرفات — وكان يوماً عظيماً شعرت فيه بسعادة روحية لم أذق مثلها فى حياتى ؛ =

ودعنا نختم هذا الفصل بهذه الآية الكريمة التى تعطينا أكبر دليل على أن (يوم الحج الأكبر) تمييزاً — له عن الحج الأصغر وهو العمرة — أكبر إعلان للإسلام والمسلمين ، وتحذيراً فى الوقت نفسه للمشركين والكافرين . قال تعالى : (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) .

= ولكن الذى أحزننى فى ذلك اليوم وحز فى نفسى كثيراً أنى لم أجدما كنت أنتظره وأتخيله فى نفسى قبل ذلك : فقد كنت أنتظر أن أشهد أضخم مؤتمر إسلامى هناك يخطب فيه الخطباء فى قضية فلسطين ، وهى القضية التى كانت تشغل بال المسلمين فى ذلك الحين . وبعد قليل سمعت خطيباً واحداً أخذ يخطب الجماهير فى هذه القضية ولكنه لم يطل كما توقعت ولم يعقب عليه خطباء آخرون فلم يشجعنى ذلك على أن أكون واحداً من أولئك المعقبين — برغم أنى كنت فى غير كامل صحتى فى ذلك اليوم .

لقد كانت هذه الفرصة ثمينة يتحدث فيها زعماء المسلمين فى أمور كثيرة من أهمها قضية اللاجئين ، ولكن ذلك لم يحدث فرجعت من عرفات فى ذلك اليوم وأنا حزين وأريد أن أعفى نفسى من الاستطراد فى الحديث .

الفصل السابع
العلاقات الإنسانية
فى صدر الإسلام

نسمع فى العصر الذى نعيش فيه بمادة جديدة من مواد الإعلام هى مادة (العلاقات العامة) غير أن هذه المادة إنما تعتبر جزءا من علم أوسع هو علم العلاقات الانسانية، وينقسم هذا العلم إلى قسمين: العلاقات الداخلية أو الخاصة، والعلاقات الخارجية أو العامة، ولا غنى للمؤسسات الحكومية أو الأهلية عن القسمين معاً.

أما العلاقات العامة فهى علاقات المؤسسات بالجماهير من الخارج، وأما العلاقات الخاصة فهى علاقات المؤسسة فى الداخل.

فإذا طبقنا ذلك على الظروف التى أحاطت بالرسول والخلفاء الراشدين فى صدر الإسلام وجدنا أن علاقاتهم بالمسلمين من سكان المدينة تمثل العلاقات الداخلية، وأما علاقتهم بغير المسلمين فى داخل المدينة وخارجها فتمثل العلاقات العامة، وقد جمع الرسول وجمع الخلفاء الراشدون من بعده بين هذين النوعين من العلاقات الإنسانية — ولكنهم كانوا قد بدءوا بالعلاقات الداخلية ثم وجهوا عنايتهم إلى العلاقات الخارجية.

ولعل أكبر شاهد على ما نقول أن رسول الله ﷺ بدأ رسالته بدعوة أهله وعشيرته إلى الإسلام وذلك عملا بقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) فبدأ بدعوة زوجته السيدة خديجة وغلامها ياسر وسمية زوجة ياسر، هذا فى المرحلة السرية من مراحل الدعوة، ثم بدأ المرحلة العلنية بدعوة بنى هاشم كما سنشرح ذلك فى موضعه.

والعجب أن النظريات الحديثة فى العلاقات الإنسانية تقول إن هذه العلاقات ينبغى أن تبدأ من الداخل ثم تنتهى بالعلاقات العامة أو العلاقات من الخارج، فانظر كيف اهتدى الرسول إلى ممارسة هذا النوع من أنواع

الإعلام — وهو العلاقات الإنسانية — بطريقة يقرها العلم الحديث ، ذلك أنه بدأ بزوجته وبنى قرابته ثم بأدنى الأصدقاء إلى نفسه ، وهو الصديق أبوبكر ومن فى درجته ، ومضى فى طريقه حتى بلغت الرسالة غايتها بعد ذلك .

ويشبه العلماء المحدثون ممارسة العلاقات الإنسانية على هذا النظام المتقدم أعنى به البدء بالاعلام الداخلى والانتهاء بالإعلام الخارجى بالحجر يلقى به فى الماء ، فيحدث فيه حركة شديدة ، وإذا بدوائر أو حلقات من الأمواج تتكون حول الحجر ، وتتسع شيئاً فشيئاً ، وهذه الدوائر أو الحلقات إنما تتكون من الداخل أولا وتتسع فى اتجاهها إلى الخارج شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى بعد ذلك . بناء على هذه القاعدة الحديثة من قواعد العلاقات الانسانية ، يمكن التأكد بأن الإعلام الداخلى يجب أن يكون سابقاً على الإعلام الخارجى ، بل إن الاعلام الخارجى إنما هو انعكاس لابد منه للإعلام الداخلى ، ومن ثم كان من الأخطاء التى ترتكبها بعض الدول فى وقتنا هذا أن تسلك فى الإعلام خطة عكسية ، فلاتصيب هدفا إعلاميا ذا بال .

ثم إن العلاقات الإنسانية لا تنشأ إلا فى جو ثقافى وحضارى يؤمن بقيمة الانسان من حيث هو إنسان له كرامته وله حقوقه على الآخرين ، وعليه واجبات نحوهم ، وقد توفرت هذه المعانى فى المجتمع الإسلامى وهو المجتمع الذى خلقه وتولى بناءه الرسول الأمين ﷺ ، ومن الخطأ كل الخطأ أن يزعم المؤرخون أن هـذه المعانى لم توجـد إلا بقيام الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى القرآن آيات كثيرة تتفق على ذلك منها على سبيل المثال : « ولقد كرمنا بنى آدم . . . » وفى الحديث قول الرسول ﷺ : (الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط) .

فضلا عن هذا وذاك فإن لفظ (الانسان) أو ابن (آدم) كثير الورود فى القرآن الكريم بمعنى الكرامة والاحترام ، وبوصفه سيداً للطبيعة التى سخرها له الله تعالى وفضله على أى مخلوق سواه ، ويضاف إلى كل ذلك

ما سبق أن قلناه من أن الاسلام حض على الشورى وأمر المسلمين بها ، بل أمر النبى نفسه باتباعه مع أنه المثل الأعلى للانسان وأنه أرجح عقلا وأكثر علما وأعظم منزلة من جميع الذين عاصروه واتبعوه فى دعوته، وفى مثل هذه الأجواء من الديمقراطية يتهيأ الرأى العام وتتهيأ العلاقات الإنسانية وتظهر على أحسن وجه .

وهكذا وفر الإسلام بتعاليمه جوا من الإخاء والمساواة جعل من العلاقات الانسانية نباتاً صالحاً للتربة الاسلامية فأصبحت هذه العلاقات الانسانية سمة من سمات المجتمع فى صدر الاسلام ، أعنى فى عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

ثم حدث بعد ذلك أن انعكست هذه العلاقات الانسانية فى داخل المجتمع الاسلامى الضيق فى المدينة على الجهات البعيدة عنها ، وعلى الدول الكبيرة المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، كما ظهر ذلك فى الوفادات أو التمثيل الدبلوماسى بلغة العصر الحديث ، وهو التمثيل الذى تحقق بشكل ملموس فى بعثات النبى ﷺ إلى الأمراء والملوك المجاورين .

وسنتحدث عن ذلك بوضوح فى الفصل الذى عنوانه : (الدعوة فى عهد الرسول وأساليب نجاحها) .

وعلى ذلك فنحن لا نبالغ إذا قلنا أن الإعلام الإسلامى هو الذى وضع النواة الأولى لفن العلاقات الإنسانية بشقيها: العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية، كما أنه وضع الأساس الأول لفن الدبلوماسية والتعامل الإنسانى المتحضر مع الآخرين .

والحقيقة أن عبقرية الدين الإسلامى عبقرية إعلامية فى جوهرها كما أشرنا كذلك إلى أنها لم تكن سحراً كما كان الأمر فى الموسوية فى عصر فرعون مصر المعروف باسم « منفتاح » ولم تكن المعجزة طباً كما كان الأمر فى المسيحية أيام الرومان .

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام فطن كذلك إلى أهمية الشرح

والتفسير باعتباره جزءاً من الإعلام ، وكان يبعث بالوفود من القراء والفقهاء لتفسير الدين وشرح القرآن الكريم ، كما يفعل خبراء الإعلام من المعلقين والممثلين فى العصر الحديث .

وباختصار نجد أن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام كانت من أبرز صور النشاط الإعلامى الذى مارسه الرسول ومارسه الخلفاء الراشدون ؛ وعلينا أن نقيم الأدلة على صدق هذه القضية ، وذلك من حياة الرسول وأصحابه على النحو التالى :

١ — فمن ذلك أن الرسول كان يحسن استقبال الوفود العربية التى تفد إليه فى المدينة وترغب فى اعتناق الإسلام على يديه .

٢ — ومن ذلك أيضاً أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من التآخى بين المهاجرين والأنصار منذ هاجر وهو وصاحبه أبو بكر من مكة وتبعه أصحابه من المكيين فى ذلك .

٣ — ومن ذلك أن الرسول حاول أن يوجد نوعاً من العلاقات السياسية بينه وبين اليهود المقيمين معه فى المدينة ، وذلك بقصد التعايش السلمى معهم كما نقول فى لغة العصر الحاضر.

٤ — ومن ذلك ما أشرنا إليه منذ حين — من أن الرسول نجح فى إيجاد العلاقات الدبلوماسية بينه وبين أمراء العرب ، ثم بينه وبين ملك الحبشة وملك الروم وكسرى وعزيز مصر وغيرهم من الملوك المعروفين فى زمنه ، وكل هذه الجهود التى بذلها الرسول تعتبر فى نظر الباحث الحديث صوراً من العلاقات الإنسانية .

٥ — ثم من ذلك طريقة المصاهرة ، والمعروف أن النبى ﷺ كان له زوجات كثيرة ، ولكن ذلك لم يكن دليلا على ميله للشهوات — ولو كان من طريق الحلال — ولكن ذلك كان نوعاً من أنواع العلاقات الإنسانية — كما سنشرح ذلك فيما بعد .

والواقع أن كل فكرة جديدة أو عقيدة جديدة لا نستطيع أن نجد لها

غنى عن فن العلاقات الإنسانية ، وهذا كلام ينطبق على كل نظام جديد أو كل حكومة جديدة أو كل فرقة من الفرق السياسية أو الاجتماعية أو الدينية تظهر في المجتمع .

وإذا كانت العلاقات الإنسانية بشقيها يمكن مزاولتها فى العصر الحديث عن طريق الصحف والإذاعة ونحو ذلك فإن العصور القديمة كانت تزاولها بالطرق التى تيسرت لها إذ ذاك كالخطابة ، والشعر ، والندوات والزيارات الرسمية . ومنها الزيارات التى كان يقوم بها عمر بن الخطاب إلى الأقاليم الإسلامية من حين لآخر رغبة منه فى الوقوف على أخبار الرعية من جهة ، وتوطيداً للعلاقات الإنسانية بين المسلمين وولاتهم فى هذه الأقاليم من جهة ثانية .

ونقطة أخرى لا بد من توضيحها فى مجال العلاقات الإنسانية بمفهومها فى العصر الذى نعيش فيه : فهناك المؤسسات الحكومية أو الأهلية. وهناك المنظمات أو الجمعيات التى تهدف إلى الأرباح المالية من طريق التسويق والتسويق وحده قبل أى شىء ، ومن الأمثلة على هذه المنظمات ما تراه من الشركات التجارية أو المنشآت الصناعية ، وكل هذه الشركات أو المنشآت فى العصر الحاضر إنما تحتاج إلى قوتين فى وقت معاً ، هما قوة الإدارة من جانب ، وقوة العلاقات العامة من جانب آخر .

غير أن هناك منظمات ومؤسسات ليست بحاجة إلى الربح المالى ومن الأمثلة عليها الجامعات والمستشفيات والجمعيات الخيرية كالمبرات ونحو ذلك ، ومن غير المعقول أن يكون بهذه المنظمات هدف إلى الكسب المادى ، أو بعبارة أخرى ليس لها هدف التسويق ، فالجامعة عملها نشر العلم ، والمستشفى لعلاج المرضى ، والمبرة أو الجمعية الخيرية لمساعدة الفقراء ، وهكذا .

والمنظمات الفكرية والفرق المذهبية لابد أن تكون من النوع الأخير ، ليس لها هدف التسويق وإنما هدفها الوحيد هو ترويج المذهب الجديد أو

العقيدة الجديدة ونحو ذلك ، ومن هذا القبيل تلك الدعوة التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي الدعوة إلى الإسلام ، ومن أجل ذلك مارس الرسول فن العلاقات الإنسانية بالطرق التي أشرنا إليها ، وكان يعتبر بالأنبياء الذين سبقوه إلى مثل هذه الدعوة ، فلا يطلب من العرب أجراً على الجهد الذي يبذله في سبيل الدعوة ، بل كان يقول لهم ماقاله الأنبياء من قبله : (قل ما أسألكم عليه من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) .

* * *

بقي أن نستشهد ببعض الأمثلة على هذه العلاقات الإنسانية التي زاولها الرسول ﷺ وقام بها بعض الخلفاء من بعد ، وسنكتفي بالأمثلة الآتية :

أولا : طريقة القراء أو الفقهاء الذين يبعث بهم الرسول إلى القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام ، وكان على أولئك الفقهاء أن يقوموا بأعمال كثيرة منها :

شرح تعاليم الدين الجديد ، وتفسير بعض آيات القرآن وبيان الحديث الشريف ، ومنها تقوية الروابط بين أفراد هذه القبائل من ناحية والنبي وصحبه وبقية المسلمين من ناحية ثانية ، وإذا كان الهدف الأول من العلاقات العامة في كل زمان ومكان هو إيجاد هذه الروابط الإنسانية السليمة في المجتمع وضمان التفاهم الصحيح بين طرفين هما : الطرف الذي يمثل مصدر الرسالة أو المرسل (بكسر السين) والطرف الذي يمثل المستقبل (بكسر الباء) نقول إذا كان هذا هو الهدف الأول والأخير من العلاقات العامة ، فقد نجح مبعوثو الرسول في أداء هذه المهمة كل النجاح ، وجاهدوا في سبيل هذه الغاية حق الجهاد ، وقد وطنوا أنفسهم على التعرض لكل الأخطار في سبيل ذلك .

والحق لقد كانت هذه المهمة الجليله محفوفة بالأخطار العظيمة . فقد كان بعض الخونة غلاظ الأكباد من العرب يستدعون الفقهاء بقصد التفقه في

الدين فإذا خلوا بهم قتلوهم غدراً ووحشية وانتقاماً من الإسلام ، حدث حادث كهذا فى مكان يقال له (بئر معونة) وذلك فى صفر من السنة الرابعة للهجرة(١) وتعرف هذه الواقعة بسرية القراء « وكانوا سبعين قارئاً يؤلفون هذه السرية » .

فقد قدم أبو براء — سيد قبائل بنى عامر — إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه هدايا ، وطلب من النبى أن يبعث معه بعض رجال من الصحابة إلى أهل نجد فخاف النبى على أصحابه أن يغدر بهم أهل نجد ورفض الهدايا ، كما رفض أن يبعث برجاله ، ولكن أبا براء أجازهم وضمن سلامتهم ، فبعث النبى معه سبعين رجلا من خيار المسلمين ، فلما وصلوا إلى بئر معونة وجدوا أنفسهم محاصرين بجيش كبير ، وضربت أعناق الرجال الأبرار الذين كانوا يحملون رسالة السماء ولم يفر منهم إلا كعب بن زبير وعمرو بن أمية ، فبلغ النبى خبرهم فوجد لهم أشد الوجد وحزن عليهم أعمق الحزن وقال : هذا عمل أبى براء ، فقد كنت لهذا كارهاً متخوفا ، فبلغ أبا براء ما قاله النبى ﷺ فمات عقب ذلك أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل .

ووقعت مأساة كهذه فى الرجيع — وهو اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان(١) غير أن وقوع هاتين الحادثتين المؤلمتين اللتين تركتا فى النبى ﷺ أعمق الأسى والحزن لم يمنع النبى من المضى فى خطته هذه ، وإرسال القراء إلى القرى العربية للقيام بإفهام المسلمين مبادىء الدين ، وإفهام المشركين أنهم لن يزعزعوا عقائد المسلمين عن طريق الغدر والخيانة التى يمقتها هذا الدين ولا يقرها ولا يعتمد عليها ، ويحل محلها وسيطة من وسائط الاتصال بالناس سعياً وراء نشر الدين وغرس الفضائل الحقيقية التى يغرسها فى نفوس المسلمين ، وهى طريقة العلاقات الإنسانية ».

ثانياً : ونعنى بها المصاهرات التى عقدها الرسول مع بعض الصحابة من جانب ، وبعض القبائل العربية من جانب آخر .

---

(١) بئر معونة : مكان ببلاد قبيلة هذيل بين مكة وعسفان .

فقد أصهر النبي إلى بكر وعمر وإلى عثمان ، كما أصهر النبي إلى بعض القبائل العربية ، ليس ذلك لرغبة فى اللذة أو الرغبة فى المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك من الأغراض التى تدفع الناس إلى الزواج ، ولكن لتقوية الروابط بينه ﷺ وبين جميع هؤلاء .

وصحيح أن الناس فى عصرنا هذا قد لا ينظرون إلى المصاهرة بمثل هذه النظرة ، ولكن يرون الملوك والرؤساء فى جميع عصور التاريخ يعقدون هذه الزيجات لتقوية العلاقات الودية بين دولتين من الدول ، أو بلدين من البلاد ، ويرون بأعينهم أن هذه الطريقة أكبر الأثر فى الوصول إلى هذه النتائج ، وفى حياة الرسول ﷺ شواهد كثيرة على صدق ما نقول ، ونكتفى منها بشاهد واحد يغنى عن بقية الشواهد الأخرى ، ويتضح ذلك فى غزوة بنى المصطلق .

وقعت هذه الغزوة فى السنة الخامسة للهجرة . وبنو المصطلق فرع من فروع خزاعة ، وهى قبيلة مرتبطة مع النبي برباط تحالف وثيق ، كان سيدهم الحارث من بنى ضرار ، وكان يجمع الجيوش لقتال المسلمين ؛ وكان ذلك فى الأعم الأغلب من تحريض قريش . فسمع النبي بذلك واستوثق من صحته ، فأسرع إلى الخروج من المدينة ليأخذ جيوش الحارث على غرة ، ففر الحارث بجيشه ولكن سكان المكان الذى يعيش فيه الحارث — واسمه المريسيع ، ويبعد تسعة أيام من المدينة أبوا على أنفسهم إلا أن يحاربوا المسلمين ، فانهزموا ووقع فى أيدى المسلمين منهم ستمائة أسير ، كان من بينهم جويرية بنت الحارث ، فدفع النبي فديتها فطلبت منه الزواج بها فتزوجها . فلما شاع خبر زواجها من الرسول ﷺ أطلق المسلمون من بأيديهم من الأسرى إكراماً لمصاهرة النبي إلى بنى المصطلق .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « لقد أعتق بزواج الرسول من جويرية أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم على قومها بركة من هذه المرأة » .

---

(١) عبد الوهاب حودة . ساعات حرجة فى حياة الرسول ، ص ١٠٢ — ١١٣ .

ثالثاً : وكما كان الرسول ﷺ نموذجاً أعلى للعلاقات الإنسانية — كما رأينا — فكذلك كان صحابته من بعده :

ولعل حاكما من الحكام لايرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغاً أكرم ولاأرفق مما وصل إليه عمر ، فقد أجرى الصدقة على فقراء اليهود والنصارى ، ومن ذلك كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : أنه أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر ، وقال فى ذلك : ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته(١) ثم نخذله عند الهرم .

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين . فمر فى أرض دمشق بقوم مجذمين (أى مصابين بمرض الجذام) من النصارى فأمر بإعطائهم من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت ، وله — رضى الله عنه — فى هذا الباب نوادر وأخبار لا يتسع لذكرها هذا الكتاب .

ألا ما أعظم العلاقات الإنسانية وما أقوى سرها وما أنبل مقصدها فى مجال الإعلام والاتصال بالناس ! وصدق من قال : إن شرف الوسيلة من شرف الغاية التى تهدف إليها .

---

(١) أكلنا شبيبته : بمعنى انتفعنا به أو انتفعت الدولة به فى شبابه حتى هرم .

الباب الثاني

الدعوة في عهد الرسول وأساليب نجاحها

« يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ٭ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ٭ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ٭ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ».

(صدق الله العظيم)

تمهيد

الدعوة والإعلام والدعاية في الإسلام

مما لا ريب فيه أن الإسلام كان ثورة كبيرة اعتمدت فى نجاحها على طريقين لا ثالث لهما . وهما :

الكلمة من جهة ، والسيف من جهة ثانية ، وسننظر فى هذا البحث إلى غزوات النبى ﷺ على أنها كانت هى الأخرى ضرباً من ضروب الدعوة لنشر الإسلام ، وقد ثبت من التاريخ أن هذه الغزوات التى قام بها الرسول ﷺ لم تكن لها غاية وراء ذلك .

أجل — انتشرت دعوة الإسلام بالوسائل المعروفة فى ذلك الوقت ، ولكن كان القدماء منذ ظهور الرسول لايعرفون هذا المصطلح الحديث: مصطلح الإعلام والاتصال بأنواعه الثلاثة: الشخصى والجمعى والجماهيرى، واستخدموا مكانه المصطلح المعروف عندهم وهو مصطلح الدعوة ،والدعوة إلى شيء هى الترغيب فى هذا الشيء . أو بمعنى آخر الدعاية له. ونحن لانسيء إلى الدين إذا قلنا أن العمل الذى قام به الرسول الكريم من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية فى ذاتها لها معنيان على الأقل : الدعاية الطيبة أو البيضاء. والدعاية الخبيثة أو السوداء ، ونحن نعلم علم اليقين أن الرسول كان مسئولا أمام ربه عن عمل واحد فقط هو الإعلام أو التبليغ ، قال تعالى : « إن عليك إلا البلاغ » وقال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » والخلاصة أننا مع القدماء فى إطلاق اسم (الدعوة) على الجهود التى بذلها الرسول ، ولسنا نميل إلى تسمية هذه الجهود النبوية بغير هذا الاسم وهو (الدعوة) بمعنى الاتصال والدعاية لهذا الدين حتى يعرفه الناس .

وقد مارس الرسول طائفة من طرق الدعوة والاتصال بالناس فى سبيل نشر الدين ، ويشرح هذا البحث كيف نجح الرسول فى كل ذلك نجاحا منقطع النظير ، وكيف أن الله تعالى زوده بجميع الأخلاق التى لا بد منها للداعى إلى هذا الدين الجديد ، وربما كان من أولى الصفات التى يحتاج إليها الداعية المثالى صفة (الصدق فى القول) وصفة (الصبر على العمل) . ونحن نعلم جيداً أن الجهود التى بذلها الدعاة ورجال الإعلام والاتصال بالجماهير لا تكلل بالنجاح ما لم تعتمد على قاعدة الصدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؛ ولذلك كانت هذه الصفة من أولى صفات الرسل والأنبياء كما حدثنا القرآن الكريم .

وكان ﷺ مثلا أعلى فى هذه الصفة بنوع خاص ، ومن أجل هذا صدقه العرب حين جاءهم برسالة السماء ؛ بل من أجل ذلك لم يكن عبثا ولا من قبيل الصدف أن وجدنا محمدا عليه الصلاة والسلام فى بداية المرحلة العلنية من مراحل الدعوة الإسلامية يقف بين أهله وعشيرته ويبدأ الحديث معهم بقوله لهم :

هل سمعتمونى يوماً أقول كذباً ؟ قالوا : لا ، إننا لم نعرف عنك غير الصدق . ثم سألهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم أنت عندنا غير متهم .

ثم أدلى لهم بالرسالة التى بعثه الله بها على الفور .

معنى ذلك فى نظر رجل الإعلام أن الاتصال بالناس لا يقوم إلا على الثقة التامة بين مصدر الرسالة من جهة ؛ والجمهور الذى يتلقى الرسالة من جهة ثانية .

ومعنى ذلك أيضاً أن الإعلام بمعناه السليم هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات الصحيحة والحقائق الثابتة التى تساعد الناس على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع ، أو مشكلة من المشكلات ، فإذا خلت هذه العملية الإعلامية من الصدق لم تصبح إعلاماً بالمعنى الصحيح ،

بل هى نوع آخر ، كأن تكون تضليلا للجمهور ، أو مؤامرة سوداء ضد هذا الجمهور ونحو ذلك ، وقد برئت الدعوة الإسلامية من مثل هذه الصفات ، ولذا كتب لها النجاح التام ، ذلك أن محمداً كان كما قلنا — مثلا أعلى فى الصدق إلى الحد الذى جعل العرب يصدقونه فى كلامه ، ولو جاء بخبر السماء .

والذى نريد أن نخلص إليه من هذا الحديث الذى سقناه إلى الآن هو أن ما قام به الرسول من المجهود لنشر الإسلام كان (إعلاماً) صرفاً بلغة العصر الحاضر ، (دعوة) صادقة بلغة المسلمين فى العصور التى سبقتنا ، وحسبنا أن نعرف أنه كان من أهم الوسائل الإعلامية التى أتيحت للرسول إذ ذاك وسيلة (القرآن الكريم) والقرآن الكريم (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . ثم فى عهد الخلفاء الراشدين انقطع الوحى ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فانقطع بذلك مصدر ثان من مصادر الإعلام والاتصال بالناس على أحسن صور هذا الاتصال ، وهذا المصدر الأخير هو الرسول نفسه ، ولكن القرآن الكريم والحديث بقيا بعد وفاة النبى نبراسا لجميع المسلمين منذ عصر الخلفاء الراشدين يعتمدون عليهما فى هداية المسلمين وجذبهم إلى المثل الأعلى .

ثم أضيف إلى هاتين الوسيلتين من وسائل الإعلام وهما القرآن والسنة وسائل أخرى مارسها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين قد شرح البحث أمثلة منها ، غير أننا سنرى بوضوح أن تلك العصور التى أتت بعد الرسول لم تعد قادرة على الاعتماد على الإعلام وحده من ضروب الاتصال بالناس — ولكنها احتاجت إلى الاعتماد على (الدعاية). معنى ذلك أن الخلافة فى الإسلام لم تجد لها غنى عن هذه الوسيلة التى يحتاج إليها كل نظام جديد من أنظمة الحكم فى أى زمان ومكان ، ومن ثم كان الفرق عظيما بين (الدعوة) فى عهد الرسول (والدعاية) فى عهد الخلفاء

والملوك والسلاطين ، غير أن الاعتماد على الدعاية وحدها لم يظهر بوضوح كما ظهرت منذ نشوء الدولة الأموية ثم العباسية ثم الفاطمية ، أو بمعنى آخر منذ تحولت الخلافة الإسلامية إلى ملك عضوض كما يقول المؤرخون السابقون .

والذى لاشك فيه أن الدعاية قوة سياسية كبيرة فى وسعها أن تقيم دولا وأن تهدم أخرى ، وفى وسعها أن تنشر مذهباً وأن تقتل آخر ، ومن ثم كانت الدعاية هى الدعامة التى قامت عليها جميع الدول الإسلامية منذ أن انتهى العهد بدولة الخلفاء الراشدين ، وكان من أقوى العوامل التى جعلت للدعاية كل هذه القوة و الأهمية انقسام المسلمين إلى فرق دينية وحرص كل واحدة منها على أن تظهر على جميع الفرق الأخرى ، فلقد كانت الدولة الأموية عثمانية الهوى تكره علياً وأولاده وأتباعه كل الكراهية ثم جاءت الدولة العباسية فكانت تتظاهر بالتشيع لآل البيت أول الأمر حتى إذا نجحت فى الوصول إلى غايتها اتخذت من (الاعتزال) مذهباً لها ،ودعت له وحاربت جميع المذاهب المخالفة ، ثم فى عهد الفاطميين كان المذهب الشيعى هو المذهب الذى اعتنقته الدولة ، ثم جاء صلاح الدين فأعاد الناس إلى المذهب السنى وهكذا ...

والنتيجة التى نخرج بها من هذا الحديث هى أن الفرق عظيم بين الدعوة والإعلام ، والدعاية . فالدعوة هى الجهود التى يبذلها أصحاب الأفكار الجديدة أو العقائد الجديدة أو المذاهب الجديدة ومن أعظم الأمثلة عليها الدعوة التى أتى الرسول لنشرها وهى دعوة الإسلام ، والإعلام هو الجهود التى يبذلها الناس لتأييد هذه الأفكار أو العقائد أو المذاهب .. ومن ذلك جميع الجهود التى بذلها الخلفاء الراشدون — وكلهم من صحابة النبى وحوارييه — فى تثبيت هذا الدين الجديد وذلك بعد أن فرغ الرسول من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة والقيام بالدعوة على أحسن وجه . والدعاية هى الأسلوب الذى يروج لفكرة أو عقيدة أو مذهب أو يدحض كل ذلك عن طريق التأثير

فى عواطف الفرد أو الجماعة واستهوائها بقدر المستطاع ، ومن ذلك مافعلته الخلافة الأموية وما تلاها من الحكومات الإسلامية على اختلافها إلى اليوم .

ولقد قامت كل من الدعوة والإعلام والدعاية على فن الاتصال بالغير ، وهو أنواع ثلاثة – الاتصال الشخصى والاتصال الجمعى والاتصال بالجماهير . والعصور القديمة هى التى عرفت النوعين الأولين الشخصى والجمعى . والعصور التى نعيش فيها هى التى انفردت بالاتصال بالجماهير ، وذلك منذ اختراع الوسائل الحديثة للإعلام مثل الصحف والراديو والتلفزيون وهى الأجهزة التى تستطيع الاتصال بالجماهير التى تعد بالملايين .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال فى الإسلام مر بهذه الأطوار الثلاثة :

الأول : طور الدعوة الإسلامية ، وهو خاص بحياة النبى ﷺ وبه سميت جميع الجهود التى بذلها فى سبيل هذا الدين الجديد .

الثانى : طور الإعلام وبه سميت معظم الجهود التى بذلها الخلفاء الراشدون وهم الذين كانت حياتهم فى جملتها صورة من حياة الرسول ، أو على الأقل حرصوا كل الحرص أن تكون حياتهم كذلك .

الثالث ، طور الدعاية – وعليه قامت الخلافة الإسلامية والممالك والإمارات فى الإسلام منذ معاوية بن أبى سفيان رأس الخلافة الأموية إلى يومنا هذا .

أجل – كان الطور الأول من أطوار الاتصال فى الإسلام هو طور الدعوة .. ونريد أن نستشهد على ذلك بالقرآن الكريم نفسه – فنحن إذا تتبعنا القرآن نفسه من حيث تاريخ النزول وجدنا أن أول سورة نزلت على الرسول هى سورة (اقرأ) وهى السورة التى أعلمته صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة ، وبأنه مبعوث من قبل الله تعالى لنشر دعوة جديدة وهى الدعوة إلى الإسلام . .

ثم تلتها فى النزول سورة المدثر وفيها يقول الله تعالى ، « يا أيها المدثر

قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر *
ولربك فاصبر » .

ولا بأس من الوقوف قليلا أمام هذه السورة الكريمة لأن فيها إشارة إلى تكاليف الله تعالى رسوله محمداً بنشر الدعوة وفيها إشارة أيضاً إلى الأسلحة التى لا بد له صلى الله عليه وسلم من أن يتسلح بها فى القيام بهذا العمل .

ففى قوله تعالى : (قم فأنذر) أمر من الله تعالى لرسوله بأن ينذر الناس بمعنى القيام بإعلامهم وتنبيههم إلى الدعوة الجديدة ، وذلك أن الإنذار فى اللغة هو الإعلام والتنبيه وليس معناه الإرهاب والتخويف .

والدليل على ذلك أن الإسلام فى أول خطوة من خطواته ليس بحاجة إلى هذا المعنى الأخير ، والرسول نفسه لا يستطيع أن يفتتح رسالته على هذا النحو .

ثم فى قوله تعالى : (وربك فكبر) أمر من الله تعالى لرسوله أن يكبر ربه ويعظمه ويقدسه ، فهذه هى العقيدة الجديدة التى بعث بها رسوله .

ثم فى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) أمر من الله تعالى لنبيه أن يقوم بتطهير نفسه من جميع الآثام والمعاصى وأن يحررها من كل دنس ، والعرب تقول فلان طاهر الثوب ، أو الذيل كناية عن أنه شريف طاهر النفس وذلك أنه لا يلازم الإنسان فى جميع أطوار حياته ملازمة تامة شيء مثل ثيابه ، فكأنها عنوان لذاته .

ثم فى قوله تعالى : (والرجز فاهجر) ونرى أن الرجز فى اللغة هو العذاب والمقصود هنا البعد عن الآثام والمعاصى التى تسبب للإنسان العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهى فى الدنيا تهلك الجسم ، وتبدد القوة والعافية وتهد كيان الإنسان وتوهن القوى ، وفى الآخرة تعرض المرء لعذاب جهنم .

ثم فى قوله تعالى : (ولا تمنن تستكثر) أمر من الله تعالى لرسوله الأمين (ألا يضعف) لأنه إذا أظهر الضعف أمام هذه الرسالة أخذ يستكثر أعباءها ويستطيل طريقها ويظن نفسه غير قادر عليها بحال من الأحوال .

ثم فى قوله تعالى لرسوله (ولربك فاصبر) أمر آخر من الله تبارك وتعالى لرسوله أن يصبر على أعباء الرسالة ويوطن نفسه على تحمل هذه الأعباء ولا سبيل له غير ذلك .

يقول الأستاذ عبد الوهاب حمودة تعليقاً على هذه السورة الكريمة ما معناه :

إن نجاح أى دعوة من الدعوات إنما يكون بطريق الاتصال المباشر بشرط أن يتسلح الداعى بأسلحة ثلاثة :

الأول : سلاح العقل الذى يهدى صاحبه إلى الدعوة الجديدة أو العقيدة الصحيحة وهى هنا فى سورة المدثر عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

والثانى : سلاح النفس بمعنى تحريرها من الأخلاق السيئة والعادات الذميمة التى كان عليها العرب فى الجاهلية وقت ظهور الدعوة .

والثالث : سلاح البدن وذلك بحمايته من الآثام التى تهلك الأجسام وتهد كيانها وتوهن من قوتها فلا يستطيع صاحبها أن يقوم برسالة أو ينشر دعوة .

ويضاف إلى ذلك أن السورة الكريمة أشارت إلى سلاح رابع له أهميته وخطره فى هذا المجال ، وهذا السلاح الرابع والأخير هو سلاح الصبر وبدونه لا يستطيع نبى أن يؤدى رسالته ولا يقوى زعيم من الزعماء على أن ينفذ خطته .

وننظر بعد ذلك نظرة إجمالية فى الآيات القرآنية التى تحمل معنى (الدعوة) فنجد بعض هذه الآيات نزلت بمكة المكرمة حيث كان النبى ﷺ يجاهد المشركين فى ظلام ويلقى منهم من ألوان العنت والتعذيب ما تمتلىء به كتب السيرة ، ومن هذه الآيات قول الله تبارك تعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقوله : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب * فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

والآيات المكية كلها تدعو إلى نشر العقيدة الجديدة بالطرق السلمية ، أما الآيات المدنية فقد نزلت على الرسول الأعظم بالمدينة المنورة بعد أن أصبح فى ذروة القوة ولهجتها مغايرة للهجة الآيات التى نزلت عليه فى مكة المكرمة ومنها :

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (سورة آل عمران آية ٢٠) .

وقوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ۝ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » (سورة الحج ٦٧ — ٦٨) .

وقد أتى الأستاذ أرنولد بمعظم الآيات السابقة ثم قال : (١)

ينبغى ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى مآثر المحارب المسلم — ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه وحمل القرآن الكريم فى اليد الأخرى ، وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الودية الهادئة التى قام بها الدعاة الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض . . وقد جاء بها القرآن الكريم مشدداً فى الحض على هذه الطرق السلمية كما يدل على ذلك قوله تعالى :

« واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا ۝ وذرنى والمكذبين أولى النعمة وأمهلهم قليلا » (سورة المزمل آية ١٠ — ١١) .

وقوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » (سورة الجاثية آية ١٤) .

---

(١) توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام — ترجمه إبراهيم وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ص ٢٨ .

وقوله تعالى : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » (سورة النحل آية ٣٥) .

وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (سورة العنكبوت آية ٤٦) .

وقوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (سورة يونس آية ٩٩) .

كل هذه الآيات المتقدمة في الحض على الطرق السلمية نزلت على الرسول ﷺ بمكة المكرمة ، وبالمدينة المنورة نزلت عليه آيات في هذا المعنى ومنها قوله تعالى :

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

(سورة النور آية ٥٤)

على أن الدعوة التي بعث بها محمد — وهي دعوته للإسلام لم يقصد بها العرب وحدهم دون غيرهم ، بل كانت دعوة للناس كافة ، لا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم من الأمم .

فانظر إلى قوله تعالى في وصف القرآن الكريم :

« إن هو إلا ذكر للعالمين » . (سورة ص ، الآية ٨٧)

وقوله تبارك وتعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . (سورة الفرقان الآية ١)

وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (سورة سبأ الآية ٢٨)

وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

(سورة الأعراف الآية ١٥٨)

الفصل الأول
المرحلة السّريّة

تقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة (قرآن) « جاء محمد بدعوة جديدة هى دعوة الإسلام ، وكان هذا الرسول أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح . فقد أنجز فى عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والنصارى رغم السلطة الزمنية التى كانت تساند هؤلاء ، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والقمار ومعاقرة الخمور ، واضطهاد الضعفاء ، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية ومئات الشرور الأخرى » .

هذا ما جاء فى دائرة المعارف البريطانية نقلناه بنصه ؛ ونضيف إلى ذلك أن هذا النجاح الكبير الذى صادفه الرسول لم يتم إلا بتوفيق من الله تعالى وبوسائط إعلامية كثيرة مارسها الرسول ، وكانت من رسم القرآن الكريم ووحيه وتخطيطه فى أكثر الأحيان كما اتضح لنا ذلك فى الباب الأول من أبواب هذا الكتاب ، وكما سيتضح لنا كذلك فى فصول الباب الثانى .

وتحدثنا كتب السيرة أن هذه الدعوة سارت فى أربع مراحل بنوع خاص وهى :

١ ــ مرحلة الدعوة السرية .

٢ ــ مرحلة الدعوة العلنية .

٣ ــ مرحلة الاضطهاد الدينى فى مكة المكرمة .

٤ ــ مرحلة الهجرة .

٥ ــ مرحلة الاستقرار بالمدينة .

وبدأ النبي حياته بالمدينة بسياسة رشيدة لا نعلم لها نظيرا فى أى عصر من عصور التاريخ البشرى ، وقد بنيت هذه السياسة على أمرين :

الأول : حركة المؤاخاة بين المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، والأنصار الذين هم السكان الأصليون بالمدينة المنورة والذين استقبلوا النبي أروع استقبال كما سيأتى ذكر ذلك .

والثانى : حركة التعايش السلمى بين المسلمين واليهود المقيمين بالمدينة .

وفى المدينة وبعد الاستقرار الذى أتى عقب الهجرة بدأت الغزوات أو الحروب التى دارت بين الرسول وأهل مكة ، ومن أهمها غزوة بدر، وغزوة أحد وغزوة الأحزاب (أو الخندق) وفتح مكة وغزوة حنين ، وهى غزوات كان لا بد منها للمحافظة على الإسلام نفسه ، فلولاها لاستطاع المشركون فى مكة أن يئدوا الإسلام فى مهده .

غير أن الحديث عن هذه المراحل التى مرت بها الدعوة إنما يهم المؤرخين وكتاب السيرة بنوع خاص ، أما نحن فسننظر إلى هذه السيرة المحمدية من الزاوية الإعلامية ، أو بعبارة أخرى ننظر فى وسائل الاتصال أو الإعلام التى مارسها الرسول فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وذلك بهدف واحد هو نشر الدعوة الإسلامية .

المرحلة السرية :

لم يؤذن لرسول الله أن يجهر بدعوته فى هذه المرحلة القصيرة وفيها لم يكن عمل القرآن إلا إعلام الرسول نفسه بأنه مكلف من قبل الله تعالى بأداء رسالة من الله ، وذلك منذ نزل عليه ﷺ قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » .

ومنذ ذلك الوقت علم محمد أنه مكلف بالرسالة .

ووصفت لنا كتب السيرة حالة الذعر والاضطراب التى كان يشعر بها الرسول منذ نزول هذه السورة ، وتحكى لنا كتب السيرة أيضاً كيف

رجع إلى زوجته خديجة وهو يقول لها : « زملونى دثرونى » لها وبقى على هذه الحال حتى أفاق من نومه ورجع الى حالته الطبيعية .

ثم نزل عليه قوله تعالى :

« يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر » .

وقد سبق لنا أن شرحنا هذه السورة فى فصل من فصول الباب الأول بعنوان « الاتصال المباشر » من وسائط الإعلام التى مارسها النبى ﷺ .

وإذ ذاك علم الرسول أنه مكلف من قبل الله تعالى بإعلام الناس بهذه الرسالة وتنبيههم إليها ، وكان من الأمور الطبيعية أن يكون هذا الإعلام فى أول الأمر على نطاق ضيق — أعنى نطاق الأسرة ونطاق الأصدقاء الخلصاء — ولذلك وجدنا أن أول من آمن بهذه الدعوة السيدة خديجة من النساء ، وعلى ابن أبى طالب من الصبيان ، وأبو بكر من الرجال .

ومهما يكن من شىء فقد كان لرسول الله فى هذه المرحلة السرية وسيلتان من وسائل الاتصال أو الإعلام وهما :

١ — وسيلة القرآن الكريم .

٢ — وسيلة المؤمنين الأولين .

أما وسيلة القرآن الكريم فقد تحدثنا عنها ، وأما وسيلة المؤمنين الأولين فهم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى :

« والسابقون السابقون * أولئك المقربون » وهم دعاة الإسلام الحقيقيون فى هذه المرحلة السرية من مراحل الدعوة ، ومن أشهرهم السيدة خديجة زوجة الرسول وأبو بكر الصديق الحميم وعلى بن أبى طالب ابن عم الرسول وزيد بن حارثة عتيقه ﷺ . ووقف إلى جانب هؤلاء رجال كثيرون ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وبلال الحبشى ، وياسر (غلام السيدة خديجة) وزوجة ياسر واسمها سمية .

ثم كان من السابقين الأولين ، عبد الله بن مسعود وابن أبى الأرقم المخزومى ، وكانت دار هذا الأخير – وهو ابن أبى الأرقم – مركزاً للنشاط السرى الذى كان يبذله الرسول من أجل الدعوة وذلك خلال سنوات أربع منذ البعثة النبوية ، حتى ليمكن أن يقال أنه فى السنوات الثلاث الأولى من هذه الفترة بلغ عدد الذين دخلوا الإسلام أربعين رجلا وامرأة .

وفى السنة السادسة دخل الإسلام حمزة عم النبى وأخوه فى الرضاع وعمر بن الخطاب وبه قوى ساعد المسلمين كما اعترف بذلك الرسول ، وقد بذل الجميع أقصى الجهود فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية بهذه الطريقة السرية وكانت وسيلتهم فى كل ذلك (القدوة الحسنة) التى سبق أن قلنا أنها كانت من أقوى وسائط الإعلام فى الإسلام ، وضربنا عليها المثل بأبى بكر الذى دخل معه فى الإسلام هؤلاء الذين ذكرناهم عندما أشرنا إلى عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ... إلخ .

فقد أسلموا جميعاً على يد أبى بكر الصديق ، وكانوا جميعاً من السادة المعروفين فى الجاهلية .

أما العبيد فقد اشترى أبو بكر عدداً كبيراً منهم بالأثمان الباهظة التى طلبها سادتهم ثم أعتقهم جميعاً بعد ذلك ، ودعاهم إلى دخول الإسلام فدخلوا طائعين مطمئنين .

كل ذلك وأهل مكة من كفار قريش لا يحسون بحركات الرسول أو على الأقل – لايعبأون بها ولايقدرون نتائجها ، وبالفعل لو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الأمر على قريش ، ولما التفت عبدة الأصنام إلى هذا الخطر الداهم الذى يكمن وراء هذه الدعوة السرية مهما كان عدد الرجال المشتغلين بها ؛ ومهما كانت أقدار هؤلاء الرجال المنتمين إليها .

لقد كان من وراء كل رجل من أولئك الرجال الذين بادروا إلى قبول

الدعوة قصة عجيبة من القصص التى عنيت بها كتب السيرة ، ولكن البحث فى الدعوة الإسلامية من الزاوية الإعلامية لا يعطينا الفرصة لإيراد هذه القصص الواقعية التى تقترن بكل شخصية من هذه الشخصيات الإسلامية القوية التى كانت من الشجاعة والجرأة بحيث تركت ما كان يعبد آباؤها من الأصنام واستهانت بهذا التراث الضخم من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ، ومئات الشرور الأخرى كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية .

* * *

الفصل الثانى
المرحلة العلنية

بقيت دعوة الإسلام تسرى فى النفوس بقوة القرآن وشخصية الرسول ؛ وكل ذلك فى نطاق سرى حتى نزلت على الرسول سورة من السور المكية وفيها قوله تعالى :

« وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »(١) .

وإذ ذاك علم الرسول أن الله تعالى يأمره بتوسيع رقعة الدعوة بعض الشىء ، ففى هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى بأن يخرج الرسول من نطاق الدعوة السرية إلى نطاق الدعوة العلنية .

وينظر رجل الإعلام فى هذه المرحلة فيجد أنه قد أضيفت إلى الوسيلتين السابقتين من وسائل الإعلام فى المرحلة السرية — وهما وسيلة القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين — وسيلتان أخريان وهما :

١ — وسيلة الخطبة النبوية .

٢ — وسيلة الاتصال المباشر بجماهير الناس ، وذلك بأن يعرض ﷺ نفسه على القبائل العربية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الثورة .

وبالوسيلة الأولى من وسائل الإعلام فى المرحلة العلنية وهى وسيلة الخطبة النبوية ألقى النبى ﷺ البيان الأول لهذه الثورة — فقد صعد رسول الله ﷺ يوماً جبل (الصفا) ونادى بأعلى صوته : يا معشر قريش — قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألونه ماذا يريد ؟ فقال الرسول الأعظم : هل سمعتمونى ذات يوم أقول كذباً ؟ فأجاب الحاضرون بصوت واحد :

---

(١) سوره الشعراء الآيتان ٢١٤ ، ٢١٥ .

لا... لم نعرف منك غير الصدق ؛ ثم سألهم الرسول: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل — أكنتم تصدقونني ؟ فقال الجميع : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط .

هنا استجمع الرسول الصادق الأمين كل قوته وقال لهم :

فإنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد. ثم صاح بأعلى صوته وقال :

يا بنى عبد المطلب   يا بنى عبد مناف   يا بنى زهرة

يا بنى تميم   يا بنى مخزوم   يا بنى أسد

إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا « لا إله إلا الله » .

ثم أكمل بيانه هذا بأن دعاهم إلى نبذ الوثنية ، واجتناب الفواحش والإيمان بوحدانية الله وانتهاج سبيل الخير .

وذلك هو البيان الأول — كما قلنا للثورة الجديدة — بلغة العصر الذى نعيش فيه .

فيالها من دعوة خطيرة اهتزت لها أرجاء مكة ، وأشعل بها الرسول أول شعلة أضاءت ظلمات الجاهلية ، ولكنها بعثت الحقد والغيظ والكمد والغيرة فى نفوس القرشيين — وخاصة الزعماء منهم — وكلهم أقرباء الرسول وعشيرته، وكان أكثرهم حقداً عليه عمه (أبو لهب) وزوجته .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت الخطبة النبوية من أقوى أسباب الدعوة الإسلامية ، ومما لا شك فيه أن هذه الخطبة الأولى أو البيان الأول للثورة قد تبعته خطب كثيرة دعت إليها الظروف الجديدة — كما دعا إليها وقع البيان الأول على نفوس القرشيين ، وقد أخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضاً عن هذه الدعوة الجديدة وعن الأسباب التى حملت محمداً للجهر بها من دونهم وعن الغاية التى يهدف إليها من وراء ذلك ؟ فهل يهدف إلى نوع من السيطرة عليهم فى مكة المكرمة ثم فيما حولها من المدن الأخرى ؟

أم هـــل يريد أن يستكثر من الأنصار والأتباع لغرض آخر من الأغراض الدنيوية التى يعرفونها فى حياتهم ؟

مما لاشك فيه أن الناس انقسموا فى أمره قسمين فمنهم من استنكر نداءه وأيقن فى نفسه أنه سيرجع عن هذا النداء فى أقرب الأوقات وهم الأكثرية ، ومنهم من أحس لبيانه وقعاً جميلا فى أعماق نفسه ولكنه خشى أن يجاهر فى قومه بهذا الشعور .

ولذلك تتابعت خطب النبى فى هذه المرحلة ، وتتابع نزول الوحى الذى رسم له سبيلها وخطتها ، ومن ذلك قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

وهكذا رسمت هذه الآية الكريمة للرسول العظيم طرق الدعوة العلنية وهو فى مكة المكرمة ، وهى طريق الحكمة أو استخدام العقل فى أكمل صوره ، وطريق الموعظة الحسنة أو إبداء النصح بإخلاص وصدق ، وفى شىء كثير من إظهار الحب والمودة .

وطريق الجدل بالتى هى أحسن أو التحدث إلى القوم بالحسنى ، وذلك فى يسر وهدوء وبتقديم البراهين والأدلة . وقد سار الرسول فى دعوته على هذا النهج ، واستمال إليه قلوب العرب حتى استجاب له الكثيرون منهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل العربية

أما الذريعة الأخرى من ذرائع الإعلام فى هذه المرحلة العلنية فهى ذريعة الاتصال الشخصى المباشر بالعرب المقصودين بهذه الدعوة .

وبعبارة أخرى ، هى عرض الرسول نفسه على القبائل العربية .

وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الوسيلة من وسائل الإعلام فى صدر الإسلام وذلك فى الباب الأول ، ولاشك أنها كانت من أخطر الذرائع الإعلامية فى عصر تفشت فيه الأمية ، وانعدمت فيه وسائل الإعلام بالمعنى الذى نفهمه فى العصور الحديثة .

ومما لاشك فيه أن الاتصال المباشر بالناس كان ميسوراً فى ذاته إبان العصور القديمة كلها ، وذلك لقلة الناس من حيث العدد وإن قلت طرق المواصلات التى كان فى استطاعتها أن تساعد على هذا الاتصال الشخصى .

لم يكن فى مكة مطبعة تخرج كتاباً ولا صحيفة ولا مذياع ينشر أخباراً أو بيانات ، لـكن كان بمكة رواة ينقلون الأشعار والأخبار من مكة إلى كل مكان ، وكان بها منادون لا يكادون يبرحون الأسواق العامة . وبالرغم من جميع هذه الصعوبات المادية ، فقد وجدنا الرسول يشق على نفسه كثيراً فى ممارسة هذه الذريعة التى لابد منها من ذرائع الإعلان والاتصال بالناس ، فـكان يذهب إليهم فى أماكنهم ، وكان يلتقى ببعضهم فى موسم الحج ، ولذلك لقى الرسول من هذه الذريعة الأخيرة من ذرائع الإعلام ، وهى ذريعة الاتصال الشخصى ، كل عنت وإيذاء ومشقة وذلك إلى الدرجة التى هى فوق طاقة البشر .

فـكر الرسول ذات يوم فى الذهاب بنفسه — كما سبق أن ذكرنا ذلك — إلى ثقيف بالطائف ، وذلك ليعرض نفسه عليهم فما كان من آل ثقيف إلا أن أساءوا استقباله وعاملوه أسوأ معاملة ، وبالغوا فى ذلك أقصى درجات المبالغة .

وإلى ذلك الوقت كان يقف وراء النبى يسانده زوجته خديجة وعمه أبو طالب ، وكان العرب يخشون هاتين الشخصيتين الـكبيرتين ويعملون لهما حساباً كبيراً — فلما ماتا هان محمد على العرب ، وظهر ذلك فى حادث الطائف الذى مر ذكره ومع ذلك فإن ثقة النبى فى ربه وفى نفسه لم تهن ولم تتزعزع .

خرج النبى إلى الطائف لعله يجد فيهم من يستجيب لدعوته وينصره على قومه وعشيرته ، ولم يكن يصحبه فى رحلته إلى الطائف أحد من أصحابه ، والطائف مدينة صغيرة حصينة على بعد سبعين ميلا من مكة تسكنها قبيلة ثقيف .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى هذه المدينة قصد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة هذه القبيلة فعرض عليهم الإسلام — ولـكن خاب فأله —

فقد أعاروه جميعاً أذناً صماء ، وأقام بينهم عشرة أيام يخطب الناس ويتلو عليهم رسالته ولا من مجيب .

وكان مما احتج به أهل ثقيف على الرسول أن قالوا له : أعجزت عن أن تقنع قومك برسالتك فجئت إلينا لتقنعنا بها ؟

ولما وصلت الأزمة بينه وبينهم إلى هذه الدرجة طلبوا منه أن يغادر الطائف ، وما كاد الرسول يهم بمغادرة المدينة حتى وجد أن أشرافها وسادتها قد أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به وقد اصطفوا على جانبي الطريق على مسافات طويلة فى داخل المدينة فلما مر من بينهم جعلوا يرشقونه بالحجارة حتى أصابت الحجارة رجليه وعقبيه وسال منه الدم ، وكان كلما اشتد نزيف دمه وأعياه التعب جلس يستريح بعض الشيء ، ولكنهم لم يتركوه بل كانوا يأمرونه بمتابعة السير .

إذ ذاك اتجه الرسول إلى بستان لعتبة بن ربيعة ، وجلس فى ظل شجرة وتحركت نفس عتبة شفقة عليه فبعث غلامه فقطف له شيئاً من عنب ، فلما وضع النبى يده فيه قال : باسم الله، ثم أكل . فنظر الغلام دهشاً ثم قال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ، فسأله الرسول عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصرانى من (نينوى) قال له : أمن قبيلة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله الغلام : ومايدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى ، فأكب الغلام على محمد يقبل رأسه ، ويديه وأسلم .

ثم مضى النبى فى رحلته والصبية والغلمان يتبعونه بالحجارة حتى وصل إلى شجرة يستظل بظلها ، وهناك اتجه إلى ربه قائلا :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

بهذه النفس الصافية الطيبة وبهذا الصبر الجميل والخلق الكريم قابل الرسول قسوة البشر ولم ييأس قط من رحمة الله ، ولا من نصره وتأييده :

وهذا مثال واحد فقط على ما كان يلقاه الرسول من عنت القبائل التى عرض نفسه عليها ، أو التى كان يمارس معها وسيلة من الوسائل الإعلامية التى هى من حق كل إنسان فى الوجود من يوم خلق آدم إلى اليوم — وهى وسيلة الاتصال المباشر .

على أن هذا وذاك يؤدى بنا إلى الحديث عن المرحلة التالية من مراحل الدعوة ونعنى بها مرحلة الاضطهاد الدينى .

* * *

الفصل الثالث
مرحلة الاضطهاد الديني

لا تعرف العظمة النفسية إلا فى أوقات المحن ، ولا يمتحن الكمال الخلق بشيء قدر ما يمتحن بالأزمات والمتاعب .

وقد مرت بالرسول مرحلة الاضطهاد الدينى بمكة المكرمة ليبلوه الله فى هذه العظمة النفسية والكمال الخلق ، ومن هنا كانت هذه المرحلة أعنف المراحل التى مرت فى حياته ﷺ ، ولكنه قابل هذه المرحلة العنيفة بالصبر وإن كان لشدة حرصه على إيمان القوم يظهر كل الحزن للمعاملة التى عاملوه بها ، والأقوال الجارحة التى وجهوها إليه ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بمايقولون » ويقول تعالى : « ولاتحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

وقوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعاً » .

أجل كان محمد يكافح بأسلحة كثيرة من أولها وأقواها (سلاح الإيمان) وإن أشد ما يحتاج إليه الداعية هو (الإيمان) بالدعوة التى جاء بها وحرص شديد على نجاحها وانتشارها ، ولم نسمع فى التاريخ بداع يعوزه الإيمان بدعوته والحرص على الغيرة على هذه الدعوة .

* * *

عجبت قريش من أن بعض العرب استجابوا لمحمد وخرجوا بذلك على إجماع أهل مكة وخذلوا بذلك هيبة القرشيين وتركوا ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم وآلت قريش على نفسها منذ ذلك الوقت على أن تعطى كل مافى وسعها للقضاء على هذه الدعوة فى مهدها ، وهكذا قضت سنة الله بأن يكون حملة الهداية الإنسانية معرضين دائماً لأقصى ألوان العذاب .

وذلك تصديقاً لقوله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

وكانت قريش تمارس هذا الاضطهاد والتعذيب مع النبى نفسه حيناً ومع أتباعه من الفقراء والمساكين حيناً آخر ، وفى ذات يوم كان الرسول ساجداً عند الكعبة فألقى أبو جهل على رقبته أحشاء ناقة مذبوحة، وتبع أبا جهل فى هذه الأعمال القبيحة غيره من أهل مكة. فكانوا يلقون فى طريق النبى بالقاذورات والأشواك ، وبالغ بعضهم فى إيذاء النبى حتى حاولوا أن يخنقوه بردائه حتى يموت، وكاد بالفعل أن يموت لولا أن أدركه أبو بكر الصديق .

أما أتباع الرسول من العبيد فقد عرضهم القرشيون لأقصى أنواع الإهانة والتعذيب ، ومن أولئك العبيد عبد اسمه (بلال) أمره مولاه فاستلقى على الرمل المتقد تحت الشمس المحرقة فى الصحراء ثم وضعت قطع ثقيلة من الحجارة على صدره وبقى على هذه الحال حتى أصبح مغشياً عليه وهو لايقول إلا كلمة « أحد ، أحد » ولايزيد عليها .

وبنفس هذه الطريقة بل بأقسى منها تولى القرشيون تعذيب عبد آخر من العبيد واسمه « ياسر » فقد شدت رجلاه إلى بعيرين ، ثم سيق البعيران فى اتجاهين متضادين ، ومع هذا وذاك فلم يفلح المكيون فى رد هؤلاء المسلمين المستضعفين عن هذا الدين الجديد، بل زادوا عليه ثباتاً وبه إيماناً واستمساكاً ، وإذ ذاك لم يجد القرشيون بداً من التفكير فى طريقة أخرى — ليس هناك ما هو أشد منها وأنكى — وهذه الطريقة هى (مقاطعة) النبى وأصحابه. وكتبوا بذلك صحيفة وأعلنوا فيها إجماعهم على المقاطعة وفيها — أى فى هذه الصحيفة التى علقوها على أستار الكعبة أنهم لايبيعون للمسلمين ولا يبتاعون منهم شيئا ، وأنهم لايزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، وأنهم يحرمونهم من وصول الأطعمة إليهم . فأما تعليقهم هذه الصحيفة المشئومة على أستار الكعبة فكان الغرض منه أن تكتسب صفة القدسية .

ومع ذلك فحتى هذه الطريقة الوحشية فى المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية لم تفلح فى زعزعة المسلمين عن دينهم ، وتركهم لرسولهم فى هذه الفترة الحرجة من فترات حياته .

إذ ذاك فكرت قريش فى العدول عن هذه المقاطعة وذهبت تنزع الصحيفة من الكعبة ، فإذا بها قد أكلتها الأرضة ولم يبق من ألفاظها إلا لفظ باسمك اللهم .

فى تلك المرحلة العصيبة من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن فى وسع النبى والمسلمين أن يسلكوا فى سبيل دعوتهم وسيلة من وسائل الإعلام المعروفة غير (الوسائل السلبية) .

وذلك أننا يجب أن ننظر إلى مواقف المسلمين الرائعة فى الثبات على دينهم وعقيدتهم ، وهى العقيدة التى تغلغلت فى أعماق قلوبهم إلى الحد الذى أيأس منهم الكفار والمشركين .

وبهذه الطريقة السلبية التى ثبت عليها النبى والمسلمون المضطهدون استطاع هؤلاء أن يكونوا أشبه شىء بناقوس كبير يهدد الكفار والمشركين ويوقظ ضمير الإنسانية فى كل مكان ، ويشعر المكيين بأنهم أجرموا فى حق المسلمين المستضعفين وبأنهم مهما قسوا عليهم فلن يتركوا دينهم ولن يخذلوا نبيهم ، ولن يفرطوا فى عقيدتهم ، وفى هذا درس لهم وإعلام كبير بالرسالة التى نزلت على رجل منهم ، وإعلان عظيم عن هذه الرسالة التى أتى بها .

وهكذا خلت مرحلة الاضطهاد الدينى من أكثر الوسائل الإيجابية فيما خلا القرآن والحديث ، ولكنها لم تخل من الوسائل السلبية التى أثبت الزمن أنها لاتقل مطلقاً عن الوسائل الإيجابية من حيث القوة .

وقريب من هذه الوسائل السلبية فى العصر الحديث إضراب زعيم منفى أو طائفة من العمال والنساء عن الطعام حتى يحدثوا بهذا الإضراب تنبيها قويا لمصادر السلطة كالحكومة وغيرها — وذلك حتى تستجيب هذه المصادر للمطالب التى وقع الإضراب عن الطعام بسببها .

وماذا فعل الزعيم سعد زغلول فى الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ حين نفاه الإنجليز أكثر من مرة فى جزيرة سيشل أو فى مالطة ؟ ثم ماذا فعل الزعيم غاندى بعد ذلك حين قاوم إنجلترا القوية بجيوشها وأساطيلها بالأسلحة السلبية .

إن التاريخ حافل بالأمثلة التى تدل على هـذه الطرق السلبية من طرق الإعلام ؟

وعلى مقدرتها على القيام بوظائفها الإعلامية بنفس القدرة التى للطرق الإيجابية بل ربما زادت عنها .

* * *

غير أن الرسول نفسه كان فى مرحلة الاضطهاد الدينى من مراحل الدعوة مستمراً فى نفس الطرق التى كان يسلكها فى المرحلة السابقة ، ومنها ، أى من هذه الطرق ، طريقة الاتصال الشخصى والجمعى المباشرة وأكثر ما كان ذلك فى موسم الحج من كل سنة .

وقد عرفنا فى الباب الأول من أبواب الكتاب كيف أنه بطريق الحج اكتسب الإسلام شعبية أخذت تكبر مع الأيام شيئا فشيئا ، فقد كان الناس يتحدثون فى الحج بما يجرى للرسول وأصحابه ويتسامعون بأخلاقه ، وبما امتازوا به من الصبر والثبات على دينهم وماتحملوه فى سبيل المحافظة على عقيدتهم ، وكانت هذه الأحاديث التى يتهامسون بها تثير فى أعماق نفوسهم إعجاباً عميقاً وتقديراً عظيما للرسول وأصحابه .

وفى السنة العاشرة للبعثة النبوية التقى الرسول فى موسم الحج بعدد من أهل يثرب من قبيلة الخزرج وعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم ستة ، أغراهم بذلك أنهم مجاورون لليهود فى يثرب (الاسم القديم للمدينة) وقد حدثهم اليهود عن ظهور دين جديد مذكور عندهم فى التوراة ونبى جديد ذكر عندهم أيضا ، فلما رجع الستة إلى يثرب أشعلوها حماسة لهذا الدين الجديد وملأوها حديثا عن هذا الرسول الجديد ، وهو الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وكان هذا كله إرهاصا للحركة العظيمة التى قام بها المسلمون بعد ذلك ، وهى حركة الهجرة .

الفصل الرابع
مرحلة الهجرة

بالغ المكيون فى اضطهاد الرسول وأتباعه كما رأينا ، فلم يجد الرسول وأصحابه بداً من التفكير فى الهجرة ، وكانت هذه الهجرة فى ذاتها على مرحلتين :

الأولى : هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة .

والثانية : هجرة الرسول نفسه ومعه أبو بكر إلى المدينة المنورة .

الهجرة إلى الحبشة

أشار الرسول على بعض أتباعه بالهجرة إلى بلاد الحبشة قائلا لهم : إن بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق فاذهبوا إليها حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

واستعد أول فوج من أتباع الرسول إلى الهجرة إلى تلك البلاد ، وكان هذا الفوج يتكون من أحد عشر رجلا ، منهم أربعة اصطحبوا زوجاتهم معهم ، ومن هؤلاء الأربعة عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول . وكان ذلك فى رجب من السنة الخامسة للدعوة ، وكان جعفر بن أبى طالب أحد الذين هاجروا إلى هناك ، وله خطبة رائعة خطبها بين يدى النجاشى رد فيها على الدعاية الخبيثة التى قام بها المكيون لإقناع النجاشى ببطلان الدعوة الإسلامية ، فقد بعثت قريش بنفر منها إلى النجاشى لهذا الغرض ، وأخذوا معهم الهدايا الكثيرة التى تقربوا بها إلى رجال الدين لكى يستخدموا نفوذهم إلى الملك ويقنعوه برد المهاجرين إلى مكة قائلين للملك إن هذا الدين الجديد يتعارض على حد سواء مع الوثنية ومع النصرانية فى وقت معاً .

فما كان من النجاشى إلا إن دعا المسلمين المهاجرين إلى الرد على هـ التهم التى نسبت إليهم .

لنستمع الآن إلى حجج الجانبين :

أرسل القرشيون وفدهم إلى النجاشى — ومنهم عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص — فقال هذا الأخير للنجاشى :

إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردوهم عليهم فهم أعلى بهم عينا (يريد أنهم أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلام عمرو بن العاص رأى من الحكمة ألا يسلم إليهم المهاجرين حتى يسمع كلامهم وحججهم ، فأرسل إلى هؤلاء المهاجرين واستدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل؟

فانتدب المهاجرون جعفر بن أبى طالب ليتحدث عنهم فقال :

« أيها الملك — كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . وكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وحرم ما حرم علينا ، وأحل ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ،

وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك . ثم تلا عليه بعض آيات من القرآن الكريم ، فتأثر النجاشى بهذا الحديث تأثراً عميقاً ، ثم قال للوفد الذى حضر من مكة :

« إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة — انطلقوا والله لا أسلمهم إليكم أبداً . . »

وهكذا تغلب الإعلام الإسلامى الصحيح على الدعاية الوثنية الخبيثة فى حضرة النجاشى .

ضاقت صدور المشركين بمحمد ، وبلغ بهم الضيق غاية ليست وراءها غاية ، وأجمع رأيهم على أن يطلقوا آخر سهم من سهام جعبتهم ، فاجتمع زعماؤهم فى (دار الندوة) قريباً من الكعبة ، وكان من بينهم أبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وخالد بن الوليد والحكم بن أبي العاص وغيرهم من سادة قريش ، وأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فقال أحدهم : أما آن لنا أن نتخلص من محمد ؟ لقد كنا نعمل حسابا لعمه أبي طالب وقد مات ، وكنـــا نعمل حساباً لزوجته خديجة ولقومها ، وقد ماتت ، ومن هنا بدأت المقترحات الكثيرة للتخلص من محمد .

فأما أحدهم فيقترح أن يقيدوا محمداً بسلاسل وأغلال ، ويحبسوه حتى يموت ، وأما الثانى فيقترح أن ينفى محمد من الأرض فتستريح منه قريش على الأقل ، وأما الثالث فيقترح قتله بالسيف ، ويناقش القوم كل هذه المقترحات فلا يقتنع العقلاء منهم بواحد منها .

وأخيراً يجمعون الرأى على أن ينتدب من كل قبيلة من القبائل واحد يمثلها ثم يشترك جميع الممثلين لهذه القبائل فى جريمة القتل ، وبذلك يتفرق دم محمد بين القبائل العربية ، ويستريحون منه .

ووقف عقبة بن أبي معيط ممثلا لبنى عبد شمس ، ووقف النضر بن

الحارث ممثلا لبنى عبد الدار ، ووقف أمية بن خلف نائبا عن جمح ، ووقف أبو لهب نائباً عن بنى هاشم ، وحضر القوم الليلة التى يقفون فيها لتنفيذ هذه الخطة وذهبوا إلى دار النبى وأحاطوا بها من كل جانب ، ولكن الله أحبط هذه المؤامرة كما هو معروف فى سيرة النبى ﷺ ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »(١) .

وفى تلك الليلة أمر الله تعالى الرسول الكريم بالخروج من بيته ، فخرج ومعه رجل واحد من أصحابه هو أبو بكر ، وخرج الرجلان من مكة وواصلا سيرهما إلى الغار ، ثم مضيا فى طريقهما حتى اقتربا من المدينة .

واستقبل أهل المدينة الرسول وصاحبه استقبالا حسنا ، وبالغوا فى الاحتفاء بهما ، وبذلك نجا الرسول من كيد قريش ، ونزل قوله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

ومنذ اللحظة الأولى من استقرار الرسول بالمدينة قام بحركة من أروع ما عرفه التاريخ البشرى ، وهى حركة التآخى بين المهاجرين والأنصار ، فقد كان المهاجرون قبل مجيئهم إلى المدينة يحيون فى مكة فى رغد من العيش ، ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى التخلى عن ثرواتهم وممتلكاتهم ، وآثروا الفرار بدينهم إلى المدينة ، ولذلك عقد الرسول بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة الأصليين نوعاً من الأخوة التى قلنا إن التاريخ لم يعرف لها نظيرا قبل ذلك ولم يعرف لها شبيها ، وإلى يومنا هذا ، فقد آوى كل واحد

---

(١) أى ليقيدوك بالأغلال والسلاسل

من الأنصار أخاً له من المهاجرين ، وشاطره ماله وقاسمه بيته ومتاعه ، حتى أن ممتلكات الأنصارى كانت إذا ما توفاه الله لا يرثها أخوه من أبيه ، بل يرثها أخوه المهاجر ، وبقى القوم على ذلك حتى حظر القرآن هذا النوع من الإرث ، وأوصى بأن ينتقل الميراث بالطريق الطبيعى إلى ذوى الأرحام قال تعالى :

(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم) .

وكان الأنصار أصحاب زراعة والمهاجرون أصحاب تجارة ، فحين عرض أنصارى على أخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف أن يأخذ نصف ممتلكاته شكر عبد الرحمن لأخيه الأنصارى ذلك وسأله أن يدله على سوق المدينة ، وفى السوق سعى عبد الرحمن فى اكتساب الرزق عن طريق التجارة ، وما هى إلا فترة يسيرة حتى أثرى ثراء عظيما ، وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى هذا الميدان الذى يتفق وطبيعتهم التجارية .

ومن المهاجرين والأنصار فى المدينة انبعث عصبة المبشرين بهذا الدين وجماعة المعلمين الدينيين الذين حملوا مشعل الديانة الإسلامية إلى شتى أنحاء الجزيرة العربية ونجحوا فى أداء مهمتهم نجاحاً منقطع النظير .

والحق أن الهجرة فى ذاتها كانت وسيلة من أبلغ وسائل الإعلام فى الإسلام ، ذلك أن مجرد خروج المسلمين من بلد كانوا فيه منذ النشأة يخلق تساؤلا كبيراً فى المجتمع الذى فيه تزييف وتشويه لأخبار هذا الدين الجديد وذلك بفعل المشركين — وهو مجتمع مكة ،

وقد جعلت هذه الهجرة أهل مكة برغم هذا التزييف والتشويه يشعرون فى داخل نفوسهم بأنه ما لم يكن هؤلاء المهاجرون على حق لما تركوا أموالهم وأهليهم وممتلكاتهم ووطنهم الذى نشئوا فيه ، فلا بد إذن أن يكون الذى دعاهم إلى هذه التضحيات الجسيمة هو الحق والحق وحده . ثم إن هجرة المهاجرين خلفت فراغاً مادياً كبيرا فى مكة ولفت هذا الفراغ الكبير أنظار

المكيين للتغيرات التى حدثت فى مجتمعهم ، ومن أهمها بطبيعة الحال ظهور هذا الدين الجديد . . ذلك ما حدث فى مكة . أما ماحدث فى المدينة فأعظم وأعجب . فإن وجود عناصر مكية جديدة فى المدينة لا بد أنه قد استرعى انتباه جميع من فيها ، وفى ذلك إعلان كبير من هؤلاء المهاجرين عن هذا الدين ، ثم جاءت حركة التآخى بين الأنصار والمهاجرين دليلا مادياً على نجاح هذه الوسيلة الإعلامية الكبيرة — وهى الهجرة من مكة إلى المدينة .

ومن الجدير بالتنويه أن الله تعالى صور الهجرة نفسها فى الآية الكريمة التى ذكرها « إلا تنصروه فقد نصره الله » . . إلخ بأنها انتصار للنبى ﷺ الأعزل من السلاح والعتاد على الكفار المزودين بالسلاح والعتاد ، وذلك فى وقت كان فيه النبى فى أحرج ساعة من ساعات حياته ، وخاصة حين وجد نفسه هو وصاحبه محبوسين فى الغار ، والمشركون بخيلهم ورجلهم على باب هـــذا الغار ، بينهم وبين أن يقتلوهما أن يدخلوا هذا الباب .

الحق — لقد كانت الهجرة التى قام بها الرسول وأتباعه ثورة على الفساد فى جميع أشكاله ، ثورة على الطغيان فى الحكم والإجحاف بالحقوق. ثورة على العبودية وتحكم الأقوياء فى الضعفاء ، ثورة على فجور الجاهلية ، وحياتها المبنية على الشر ، ثورة على العصبية القبلية فى نهاية الأمر ، فلا وثنية ، ولا إباحية ، ولا كسروية أو قيصرية ، ولكن حب وإخاء ومساواة وعـــدل وحرية وأخلاق إسلامية ، وسمو بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات .

وباختصار شديد.. لقد كانت الهجرة فى ذاتها حركة إعلامية كبيرة قل أن يكون لها نظير فى التاريخ ، وحسبها ذلك لتكون فى الوقت نفسه ذريعة من أكبر ذرائع الإعلام فى نشأة الإسلام ، وعلى يد صاحب الدعوة الاسلامية الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه .

الفصل الخامس
مرحلة الاستقرار بالمدينة

استقر الرسول بالمدينة ، وبها بدأ — صلى الله عليه وسلم — صفحة جديدة من صفحاته المجيدة سوف لا ننظر فيها على أنها صفحة من كتاب فى التاريخ ، أو كتاب فى الدين ، أو كتاب فى الأدب ، أو كتاب فى الأخلاق ، أو كتاب فى فن الحرب . فقد قال كل واحد من رجال التاريخ والدين والأدب والأخلاق والحرب كلمته فى هذه الصفحة وبقيت كلمة رجل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس ، وهو ما نحاول أن نتعرض له بإيجاز فى هذا الفصل .

والحقيقة التى لا ينبغى إنكارها بحال من الأحوال أنه بقدر ما ضاقت رسائل الإعلامية الإيجابية للإعلام فى فترة الاضطهاد الدينى — أو فى العهد المكى المتأخر — اتسعت أمام الرسول مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ، ويمكن أن نشير من هذه الطرق إلى ما يلى :

١ — طريقة الأذان لإقامة الصلاة .

٢ — إقامة العلاقات الودية بين الرسول واليهود فى داخل المدينة بقصد التعايش السلمى بينهم وبين المسلمين .

٣ — إقامة العلاقات الودية كذلك بين الرسول والقبائل العربية المجاورة للمدينة وذلك تأميناً للمسلمين فى داخل المدينة ، وتمهيداً لدخول الإسلام فى هذه القبائل .

٤ — اتخاذ الاحتياطيات الإعلامية التى لا بد منها فى ظروف الحرب ، كالأرصاد والعيون التى تأتى الرسول بأخبار العدو .

٥ — بعثات الرسول إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام وهى حركة إعلامية لا توازنها فى مجال الإعلام إلا حركة الهجرة .

٦ — استقبال الرسول للوفود العربية التى وفدت عليه بالمدينة لكى تسلم على يديه وكان النبى يبعث مع كل وفد من هذه الوفود بالقراء والمعلمين الذين يفقهونهم فى الدين ويفسرون لهم بعض آيات القرآن الكريم .

٧ — التهامس بين الناس فى أخبار الرسول وأخبار هذا الدين الجديد وأوضح ما كان ذلك فى حادث الهجرة وفى فترات الصلح بين المسلمين والمشركين كما كان الأمر فى صلح (الحديبية) ، وسنشرح ذلك فيما بعد .

٨ — غزوات النبى باعتبارها إعلاناً كبيراً عن الإسلام . فقد أمسك النبى بالقرآن فى إحدى يديه ، وأمسك بالسيف — كما أمره القرآن الكريم — فى يده الأخرى .

٩ — سرايا النبى وبعوثه الحربية إلى تخوم الروم تأميناً لحدود المسلمين بالمدينة من جهة ، وإنذاراً لأعداء الإسلام من العرب وغيرهم بقوة هذا الدين الجديد وهيبته حتى لا يفكروا فى الإغارة على حدوده .

وهذا كله فضلا عن الخطب النبوية التى سنخصها بفصل من فصول هذا الباب ، وفضلا عن حركة (الإخاء) التى بدأ بها النبى ﷺ حياته بمقره الجديد وهو المدينة المنورة ، وقد تحدثنا عنها .

* * *

وقد سبق لنا فى الباب الأول من أبواب هذا الكتاب أن شرحنا ماعرفه الإسلام من وسائل الاتصال بالناس ، وأتينا ببعض المعلومات التى تعين على فهم ما يبقى من هذه الوسائل .

وقفنا عند القرآن الكريم بوصفه أكبر هذه الوسائل على الإطلاق ، وكذلك منذ بداية الرسالة المحمدية إلى نهايتها .

ووقفنا عند الأحاديث النبوية بوصفها قوة دعائية وإعلامية ليس هناك أعظم منها فى حياة الرسول ﷺ وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة العصور الإسلامية التى تلتها لى يومنا هذا ، والسبب فى ذلك أن أبرز صفة من صفات الرسول هى قدرته على التأثير فى الغير ، وقد كانت هذه الصفة تشكل أكبر خطر واجهه المشركون فى مكة .

ولهذا السبب الأخير عرضنا (للاتصال الشخصى والجمعى) بوصفه من أنجح وسائل الإعلام فى عهد الرسول ، وإليه يرجع الفضل الكبير إقناع العرب بدخول هذا الدين .

ووقفنا كذلك عند (القدوة الحسنة) بوصفها من أنجح طرق التربية والإعلام ، وهى الطريقة التى أحسنها الرسول والصحابة واكتسبوا بها عدداً كبيراً من الأصدقاء قوى بهم الإسلام وانتشر فى ربوع شبه الجزيرة .

وتحدثنا بإيجاز عن القصص غير القرآنى وما كان له من عظيم الأثر فى رفع الروح المعنوية عند المسلمين ولذلك سمح به عمر بن الخطاب على شىء من الحذر والتخوف ثم أذن عثمان بن عفان بدون شعور بالحذر أو التخوف ثم أصبح مادة لاغنى عنها لجميع الخلفاء والأمراء فى الإسلام بعد ذلك .

وبقى أن نتحدث فى الفصول التالية من فصول الباب الثانى عن هذه المجالات الجديدة التى مارسها الرسول فى حقل الإعلام ، وهى المجالات العشرة المتقدمة ، وليس معنى ذلك أن الإعلام فى عهد الرسول حصر نفسه فى هذه المجالات ، واحتفظ لنفسه بالمجالات السابقة التى مارسها الرسول قبل عهد الاستقرار ، ولكن معناه أن هذه المجالات العشرة — مضافاً إليها مجال الخطاب والأحاديث والقدوة الحسنة وغيرها — ليست إلا أمثلة من النشاط الإعلامى على يد الرسول فى عهد الاستقرار .

١

الأذان وإقامة صلاة الجمعة

كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة يجدون صعوبة كبيرة فى إقامة الصلاة على شكل جماعة ، فلما تمت الهجرة إلى المدينة أصبحوا أحراراً فى إقامة صلاة الجماعة ، وجلس الرسول وأصحابه يدرسون مختلف السبل التى يستطيعون بها إعلام المسلمين بمواقيت الصلاة ، وهى خمس صلوات فى اليوم والليلة ؛ وذلك عدا صلاة الجمعة وصلاة العيدين .

وفى الليلة السابقة لاجتماع النبي وأصحابه كان عمر بن الخطاب يرى فيما يرى النائم أن رجلا يردد قوله بصوت مرتفع : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، إلى آخر صيغة الأذان المعروفة ، وكان صحابي آخر قد رأى هذه الرؤيا ، فلم يسع الرسول ﷺ إلا الرضا بهذه الطريقة التي يعلن بها عن إقامة الصلاة ليقوم بها المسلمون فرادى أو جماعات .

وعلى هذه الصورة أذن (بلال) للصلاة من يوم الجمعة بالمدينة المنورة .

وهكذا أصبح الأذان وإقامة الصلاة أكبر إعلان للاسلام ، وإذا كان فن الاعلان فى ذاته قائماً قبل كل شيء على (التكرار) فما بالك بهذا الإعلان الاسلامى ، وهو يذكر الناس بهذا الدين خمس مرات فى اليوم والليلة ، وفى كل مرة منها يسمع المسلمون ويسمع غيرهم هذا النداء العظيم .

الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة . حى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر ، لا إله إلا الله .

إنه إعلان كبير للإسلام لفت أنظار الناس جميعاً فى المدينة ، ومنها انتشر فى بقية أجزاء شبه الجزيرة .

لقد قلنا فيما سبق أنه كان من وسائل الإعلام القديمة وسيلة (المنادى) وبالإسلام أضيفت إليها وسيلة من نوعها هى وسيلة (المؤذن) . وهو الذى ينادى على الناس لإقامة الصلاة فى مواقيتها . ولذا كانت هذه الوسيلة الأخيرة من خير ما وفق إليه محمد وأصحابه فى الإعلان عن الإسلام ، والإعلام بأن الصلاة ركن من أركانه .

٢

إقامة العلاقات الودية مع اليهود

وقد سبق لنا أن ربطنا هذا النوع من العلاقات بما يسميه رجل الإعلام فى العصر الذى نعيش فيه (بالعلاقات العامة) لأن الغاية من هذين النوعين واحدة ، وهى التعريف بشيء جديد يحرص رجل العلاقات أن يثبته فى ذهن الطرف الآخر .

وننظر فى سيرة الرسول ﷺ — فنجد أنه قد مارس هذا النوع من أنواع الإعلام وبذل فيه أكبر جهد ممكن .

نظر الرسول فإذا (المدينة) التى استقر بها تسكنها ثلاث عشائر يهودية كبيرة وهى :

١ — بنو النضير .

٢ — بنو قريظة .

٣ — بنو قينقاع .

وأما بقية سكان المدينة فكانت تتألف من قبيلتين هما :

١ — قبيلة الأوس .

٢ — قبيلة الخزرج .

وكانت الكثرة من هاتين القبيلتين قد دخلت فى الإسلام .

نظر الرسول فى هذا الكيان العربى الذى تألفت منه المدينة ، وفى الأجزاء التى يتألف منها هذا الكيان ، وإذ ذاك فكر أول ما فكر فى عقد (ميثاق) بين المسلمين واليهود وعرضه عليهم ، وكان هذا الميثاق يتألف من البنود الآتية :

١ — أن يتعايش المسلمون واليهود فى داخل المدينة وكأنهم أمة واحدة وهذا معبر عنه فى العصر الحديث بكلمة (التعايش السلمى) .

٢ — أن يلزم كل من الفريقين دينه وألا يتدخل فى دين الآخر .

٣ — يجب على كل من الفريقين فى حالة نشوب الحرب مع فريق ثالث أن يبادر لنصرة الآخر ، ولكن بشرط أن يكون الفريق المعتدى عليه مظلوماً وأن يكون الفريق المعتدى هو الظالم .

٤ — فى حالة الهجوم على المدينة نفسها يجب على الفريقين أن يتعاونا فى الدفاع عنها معاً .

٥ — على الفريقين أن يتشاورا فى الصلح إذا رغبا فيه .

٦ — ينظر الفريقان إلى المدينة على أنها بلد حرام لايحل فيه سفك الدماء .

٧ — فى حالة النزاع بين الفريقين يكون الرسول هو الحكم الأخير .

إن العمل على إنشاء مثل هذه العلاقات الودية يعتبر عملا سياسياً واجتماعياً وإعلامياً فى وقت واحد . وهو فى نظرنا عمل إعلامى من الدرجة الأولى ذلك أنه يهدف إلى التعايش السلمى على أحسن وجه ، وبه ينظر التاريخ إلى الرسول على أنه رجل ممتاز فى جميع هذه الميادين التى أشرنا إليها .

ولو صدقت نية اليهود تجاه (الميثاق) ولو درسوه دراسة بريئة من الحقد والهوى لأراحوا أنفسهم وأراحوا المسلمين معهم من عناء وعبث كبيرين ولعلموا علم اليقين أن هذا الدين الجديد دين سلام ووفاق ، وليس دين خصام وشقاق ، وأن التعايش السلمى فى ذاته من أسمى غايات هذا الدين ومن أوجب واجباته ، ولكن التاريخ أثبت أن اليهود بيتوا منذ اللحظة الأولى لنصوص هذا الميثاق سوء النية واشتركوا جميعاً فى إشعال نار الفتنة ، وشكلوا فى المدينة خطراً داخلياً لا يمكن النجاة منه إلا بأمر واحد فقط هو القضاء عليهم واستئصالهم وإطفاء هذه الفتنة ، وذلك ما وجد الرسول نفسه مضطرا إلى سلوكه معهم . كما سيتضح ذلك فيما بعد .

٣

العلاقات الودية
مع القبائل المجاورة

نظر الرسول وأصحابه كذلك فإذا هم محاطون بأعداء من كل جانب :

(أما من الداخل) فهناك عدوان خطيران هما اليهود من جانب ، و(عبد الله بن أبى) رأس المنافقين بالمدينة من جانب آخر .

(وأما من الخارج) فهناك قريش من جهة ، وهناك القبائل المجاور للمدينة من جهة ثانية ، وبذلك أصبح الرسول مهدداً بخطرين عظيمين هما : الهجوم عليه من خارج ، وخيانة اليهود له من الداخل ، وكلا الخطرين وشيك الوقوع فى كل لحظة .

وهذه الظروف هى التى دعت الرسول إلى إقامة علاقات ودية مع القبائل العربية المجاورة للمدينة على نحو ما أقام هذه العلاقات بينه وبين يهود المدينة ، ولذلك أخذ الرسول عهوداً ومواثيق على بعض هذه القبائل المجاورة ، من ذلك العهد الذى أخذه على (بنى حمزة) ، وقد نص هذا العهد على أن أرواحهم وممتلكاتهم ستكون فى أمان تام ، وإذا هاجمهم عدو سارع المسلمون لنصرتهم حتى يرجع العدو أدراجه .

ومرة أخرى نقول إنه عمل سياسى وإعلامى فى وقت معا ، فبدون هذه العهود ما كانت العرب لتعرف شيئاً له قيمته الإعلامية عن الرسول ولا عن الدين ، ولا عن الغاية التى من أجلها ظهر هذا الرسول بهذا الدين ، فهو لم يظهر فى العرب ليسفك دماءهم ويشتت رجالهم ويحدث الشقاق بين أعضاء العشيرة الواحدة كما زعمت قريش ، وكما قالت بذلك الدعاية السيئة التى نشرها القرشيون حول الرسول ولكن الله بعثه لغايات كريمة ، وأهداف سلمية وإصلاح لهذه الدنيا بعد أن فسدت واستحال صلاحها إلا عن هذا الطريق.

الاحتياطات الاعلامية والحرب

أمر الرسول من قبيل ربه بالحرب ، ولذلك حمل الرسول وأصحابه القرآن فى يد والسيف فى يد ، وفى أثناء الحروب تعرض الرسول لطائفة كثيرة من المحن امتحنه الله بها ، والساعات الحرجة والمواقف الممتازة التى عرف التاريخ قدره بها ، وقد كان من أخطر الأعداء الذين حاربوه صلى الله عليه وسلم عدوان كبيران هما اليهود من جانب وقريش من جانب آخر :

أما اليهود فقد كان الرسول قادراً عليهم ، يقظاً كل اليقظة لأدنى حركة من حركاتهم ، متفطناً لمؤامراتهم وتدابيرهم ، أما قريش فكانت هى الداهية الدهياء والعقبة الكأداء والمشكلة التى كادت تستعصى عن الحل ، لأنها كانت مصرة على اقتلاع جذور الإسلام بكل الطرق التى تملكها ، وزادت إصراراً على ذلك منذ نجح الرسول ﷺ فى الهجرة من مكة إلى المدينة .

من أجل ذلك كان لابد من وقوع الحرب بينها وبين الرسول : قريش تقوم دائماً بالهجوم ، والرسول يقوم دائماً بالدفاع ، ونزل قوله تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » .

وقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وعلى هذه القاعدة القرآنية — وهى قاعدة الدفاع وعدم الاعتداء — دخل الرسول ضد قريش ، واتخذ لنفسه بعض الاحتياطات الإعلامية منها :

أولا — حاول بطرق غير استفزازية أن يفهم قريشاً ويعلمها بهذه الحقيقة وهى أن المسلمين لا غنى لهم عن الحج ، وأن تجارة قريش تصبح فى خطر كبير إذا حاولت قريش أن تصدهم عن أداء هذه الفريضة .

ثانياً — تنظيم سرايا استعلامية تأتيه بمعلومات عن تحركات العدو .

ومنها — على سبيل المثال — سرية بقيادة عبد الله بن جحش ، وقد دفع الرسول إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيرته ، ثم يمضى

لمـــا أمر الرسول به ، ولا يستـكره من أصحابه أحداً ، فلما فتح عبد الله الكتاب ــ كما أمره الرسول ــ وجده يقول : إذا نظرت فى كتابى هذا فلتمض حتى تنزل (نخلة) فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم .

معنى هذا أن مهمة عبد الله بن جحش كانت مجرد إجراء وقائى ، وإعلامى خشية أن يأخذ العدو المسلمين على حين غرة .

غير أن عبد الله بن جحش ما كاد يصل إلى (نخلة) حتى خالف أمر الرسول وهجم على عير لقريش فى طريق عودتهم من الشام وقتل واحداً منهم ، ويعتبر هذا الحادث ــ بصرف النظر عما فيه من المخالفة لأمر النبى ــ من الحوادث العادية بين العرب ، لولا أن قريشاً كانت تظمأ إلى الدم وتتلهف على الحرب ، وتنتهز أتفه الأسباب لنشوب الحرب ، فكان ذلك من الأسباب التى مهدت (لغزوة بدر) .

ثالثاً ــ اعتماد الرسول على حملة الأخبار وهم الذين نسميهم فى العصر الذى نعيش فيه (مندوبى الأخبار) أو (المراسلين الحربيين) .

وفى صحيح مسلم (١) فى الكلام عن غزوة الخندق (أن بعض الصحابة قال : رأيتنا مع رسول الله ليلة الأحزاب « أو الخندق » وقد أخذتنا ريح شديد وقرة ، فقال رسول الله : ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة ؟ فسكتنا ولم يجب منا أحد ، ثم قال : ألا رجـــل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة ؟ فسكتنا ولم يجب منا أحـــد . ثم قال ﷺ : قم ياحذيفه فأتنا بخبر القوم ولا تذعرهم علىّ (٢)) .

قال حذيفة : فلم أجد بداً إذ دعانى رسول الله باسمى أن أقوم ، فلما وليت من عند رسول الله شعرت كأنما أمشى فى حمام . (يريد أن يقول

---

(١) الجزء ١٢ فى الـكلام عن غزوة الخندق .

(٢) يعـــنى ولا تسبب لهم ذعراً فيهجموا على بل حـــاول أن تأتيـــنى بأخبارهم دون أن تشعرهم بشىء .

أنه لم يشعر ببرد تلك الليلة كما كان يشعر به قبل خروجه من عند رسول الله بل عافاه الله من ذلك ببركه طاعته للنبي) ، ومضيت فى طريقى حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلى ظهره بالنار ، (وذلك من شدة البرد) ، فوضعت سهماً فى كبد القوس وأردت أن أرميه به : فتذكرت قول رسول الله ولا تذعرهم على ، ولو رميته لأصبته ، ورجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام ، فلما أتيت رسول الله أخبرته بخبر القوم وفرغت وقررت (أى عاد إلى الشعور بشدة البر) فألبسنى رسول الله من فضل عباءته التى كان يصلى بها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت » .

رابعاً — وأخرى ، من الوسائل التى عمد إليها الرسول فى مجاهدة قريش فى أثناء حربه معها وسيلة (الدعاية) أو خداع العدو .

ورد فى كتاب (صورة من حياة الرسول) (١) قوله : وكان ماصنع الله لرسول الله وللمؤمنين أن أتى (نعيم بن مسعود الأشجعى) إلى النبى ﷺ معلناً إسلامه قائلا له :

« يارسول الله إنى قد أسلمت . ولم يعلم قومى بإسلامى ، فرنى بماشئت» . فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت رجل واحد من غطفان ، فلو خرجت فخذل ما استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة (وهم عشائر اليهود فى المدينة كما ذكرنا) ، وكان نعيم ينادمهم فى الجاهلية فقال لهم :

« يابنى قريظة — لقد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم » .
قالوا : قل فلست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل (يريد النبى) ، ولا طاقة لكم

(١) تأليف أمين دويدار ص ٤٢٨ .

(بابنى قريظة) ، به ، فلا تقاتلوا مــع القوم (يريد مع قريش) حتى نأخذوا منهم رهناً من أشرافهم .

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى قريشاً فقال لهم :

« لقد عرفتم ودى لكم معشر قريش وفراقى محمداً ، وقد بلغنى أمر أرى من الحق أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا على » .

قالوا : نفعل ذلك .

قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمدا ، أرسلوا إليه ، إنا قد ندمنا على ما فعلنا . . إلخ ...

ثم أتى غطفان وقال مثل ذلك .

فلما كانت ليلة السبت — وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين - أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة فى المدينة (عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان) يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، فقد هلك الخف والحافر ، فاستعدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمداً » .

فأرسل إليهم بنو قريظة بالمدينة يقولون : « إن اليوم سبت ، وهو لا نعمل فيه شيئاً ، وقد علمتم ما قيل فيمن تعدى منا فى السبت . ومع ذلك فلا نقبل الحكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه » .

فلما رجع الرسل بذلك قالوا :

« صدق والله نعيم بن مسعود » وردوا إليهم يقولون : « والله لانعطيكم هذا أبدا . فاخرجوا معنا إن شئتم ، وإلا فلا عهد بيننا وبينكم » .

فقال بنو قريظة :

« صدق والله نعيم بن مسعود » .

وخذل الله بينهم واختلفت كلمتهم .

ترى معى أيها القارىء لهذا النص الأخير كيف أن رسول الله ﷺ عمد إلى الدعاية التى لابد منها فى وقت الحروب ، وهى الدعاية التى تهدف إلى إحداث التفرقة بين صفوف الأعداء ، وهى المقصود بقوله ﷺ لنعيم بن مسعود « فخذل عنا مااستطعت » أى أحدث بينهم تخذيلا وشعوراً بالهزيمة حتى لا يثق بعضهم فى بعض . وبذلك يتفرقون وتضعف قواهم وينصرنا الله عليهم . وهذا ما فعله نعيم بن مسعود حين مشى بين قريش وغطفان ويهود المدينة المنتمين إلى قبيلة بنى قريظة ، وكان بين هذه القبائل الثلاث تحالف قوى ضد النبى . وقد تنبه النبى إلى تمزيق هذا الحلف بالدعاية الحربية ونجح فى بلوغ هـــذه الغاية بتوفيق من الله تعالى وبذكاء نعيم ابن مسعود .

جاء فى كتاب (تيسير الوصول فى أحاديث الرسول) تأليف الشيبانى ما نصه :

« عن أسماء بنت زيد رضى الله عنه قالت : قال رسول الله ﷺ الكذب كله على ابن آدم حرام إلا فى ثلاث خصال : رجل كذب فى الحرب فإن الحرب خدعة » أخرجه الترمذى وأخرجه مسلم فى إحدى رواياته .

ثم إن من معانى الحديث النبوى : « خذل عنا ما استطعت » معنى يؤمن به نوابغ الحرب فى العصور الحديثة ، وهذا المعنى الأخير هو وجوب نشر روح الهزيمة فى معسكرات العدو ، والنظر إلى هذا العمل على أنه من أدوات النصر على هذا العدو .

يقول التاريخ : إن الإنجليز فى الحرب العالمية الأولى كانوا يسخرون الصحافة لحرب من هذا النوع ، وكان الصحفى الإنجليزى نوثكليف هو المنظم الحقيقى لهذه الدعاية وكـــان أسلوب هذا الصحفى يقوم على نشر روح الهزيمة فى داخل ألمانيا معتمداً فى ذلك على القاعدة التى تقول :

« إن روح الهزيمة إنما تبدأ أولا فى الجبهة الداخلية للعدو . (١) »

* * *

٤

بقى أن نسأل أنفسنا هذا السؤال :

ألم نقل فى التمهيد لهذا الباب أن الجهود التى بذلها الرسول فى سبيل نشر الدين لا يصح أن يطلق عليها غير اسم واحد فقط هو (الدعوة) ؟ وأما الدعاية فهى الاسم الذى أطلق على جميع الجهود التى بذلها الخلفاء المسلمون منذ معاوية بن أبى سفيان إلى الآن ؟

بلى — قلنا ذلك : ونحن مصرون على ما قلناه .

أما هذه الواقعة التى وقعت للرسول مع نعيم بن مسعود فإنها لا تهدم هذا الحكم الذى حكمنا به على جهود الرسول ، و تغير الاسم الذى أطلقناه على هذه الجهود ، وهو (الدعوة) . وذلك لأسباب منها :

أولا : إن هذه الواقعة فريدة من نوعها فى حياة الرسول ، ولم يقع من نوعها الشيء الكثير .

ثانياً : إن هذه الحيلة استخدمت فى ظروف الحرب ، والحرب فى كل مكان وزمان إنما تقوم على الحيلة والمكيدة والمكر والخديعة ، وما ينبغى أن تخلو حياة الرسول من كل ذلك عند الضرورة وإلا استهان به الأعداء وتغفلوه — صلى الله عليه وسلم — وأكلوه لقمة سائغة .

ثالثاً : إن الرسول واحد أمام أعداء كثيرين وأنه أقل من أحدهم عدداً وعدة فلا بد له أن يحمى نفسه بكل الوسائل الممكنة ، ومنها وسيلة المكيدة .

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، كتاب : الإعلام والدعاية ، الطبعة الأولى ص ١٦١ .

٥

بعثات الرسول إلى الأمراء والملوك

حدثتنا كتب السيرة أن الرسول عاد من صلح (الحديبية) فدعا المسلمين إلى اجتماع عام أوضح لهم فيه أن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وأن العرب ليسوا هم المقصودين وحدهم بهذا الدين، وأن الوقت قد حان لحمل الرسالة الإسلامية إلى جهات أخرى فى داخل بلاد العرب وفى خارجها، وأنه يجب البدء بالملوك والأمراء المجاورين لهم ومنهم يومئذ : قيصر الروم، وكسرى فارس، ونجاشى الحبشة، والمقوقس، وعزيز مصر، وأمير البحرين وصاحب دمشق ، وأمراء اليمن ، وهذا كله فضلا عن أمراء العرب الذين لم يدخلوا بعد فى هذا الدين ، ومنهم الأمير شرحبيل وغيره

واستقر رأى النبى ﷺ على أن يبعث إلى كل واحد من هؤلاء بوفد من قبله ﷺ ومع الوفد رسالة خاصة يدعوه فيها إلى عبادة الله وحده وإلى الإيمان الذى جاء به محمد .

وقيل إنه للأسف الشديد لم يحتفظ التاريخ بكل هذه الرسائل النبوية ، وذلك فيما عدا الرسالة التى وصلت إلى المقوقس ، والرسالة التى وصلت إلى هرقل ورسائل أخرى قليلة . فقد ذكر التاريخ أن المقوقس أحسن استقبال الوفد الذى حمل إليه الرسالة وأنه حفظ هذه الرسالة نفسها فى صندوق ثمين وبعث مع الوفد الذى عاد إلى الرسول بجملة من الهدايا ومنها بغلة وجاريتان ، تزوج الرسول بواحدة منهما . وهى مارية القبطية ، وأهدى الأخرى — واسمها شيرين — إلى شاعره حسان بن ثابت .

وأما الرسالة نفسها فقد جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ،

أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط « ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخـذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث الكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة فتوجه إلى مصر فوجد المقوقس بالإسكندرية فذهب إليه فوجده فى مجلس مشرف على البحر ،فركب سفينته إليه ، وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر باحضاره بين يديه، فلما جيء به إليه ووقف بين يديه ، ونظر فى الكتاب ففضه وقرأه ، وقال لحاطب : ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه، فقال له حاطب : وما منع عيسى أن يدعو على من خالفه أن يسلط عليهم ؟فاستعاد منه الكلام مرتين، ثم سكت فقال له حاطب:إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه،فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك ، قال : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه،فقال حاطب : ندعوك إلى دين الله وهو الإسلام الكافى به الله فدع ماسواه،إن هذا النبي « صلى الله عليه وسلم » دعا الناس فكان أشدهم عليه قريشاً وأعداهم له يهوداً وأقربهم منه النصارى،ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يتبعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دينك ،ولـكننا نأمرك به . فقال المقوس، إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي فوجدته لايأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الجاهل الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة : بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر .وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله فى حق من عاج ودفعه لجارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ،سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعون إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ،وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم . . . وكسوة ،وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام [١] .

ولم يزد على هذا ، ولم يسلم .

مندوبو الرسول إلى الملوك والأمراء :

بعث الرسول ﷺ رسلا من أصحابه وكتب معهم كتبا إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام :

١ — فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم .

٢ — وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس .

٣ — وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة .

٤ — وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية .

٥ — وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ملكي عمان .

٦ — وبعث سليط بن عمرو إلى (ثمامة بن آثال وهوازة بن على) على الحنفيين ملكي اليمامة .

٧ — وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين .

٨ — وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبي شمر الغساني — ملك تخوم الشام [٢] .

* * *

---

(١) المنتخب من السنة ، مجلد ط ٢ ، القاهرة سنة ١٩٥٢ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٢) سيرة النبي لابن هشام جـ ٤ ص ٢٧٨ مطبعة حجازى بالقاهرة سنة ١٩٣٨ تحقيق محى الدين عبد الحميد .

قام الرسول بهذه الحركة الإعلاميه الواسعة النطاق ، وأوفد البعثات إلى جميع الجهات بعـد أن نزلت الآية الكريمة : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

يقول مولانا محمد على ، تعليقاً على حركة البعثات النبوية [١] :

إن الظروف التى أحاطت بتوجيه هـذه الرسائل النبوية للملوك والأمراء لتستحق شيئاً من التأمل والاعتبار ، فلو أن الرسول وجه هذه الرسائل بعد إخضاع بلاد العرب برمتها لنفوذه ، إذن لكان فى إمـكان الباحث أن يعتبرها عملا أوحى به الطموح إلى التوسع فى الملك ، فقد كان المسلمون إلى ذلك الحين أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطة الحقيقية حتى لقد فرضوا شروط الصلح (يريد صلح الحديبية) على النبى ﷺ .

فصحيح إذن أن الرسول لم يكن يهدف من وراء هذه الحركة الإعلامية إلى التوسع فى النفوذ أو إلى جـاه أو سلطان أو نحو ذلك ، إنمـا كان الرسول يحرص من خلال هـذه الحركة أن يفهم المسلمون أن الإسلام لم يقصد به العرب وحدهم ، ولكن يقصد به الناس كافة .

ولنا تعليق آخر من الناحية الإعلامية عدا تعليق مولانا محمد على الذى أوردناه الآن على حركات البعثات النبوية ، ونلخص تعليقنا فيما يلى :

نفهم من دوائر المعارف الإنجليزية والأمريكية أن الدبلوماسية ذاتها فن حضرى بحت — بمعنى أنه لم يعرف إلا فى العصور الحديثة — وفى العصر الذى نعيش فيه بنوع خاص .

ولعل أقصى ماذهب إليه المؤرخون المحدثون هو أن الدبلوماسية لم تعرفها البشرية قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، وهم يقولون إن هذا الفن إنما بدأ فى (الفاتيكان) على يد أحد البابوات منذ أخذ البابا يبعث بالوفود إلى

---

(١) مولانا محمد على : حياة محمد ورسالته — الترجمة العربية لمنير البعلبكى ص ١٩٧ — ١٩٨

الملوك والأمراء لأغراض دينية وأخرى سياسية (١)

ولكن نظرة واحدة إلى الحركة التى قام بها الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل ذلك بتسعة قرون من الزمان يدلنا على أن هذا الرسول هوأول من مارس هذا الفن الذى يقولون عنه إنه حضرى بحت — ونعنى به فن الدبلوماسية ، وليس أدل على ذلك من أنه قام بتنظيم حركة البعثات إلى الملوك والأمراء ، فمنهم من رحب بهذه الدعوة كما فعل المقوقس بنوع خاص ، ومنهم من رفض هذه الدعوة ، وأساء الرد على صاحب الرسالة ، كما فعل كسرى .

وهكذا أثبت التاريخ أن محمداً أول من زاول (الاتصال الشخصى المباشر) من وسائل الإعلام القديمة والحديثة—وذلك عن طريق الوفادة وطريق الرسالة . ومما لاشك فيه أن العرب فى الإسلام كانوا أقدر على ممارسة هذه الوسيلة من وسائل الإعلام منهم فى الجاهلية لا لشىء إلا لاختلاف القيم التى كانت تحكمهم فى الجاهليه . ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القضية عند الكلام عن القرآن الكريم باعتباره أكبر الوسائل الإعلامية فى صدر الإسلام ، وقد رأينا أن القيم التى كانت تحكم المجتمع العربى فى الجاهلية كانت مبنية فى أكثرها على العنف والشر ، بينما كانت القيم التى حكمت العرب فى الإسلام تبنى على التقوى والإيمان ، وفى ظل هذه القيم الأخيرة نجح الفن الذى مارسه الرسول ﷺ وهو فن (الدبلوماسية) .

* * *

٦

استقبال الرسول للوفود

مما لاشك فيه أن حركة الاستقبالات— كحركة البعثات — تعتبر نوعاً من (العلاقات العامة) ، ولكنا حرصنا على أن نخص كلا من هاتين

(١) راجع كتاب (أضواء على الدبلوماسية) للأستاذ أحمد عبد الحميد .

الحركتين بكلمة مستقلة بذاتها ، وذلك لأهميتها فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولأنها من أكبر مظاهر النشاط الاعلامى لرسول الله ﷺ ، وبدون ذلك نكون قد قصرنا فى التنويه بهذا النشاط .

فى أواخر السنة التاسعة للهجرة ، وطول السنة العاشرة تدفقت على المدينة وفود تمثل مختلف القبائل والعشائر المعروفة فى شبه جزيرة العرب ولذلك سمى العام العاشر للهجرة (بعام الوفود) ، وإليك أسماء بعض هذه الوفود على سبيل المثال .

١ — وفد ثقيف .

٢ — وفد بنى تميم .

٣ — وفد تغلب .

٤ — وفد نجران من الوفود النصرانية أيضاً .

وكان عدد الوفود سبعين رجلا ، وزعيماهم عبد المسيح وعبد الحارث .

٥ — وفد بجيلة من القبائل اليمنية التى كانت تملك هيكلا اسمه (الخلصة) وكان فى اليمن يعتبر بمثابة (الكعبة) فى مكة ، وقد هدم المسلمون هذا الهيكل بأمر من النبى ﷺ .

٦ — وفود أخرى من اليمن وعمان واليمامة والبحرين (وأميرها إذ ذاك هو المنذر) .

٧ — وفد وائل بن حجر الكندى والأشعث بن قيس ، وهما زعيما حضرموت جاءوا فى أعداد كبيرة ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية ، فلما سألهم الرسول : هل تحبون أن تعتنقوا الاسلام ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، فقال لهم : اخلعوا هذه الملابس الحريرية ، ففعلوا ولبسوا غيرها .

وقد قيل إنه فى عام الوفود هذا نزلت سورة النصر وفيها يقول الله تعالى :

« إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وقيل كذلك إن هذه السورة نزلت فى حجة الوداع ، وكانت آخر ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ .

ولكنى أميل إلى الرأى الأول، لأن هذه السورة إنما تشير إلى حادث الوفود ، وتعتبر حركتهم نصراً من الله وفتحاً .

وهكذا عم الاسلام جميع أرجاء الجزيرة العربية باستثناء بعض الجاليات القليلة لليهود والنصارى .

* * *

ومع كل وفد من الوفود السابقة كان الرسول يبعث بواحد من أصحابه لكى يصحبهم فى عودتهم إلى القبائل التى أتوا منها ؛ وهذا ما سميناه فى الباب الأول من أبواب الكتاب (بحركة « القراء ») المتفقهين فى الدين الذين صحبوا هذه الوفود لكى يعلموا القبائل التى أتوا منها ويفقهوهم فى الدين ويجيبوهم إلى كل ما يسألونه من الأسئلة فى موضوعات هذا الدين وأركانه وفرائضه ونحو ذلك ، ولكى يفسروا لهم بعض آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وبذلك يزداد أفراد هذه القبائل العربية علماً بالدين وعلماً بأوضاعه وأحكامه ، ومن ثم كان العمل الذى قام به القراء عملا دينياً وإعلامياً فى وقت معاً .

وقد نجحت هذه التجربة الاعلامية أول ما نجحت على يد المعلم الأول لهذه الأمة ونعنى به محمداً ﷺ ، وذلك عندما التقى فى موسم الحج بثمانية عشر رجلا من الخزرج —وعرض عليهم الاسلام ، فأسلموا ،فبعث معهم بأحد الصحابه ، وهو هنا (مصعب بن عمير) ليهديهم ويرشدهم ويعلمهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، فذهب معهم مصعب لهذه الغاية ، وكان ذلك فى السنة العاشرة للبعثة ، والرسول يومئذ لم يزل موجوداً بمكة ، ولم يؤذن له بالهجرة منها إلى المدينة .

وكانت الوفود إذا أقبلت على الرسول أقبل معها خطباؤها وشعراؤها فتكلموا وتناشدوا ، وكان خطباء المسلمين وشعراؤهم يردون على خطباء

الوفود وشعرائهم ، وقد شهد التاريخ بأن خطباء المسلمين المستقبلين لهذه الوفود كانوا أبلغ فى كل مرة من خطباء الوفود ، ولاغرابة فى ذلك فقد كان خطباء المسلمين المجاورين للرسول والصحابة إنما يستمدون معانيهم من القرآن الكريم ومن السنة ومن معاشرة الرسول نفسه ومعاشر الصحابة معه ، كما كان خطباء المسلمين ممتلئين بالعواطف الدينية الجياشة ، والمشاعر الاسلامية النبيلة بالقدر الذى يكفى للوصول بخطبهم إلى درجة كبيرة من درجات البلاغة والتأثير فى نفوس العرب .

وهذا الذى قيل فى الخطباء المسلمين قيل مثله فى شعرائهم ، وإن كان الخطباء — كما سبق أن أوضحنا ذلك — أبلغ فى صدر الإسلام من الشعراء للاسباب التى سبق أن أشرنا إليها فى موضعها من هذا الكتاب .

* * *

٧

حركة الهمس وأثرها فى نشر الدعوة

يعتبر التهامس بين الناس فى كل عصر من العصور عاملا قوياً من العوامل التى تؤثر فى (الرأى العام) ولذلك لم يغفل عنه حاكم من الحكام فى الأزمنة القديمة والحديثة على السواء ، وقد عرف عن بعض الخلفاء العباسيين أنه كان ينشر العجائز فى بيوت الخاصة والعامة لكى يأتوه بالأخبار والأحاديث التى تدور فيها ، ومنها يفهم الخليفة رضا الناس عنه أو سخطهم عليه .

ومما لاشك فيه أن سيرة الرسول ، وعظمته الخلقية ، وكماله النفسى ، وغير ذلك من الصفات التى امتاز بها البشر ، وهى الصفات التى عبر عنها القرآن الكريم مخاطباً الرسول بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، نقول : لاشك أن هذه السيرة النبوية العطرة ، والمثل الأعلى فى الأخلاق

والمعاملات ، والعبادات كانت مثار دهشة كبيرة من جميع العرب فى مكة والمدينة وفى غيرهما من أرجاء شبه الجزيرة العربية .

كان الناس يتحدثون عن هذه الصفات التى اكتملت للنبى إما جهاراً حين لا يخافون سطوة أحد ، وإما إسراراً أو عن طريق الهمس — حين يخافون شيئاً من ذلك ، وكان هذا التحدث أو التهامس فى ذاته عاملا قوياً من عوامل انتشار الإسلام ، وقد وجدنا مصداق ذلك فى حادثين بنوع خاص هما :

١ — حادث الهجرة .

٢ — صلح الحديبية .

فأما فى الهجرة فقد سبق أن أشرنا إلى حركة التهامس التى حدثت فى مكة واقترنت بحادث الهجرة ، فقد عجب المشركون يومئذ من أن المسلمين بدءوا يتركون أموالهم وأولادهم وممتلكاتهم وحياتهم الماضية الحافلة بين أهليهم وعشيرتهم فى مكة ويهاجرون إلى المدينة وأخذوا يتساءلون بينهم وبين أنفسهم : ما الغاية من كل ذلك ؟ وأجابوا على أنفسهم بإجابة واحدة : وهى أن الأمر العظيم الذى ضحوا من أجله بكل ذلك — وهو الإسلام — لابد أن يكون خليقاً بهذه الحركة ، ولابد أن يكون محمد صادقاً فى دعوته ، شرحنا ذلك فى موضعه من الكتاب ، ولانحتاج إلى إعادة القول .

صلح الحديبية :

وأما صلح الحديبية فقد كان فرصة أخرى لهذا التهامس الذى كان له أبعد الأثر فى نشر العقيدة الإسلامية .

* * *

بذلت قريش كل ما فى وسعها للقضاء على الإسلام . وذلك فى معركة (بدر) ، ثم معركة (أحد) ثم فى معركة (الخندق) أو الأحزاب ، ولكنها لم تفلح ، ومنذ ذلك الوقت يئست قريش كل اليأس من الهجوم على المدينة ، وخيل للمسلمين إذ ذاك أن قريشاً — ومعها قبائل البدو الموالية لها — لن تعترضهم

فى ذهابهم للحج بعد اليوم؛ وبعد عام من معركة الأحزاب فكر رسول الله ﷺ فى الخروج للحج. فخرج ومعه ألف وأربعمائة رجل من المسلمين أمرهم الرسول أن يضعوا السيوف فى أغمادها، لأنهم إنما خرجوا للحج لا للحرب، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم، وتنوى أن تعترض طريقهم فلما علم الرسول بذلك بعث إلى قريش يقترح عليها عقد صلح بين الفريقين إلى أجل غير مسمى، فرفضت قريش هذا العرض، ثم بعث الرسول إلى قريش بمبعوث آخر من قبله فأساءت معاملته، وعقرت ناقته، وأخيراً بعث الرسول فيهم بعثمان بن عفان فاحتجزوه عندهم وسرت شائعة بأن قريشا قتلت عثمان، وتأزم الموقف كل التأزم، فالمسلمون عزل من السلاح وعددهم قليل بالقياس إلى الأعداء، والعدو مصمم على انتهاز الفرصة فماذا يفعل الرسول فى تلك اللحظة الحرجة؟ لقد دعا أصحابه ليبايعوه من جديد، فبايعوه جميعاً تحت الشجرة، وسميت هذه البيعة فى التاريخ (بيعة الرضوان)، وبها عـاهدوا الرسول على القتال معه حتى آخر رجل.

علمت قريش بهذه البيعة، وعرفت أنها تعبر عن أقصى ما يمكن التعبير به عن ارتفاع القوة المعنوية، وأدركت أن هذه القوة كافية لأن تغنى المسلمين عن كثرة العدد والعدة، فخافت على نفسها من نتائج ذلك، وعدلت عن فـكرة الحرب ودخلت فى مفاوضات جديدة مع الرسول بقصد الصلح لمدة عشر سنوات، وتم هذا الصلح، وكانت أهم بنوده ما يلى :

١ — يرجع المسلمون عامهم هذا، فلا يؤدون فريضة الحج.

٢ — يجوز للمسلمين أن يفدوا فى العام القادم على مكة بشرط ألا يلبثوا فيها أكثر من ثلاثة أيام.

٣ — لا يحق للمسلمين أن يصطحبوا مسلما يقيم فى مكة، ولا يحق لهم أن يعترضوا سبيل امرىء منهم قد يرغب فى التخلف فى مكة.

٤ — من أحب من العرب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. إلخ .

وقرأ المسلمون شروط هذا الصلح فأحدث فى نفوسهم ثورة ، ولكنهم تكلفوا الهدوء انتظاراً لرأى النبى ، ثم عجز عمر بن الخطاب عن ضبط نفسه بعد ذلك فسأل الرسول : ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . ثم قال : أنا عبد الله ورسوله ﷺ . فلن أخالف أمره . ولن يضيعنى . ثم سأله عمر : ألم تقل لنا إننا سوف نؤدى فريضة الحج ؟ قال الرسول الأعظم : أنا لم أقل إننا سنؤدى فريضة الحج هذا العام .

وفى طريق عودة الرسول وأصحابه إلى المدينة نزلت الآية الكريمة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وتلا الرسول هذه الآية على من معه من المسلمين فانقلب حزنهم سروراً وقلقهم اطمئنانا ، وعلموا أن للرسول حكمة فى قبول هذا الصلح .

ويقول مولانا محمد على تعليقاً على هذه الحادثة [١] « لقد أثبتت الأيام أن صلح الحديبية كان نصراً حقيقياً للإسلام ، يدلك على ذلك أن الرسول حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام رافقه عشرة آلاف من أصحابه بدلا من ألف وأربعمائة — وهو العدد الذى كان معه زمن الصلح ، فكيف تعلل هذا الازدياد العظيم فى عدد المسلمين .

الواقع أن حالة الحرب التى سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين والمشركين كانت قد أقامت بينهما برزخاً عريضاً يصعب اجتيازه ، وكان الحقد العام على المسلمين قد حال بين المشركين وبين امتزاجهم بالمسلمين . فإذا بصلح الحديبية يعقد بين الفريقين للمرة الأولى منذ انبثاق الإسلام جسرا

---

(١) مولانا محمد على « حياة محمد ورسالته » الترجمة العربية لمنير بعلبكى ص ١٨٧ .

على ذلك البرزخ العريض، وقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير الهادىء في فضائل الإسلام الفطرية وعظمة الرسول الحقيقية ، ومنذ ذلك الوقت أدرك المشركون أن الرسول لم يبعثه الله لكي يقطع صلة الرحم ، ولا ليثير الشقاق والعداوة والبغضاء بين العرب كما زعمت قريش .

وتناقل الناس في مكة وفي القبائل العربية المجاورة كل هذه الأحاديث، وتهامسوا فيما بينهم حول عظمة الرسول ، وخطورة الرسالة الإلهية التي بعث بها هذا الرسول ،وكان لهذا التهامس الهادىء الجميل أثره الواضح الجلي في نجاح الدعوة الإسلاميةوزيادة عدد المسلمين حتى ذهب إلى الحج بعد عام ونصف مع الرسول قريب من عشرة أمثال العدد الذي كان معه في صلح الحديبية ، وهذا كله ما عبرت عنه الآية الشريفة التي أشرنا إليها « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » إلخ .

* * *

تحدثنا إلى الآن عن الوسائل الإعلامية التي مارسها الرسول في مرحلة الاستقرار ، ولم يبق من الوسائل غير واحدة هي (غزوات النبي ﷺ وسراياه) ونريد أن نخص هذه الأخيرة بفصل مستقل هو الفصل الآتي :

لسنا نريد أن نتحدث عن غزوات الرسول من الناحية الحربية ولا من الناحية الدينية، ولكنا سنتحدث عن هذه الغزوات من الناحية الإعلامية .

إن نظرة واحدة إلى هذهالغزوات تدلنا على جملة من الحقائق الخطيرة :

أولاها ، أن المسلمين في كل غزوة من هذه الغزوات لم يكونوا هم المعتدين ، وإنما كان المشركون هم الذين يعتدون عليهم، وكان على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم :

الثانية ، أن المشركين كانوا في كل غزوة من هذه الغزوات أكثر عدداً وأقوى سلاحاً وأعظم استعداداً للحرب من المسلمين ، ولكن المسلمين كانوا يحاربون بإيمانهم وعقيدتهم،ومن أجل ذلك كانت روحهم المعنوية أعلى بكثير من روح المشركين .

الثالثة ، أن الرسول لم يكن يبغى من وراء الغزوات إلى توسع فى الملك أو السلطان ونحو ذلك . إنما كـان يهدف إلى شىء واحد فقط ، هو تبليغ الدعوة ونشر الإسلام ، فليس بينه وبين أعداء هذا الدين إلا أن يقولوا ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها فقد عصموا منه دماءهم ، وتمتعوا بجميع الحقوق التى يتمتع بها المسلمون .

الرابعة : أن النبى ﷺ كان يحارب فى هذه الغزوات بأخلاقه كما كان يحارب بسيوفه ورماحه .

ولنا بعد ذلك أن نقف وقفة قصيرة عند كل غزوة من غزوات النبى ﷺ لننظر إليها هذه النظرة الإعلامية التى تؤيد ما نقوله .

قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وعلى أساس من هذه القاعدة القرآنية كان اشتباك الرسول مع المشركين وكان على الرسول قبـل اشتباكه معهم أن يقوم بطائفة من الإجراءات الوقائية والإعلامية التى لابد منها .

★ ★ ★

الفصل السادس
بعض الغزوات النبوية
من الزاوية الإعلامية

غزوة بدر :

ومن هذه الإجراءات فيما يتصل بغزوة بدر تلك الحركة التى أوعز بها الرسول عن طريق (سعد بن معاذ الأشهى) وهو من الأنصار . فقد أفهم قريشاً فى موسم الحج أن تجارتها ستصبح فى خطر كبير إذا هى منعت المسلمين من تأدية فريضة الحج كما سبق ذكر ذلك ، وكان هذا التحذير كافياً فى الحقيقة لردع قريش عن التفكير فى الحرب .

لقد كان المسلمون إذ ذاك أضعف من أن يقوموا بأى عمل حربى ضد قريش ، وكان الرسول يشعر بمسئوليته عن سلامة المسلمين ، وبنوع خاص لأن عددهم إذ ذاك ما زال قليلا بالنسبة للمشركين .

مهما يكن من شىء فقد اشتبك الفريقان فى معركة بدر وكان عدد المسلمين لايزيد عن ثلثمائة وثلاثة عشر مقاتلا فى جملتهم الغلمان ، وكلهم مسلحون تسليحاً رديئاً على حين كان جيش العدو مؤلفاً من ألف مقاتل مزودين بالسلاح الكامل ، وكان المسلمون يشعرون إذ ذاك بالخوف والضيق والقلق والحرج ، ومع هذا وذاك لم يكن أمامهم إلا طريق واحد فقط هو طريق الدفاع عن النفس ، ولم ينتظروا فى داخل المدينة حتى يدهمهم العدو بل عزموا على الخروج فى هذه الحالة السيئة من التسلح ، وابتعدوا عن المدينة حتى وصلوا إلى بدر ودارت المعركة ، وهنا حدث مالم يكن فى الحسبان — حدثت ظاهرة رائعة من ظواهر العون الإلهى ، فقد قتل فى المعركة معظم زعماء قريش ، وكان أبو جهل واحداً من الذين لقوا حتفهم فى ذلك الوقت وبلغت جملة القتلى من قريش فى المعركة سبعين ، وأسر المسلمون منهم سبعين آخرين ، أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة

عشر ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » .

لفتت هذه المعركة أنظار العرب فى كل شبر من الجزيرة العربية من أولها إلى آخرها ، فقد عجبوا كيف أن جيشاً ليس له حظ من عدد أو سلاح يغلب جيشاً يزيد على ثلاثة أضعافه من حيث العدد والسلاح ويضم قدامى المحاربين من أبطال قريش ، ومعنى ذلك أن وجوه الضعف كلها قد اجتمعت فى ناحية المسلمين وأن وجوه القوة كلها قد اجتمعت فى ناحية المشركين ، وبرغم ذلك انتصر المسلمون على المشركين .

أليس فى ذلك إعلام كبير عن هذا الدين الجديد ودعاية إلهية واسعة النطاق لرسول هذا الدين ، وإيذان المشركين بأنهم لن يستطيعوا التغلب على هذا الدين وعلى رسوله الكريم بالطرق التى يعرفونها كالغدر والقتل والنهب والتهديد والوعيد !

غزوة أحد :

وفى غزوة أحد وقد تم تجهيز المشركين لها فى عام كامل ، وكان جيشهم يتألف من ثلاثة آلاف مقاتل فيهم مائتا فارس ومنهم كذلك سبعمائة بطل من خيرة أبطال قريش عدا الأبطال الكبار الذين ماتوا فى معركة بدر ، وزاد أبو سفيان — الزعيم الأول لقريش فى ذلك الوقت — شيئاً جديداً على هذه الحملة ، وهو أن أجبر النساء على الخروج لمرافقة الجيش أملا فى أن يزدن فى حماسته ويلهبن مشاعره بالأناشيد الحربية والأغانى الحماسية ، وسارت الحملة صوب المدينة حتى عسكرت على ثلاثة أميال منها عند جبل أحد .

أما عدد المسلمين إذ ذاك فلم يزد عن ألف مقاتل فيهم مائة رجل مسلح وفارسان اثنان ليس غير .

ولم يكد عبد الله بن أبى — وكان قد أسلم نفاقاً ولم يسلم عن صدق — لم يكد هذا الرجل يرى جموع العدو حتى انسحب من جيش المسلمين

بفرقته البالغ عددها ثلثمائة . وبقى من الجيش الاسلامى سبعمائة لا قوة لهم إذ ذاك غير قوة العقيدة التى هى عندهم كل شىء .

وتقدم رسول الله وأصحابه للقتال واختار الرسول موقعاً ممتازاً فى الميدان حيث جعل صخور (أحد) وراء المسلمين تحمى ظهورهم وأخذ يصف أصحابه هناك فشغلوا جزءاً كبيراً من سفح الجبل . ولكن كان فى ناحية من نواحى الجبل شعب يسمح للعدو بأن ينقض منه على المسلمين إذا غفلوا عنه . ففطن إليه الرسول ووضع على فمه خمسين من الرماة المسلمين لحمايته ، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم تحت أى ظرف .

وبدأت الموقعة بحركة إعلانية كبيرة من جانب المشركين حيث تقدم النسوة يضربن بالدفوف وعلى رأسهن هند زوجة أبى سفيان وهن ينشدن جملة من الأناشيد منها على سبيل المثال :

إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق .

فراق غير وامق ... إلخ .

وبدأ القتال بداية ناجحة بالقياس إلى المسلمين واستطاع حمزة عم الرسول أن يقتل حامل لواء المشركين وأوقع أمثال حمزة الاضطراب فى صفوف قريش ، وبقى الحال على ذلك حتى استشهد حمزة نفسه ، قتله مولى زنجى استأجرته هند زوجة أبى سفيان لهذا الغرض . وتقهقر المشركون ، ولكن ما كاد الرماة المسلمون الذين يحرسون الشعب يرون ذلك حتى غادروا أماكنهم مخالفين بذلك أمر الرسول ، ونظر خالد بن الوليد (الذى كان إلى ذلك الحين قائداً من قواد قريش) إلى هذه الغلطة التى ارتكبها الرماة المسلمون وهجم من نقطة الضعف بمائتى فارس وأحدث اضطراباً فى صفوف المسلمين المنتصرين إلى ذلك الحين . وحين رأى المشركون الهاربون ذلك التحول المفاجىء فى سير الحرب لحقوا بخالد بن الوليد

وحاصروا المسلمين ، وأدرك النبي خطورة الموقف الذى وقفه المسلمون . وكان يسعه إذ ذاك أن ينجو بنفسه ويضمن سلامته باللجوء إلى مكان أمين يحتمى به ويترك أصحابه للقدر . ولكنه لم يفعل ذلك بل وقف فى مكانه وحوله عدد قليل من أصحابه ونادى بأعلى صوته (هلموا إلى أنا رسول الله) . فسمعه المسلمون وشقوا صفوف العدو حتى أدركوا النبي ودافعوا عن حياته ، وصرعوا واحداً بعد واحد فى سبيل الدفاع عنه .

أما الرسول نفسه فشج فى وجهه وانشقت شفته ودخلت حلقتان من مغفره فى وجنته . كل ذلك وهو لا يزيد على أن يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

وهكذا عاد المشركون إلى مكة دون أن يظفروا بأية غنيمة من الغنائم ودون أن يكون فى أيديهم أسير واحد ، بل عادوا إلى مكة وكان الجيش الإسلامى نفسه لم يزل مسيطراً على الموقف كله ، وعاد المشركون إلى مكة بعد أن عجزوا حتى عن احتلال المدينة برغم أنها تركت يومئذ بدون قوة دفاعية ، بل عاد المشركون إلى مكة ،وقدسمعوا فى الطريق بأن النبي يطاردهم بجيشه ، ولم يجرؤ أبو سفيان على العودة بأصحابه إلى مواقع المسلمين المطاردين له ..

وهكذا كانت نتيجة الموقعة أن المسلمين منوا بخسائر فادحة ولكنهم لم ينهزموا للمشركين بصورة من الصور . وهكذا أصبحت معركة أحد حديث القوم فى مكة ، وبها عرف المشركون حقائق كثيرة عن الرسول وعن الإسلام ، وبها أيقنت قريش أن هناك سراً يخفى عليها ، وأن هذا السر يكمن فى هذا الرسول وفى هذا الدين الجديد ، ولذلك فكرت فى محاولة أخيرة تقضى بها على الرسول وعلى الدين ، وهذه المحاولة الأخيرة تتمثل فى :

غزوة الأحزاب « أو غزوة الخندق » :

ففى السنة الخامسة للهجرة تضافرت قريش واليهود والقبائل البدوية المعادية للرسول على توجيه الضربة الأخيرة إلى الإسلام ، وتألف لهؤلاء جيش يتراوح عدده — فى تقدير المؤرخين — بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألف مقاتل ، ولجأت القبائل اليهودية المقيمة داخل المدينة إلى الخيانة فى آخر لحظة ، وتشاور الرسول مع أصحابه فى هذا الخطر الداهم ، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق عميق يحيط بالمدينة من جميع جوانبها ، وبدأ الرسول فى هذا العمل بنفسه .

وأقبل المشركون بجموعهم ، ووصف القرآن الكريم حالة المسلمين فى تلك اللحظة الرهيبة بقوله : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

واستمر حصار المشركين للمدينة نحواً من شهر ربط المسلمون فى أثنائه الحجارة على بطونهم من الجوع ، وكان الرسول قدوتهم فى كل ذلك . ثم شاءت إرادة الله أن تهب ريح عاتية اقتلعت خيام المشركين وكفأت قدورهم واضطربت لها صفوفهم ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا) .

ورأى المشركون ذلك فدب اليأس إلى قلوبهم وأيقنوا أن يداً خفية تحبط أعمالهم وتزلزل أقدامهم ، وهذه اليد الخفية هى يد الله الذى بشر به محمد ، أليس فى هذه الحادثة وحدها ما يعلن إعلانا قويا عن هذا الدين الجديد ، ويعتبر نصراً عظيماً للرسول الكريم ؟

ونجا المسلمون من هذه الكارثة بطريقة عجيبة ، وحينما تأكدوا من رحيل المشركين بجموعهم إلى مكة رجعوا إلى اليهود الذين خانوهم بالمدينة وألقوا

الحصار على قبيلة يهودية هى قبيلة بنى قريظة فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة. واختار بنو قريظة بأنفسهم (سعد بن معاذ) — وكان قبل إسلامه حليفاً لهم — لكى يحدد العقوبة التى يستحقونها على خيانتهم ونقض ميثاق الرسول أكثر من مرة ، فاختار سعد لهم العقوبة التى نص عليها (العهد القديم)[1] وهى عقوبة القتل ! .

وهكذا حـكم سعد — حسب الديانة اليهودية — بقتل ذكور بنى قريظة وعددهم ثلثمائة وبسبى نسائهم وأطفالهم ومصادرة أملاكهم وأموالهم .

أما القبيلتان اليهوديتان الأخريان وهما (بنو النضير) و « بنو قينقاع » فقد حكم الرسول عليهما بالنفى خارج المدينة جزاء لهما على خيانة المسلمين فى أحرج الأوقات التى مرت بهم .

فتح مكة :

أثبت صلح الحديبية كما أسلفنا — أنه عامل من عوامل نشر الدين الجديد وأن هذا الدين ينمو فى جو السلم أكثر مما ينمو فى جو الحرب . فاغتاظت لذلك قريش وفكرت فى نقض الصلح ، ومن ثم استعد الرسول لفتح مكة وتمت إرادة الله أن يتحقق هذا الفتح العظيم بدون دم .

وتم الفتح فى العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ودخل الرسول مكة فى عشرة آلاف من أصحابه ، واستسلم المكيون من غير مقاومة فى مقدمتهم أبو سفيان وقد وقف بين يدى الرسول ، فعفا الرسول عنه ، وكان سلوك الرسول هذا المسلك مع أقوى أعداء الإسلام — وهو أبو سفيان — مثلا طيباً من الأمثال التى تحدث بها المسلمون وغير المسلمين ، وكان فى الوقت نفسه إعلاناً كبيراً عن عظمة الإسلام ، وكم للرسول مع أعدائه من المواقف المشابهة لهذا الموقف ، ومعنى ذلك أن سيرة الرسول فى ذاتها كانت من أقوى وسائل الدعاية له ولدينه الحنيف ، ثم أعلن الرسول للمكيين « أن

---

(١) سفر التثنية ١٣/١٤/٢٠ .

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ودخل الرسول مكة وأخذ يحطم الأصنام القابعة حولها ، وكلما هدم منها واحداً تلا الآية الكريمة « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، ثم وصل الرسول إلى مقام إبراهيم فصلى ركعتين ، وإذ ذاك فتحت أبواب الحرم ودخله الرسول وصلى بالناس كذلك ، ثم ألقى خطبة عبر فيها عن وحدانية الله وعن الأخوة فى الإسلام ، ثم وجه الخطاب إلى زعماء قريش وكانوا واقفين بين يديه وقوف الجناة المذنبين . وقال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فرد الجميع : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال الرسول الأعظم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

معركة حنين :

لعل العبرة الإسلاميه لهذه المعركه الأخيرة تنحصر فى أن الله تعالى أراد أن يعلم المسلمين درسا لن ينسوه أبدا ، أراد أن يعلمهم أن كل انتصار من الانتصارات التى حصلوا عليها إنما كان ثمرة شىء واحد فقط وهو العون الإلهى . فقد انتصر المسلمون على أعدائهم وكان عددهم لا يزيد على ثلث عدد الأعداء أحياناً أو ربع هذا العدد أحياناً وذلك فضلا عن سوء السلاح عند المسلمين وتفوقه عند المشركين .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين» .

ومضى أقل من شهر على فتح مكة ، وبلغ الرسول أن قبيلة هوازن المقيمة شرقى مكة استعدت لهجوم عنيف على الإسلام لتكون المحاولة الأخيرة من جانب هذه القبيلة لهدم هذا الدين ، فأخذ الرسول يستعد لذلك وتألف جيش من المسلمين وصل عدده فى هذه المرة إلى اثنى عشر ألف مقاتل ،

وقصد الرسول بهذا الجيش الكبير إلى وادى حنين ، وكان المسلمون فى أثناء ذلك يشعرون بالزهو لكثرة عددهم وقوة سلاحهم ودخل العجب قلوبهم وخالط الغرور نفوسهم ، ومع ذلك فقد انهال عليهم الأعداء برماحهم ونبالهم وأدخلوا الخلل فى صفوفهم ، فولوا على أدبارهم ، وبقى الرسول وحده فى الميدان لم يتزعزع ولم يستشعر الضعف الذى شعر به أصحابه ، ثم أخذ يصيح بأعلى صوته :

أنا النبى لا كذب .

أنا ابن عبد المطلب .

وكرر هذا النداء مرات كثيرة وتبعه عمه العباس فأخذ ينادى بأعلى صوته : يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وما كادت هذه النداءات تصل إلى آذان المسلمين الهاربين من المعركة حتى رجعوا إليها بقوة معنوية جديدة ونزلوا عن جيادهم وإبلهم وخاضوا صفوف الأعـــداء بشجاعة نادرة وانقضوا عليهم انقضاضاً مسعوراً حتى وصلوا إلى مكان الرسول وهناك حاربوا الأعداء حتى سقط حامل رايتهم وحتى تركوا نساءهم وأطفالهم واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منها أربعة وعشرون ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وأسر المسلمون فوق ذلك ستة آلاف من المشركين .

وهكذا انقلبت الهزيمة الشنيعة إلى نصر مشرف ، ومارس الرسول بعد ذلك أخلاقه الطيبة وحلمه الواسع وعفوه عند المقدرة ، وأرضى المهاجرين والأنصار وعفا عن كثير من الأسرى ، وكأن الرسول إنما كان يحارب بالأخلاق كما يحارب بالسيوف والرماح ، وتلك ناحية لايغفل عنها المؤرخ ولا رجل الدين كما لايغفل عنها رجل الإعلام والدعاية .

بعوث النبي وسراياه إلى حدود الروم وغايتها الاعلامية :

وذلك تأمينا للحدود الإسلامية وتخويفاً للأعداء من هيبة الإسلام وإعلاماً لهم بذلك حتى لايفكروا فى الإغارة على حدوده ، ومن أمثلة هذه البعوث « غزوة تبوك » التى وصلت إلى حدود الروم ، ومن الأمثلة عليها كذلك « بعثة أسامة بن زيد » وهى البعثة التى انتقل فيها الرسول الرحيم إلى الرفيق الأعلى قبل أن ينجزها ، وأنجزها من بعده أبو بكر الصديق الخليفة الأول للإسلام .

هكذا كان يشعر النبي دائماً بأن عليه واجبين كبيرين هما :

١ — تأمين الدين الإسلامى فى الداخل .

٢ — وحمايته من الخارج .

ومن أجل ذلك كان لا يشتبك مع العرب إلا دفاعاً عن النفس وعن الدين ، وفى الوقت نفسه كانت هذه البعوث الحربية التى تصل إلى حدود شبه الجزيرة العربية من ناحية الدولة الرومانية تعتبر بعوثاً استطلاعية ، وكانت تستعين فى هذا الاستطلاع بالقبائل العربية الموالية للنبى ﷺ ؛ ومن هذه البعوث النبوية جاءت « غزوة تبوك » التى بلغت تخوم الروم ، وعادت من تلك الحدود سالمة غانمة .

وبهذه الطريقة الأخيرة علمت الروم — كما علمت القبائل العربية الموالية لهم فى الطريق — أن المسلمين قادرون دائماً على حماية حدودهم ، وقادرون كذلك على البطش بعدوهم إذا حدثته نفسه بالاستخفاف بهم أو التقليل من شأنهم وشأن الإسلام .

* * *

بقيت كلمة فى الخطب النبوية باعتبارها من أقوى الوسائل الإعلامية الإسلامية ؛ وكلمة أخرى فى القصيدة الشعرية وكيف شاركت هذه الوسيلة الأخيرة فى الدفاع عن الدين وما اقترن به من القيم والمفاهيم ، وهذا وذاك ما نتحدث عنه فى الفصلين التاليين :

الفصل السابع
الخُطبة النبويّة

منذ أقدم العصور والخطبة من حيث هى تعتبر أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس للتأثير فى مشاعرهم ولإقناعهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة ، وبقى شأن الخطابة كذلك فى العصر الجاهلى وفى صدر الإسلام وفى الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات ، بل بقى شأنها كذلك فى كل ثورة حدثت على وجه البسيطة ، وذلك فى العصور القديمة والوسطى والحديثة ، وسيبقى لها هذا الشأن حتى تبدل الأرض غير الأرض .

من أجل ذلك عنى بها النقاد فى أثينا وكتب فيها أرسطو كتابه الشهير (الخطابة) وعنى بها المسلمون وحظيت بعناية كبيرة من جانب (الجاحظ) فى القرن الثالث الهجرى ، وبقيت الخطابة موضع الاهتمام العظيم من جانب الدارسين والباحثين فى مجال الأدب والنقد إلى اليوم .

وأما فى مجال الإعلام فقد نظر العلماء الباحثون فى (علم الاتصال) فوجدوا أن الاتصال فى ذاته أنواع ثلاثة وهى :

الأول — الاتصال الشخصى .

الثانى — الاتصال الجمعى .

الثالث — الاتصال بالجماهير .

وقد تحدثنا فى الفصول السابقة عن النوع الأول ، ورأينا كيف مارسه الرسول عليه الصلاة والسلام فى سبيل نشر الدعوة ، وكيف كان هذا النوع من الاتصال من أنجح السبل للوصول إلى هذا الهدف .

أما النوع الثانى وهو الاتصال الجمعى — فهو المقصود بالخطابة والمؤتمر والندوات والأماكن التى يتجمع فيها الناس يستمعون فيها إلى محدث واحد أو عدد من المتحدثين ، وإن كانت الخطبة أبرز ظواهر الاتصال الجمعى

بلا نزاع ، وعليها ــ أى على الخطبة ــ اعتمد الرسول اعتمادا كبيرا فى نشر الدعوة وفى شرح تعاليم الدين وغير ذلك .

أما الاتصال بالجماهير ــ وهو النوع الثالث والأخير ــ فهو من بدع العصور الأخيرة ومنها العصر الذى نعيش فيه ، ونحن نرى أن هذا العصر أصبح يعتمد فى الإعلام بالدرجة الأولى على الأجهزة الجديدة والمخترعات الحديثة مثل الصحف والكتب والسينما ووكالات الأنباء والراديو والتليفزيون ونحو ذلك ، والواقع أنه بدون هذه الأجهزة الجديدة لا يتيسر للقادة وأصحاب الرأى فى عصرنا هذا أن يتصلوا بالجماهير ،ونقول الجماهير ونعنى بها الأعداد الضخمة من الناس فى كل دولة من الدول الحديثة، وهى الأعداد التى تعد بالآلاف والملايين الكثيرة، ثم هى الأعداد التى يستحيل جمعها فى مكان واحد لتستمع إلى متحدث واحد كما كان هذا من الأمور الميسورة فى العصور القديمة والبيئات القديمة .

معنى ذلك باختصار أن الاتصال بالجماهير وهو التسمية التى تطلق على الإعلام والاتصال فى العصور الحديثة أصبحت تعتمد على وسائل صناعية بحتة فى هذا المجال ، وإن كانت لا تستطيع الاستغناء استغناء تاماً عن الوسائل الفطرية القديمة ومنها الخطابة أو القصيدة، أو الندوة أو المعرض وغير ذلك .

* * *

وخلاصة القول أننا حين نتحدث عن الخطبة النبوية إنما نتحدث عن قوة من قوى الإعلام فى عصر الرسول تأتى فى الدرجة الثانية مباشرة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف .

فما المجالات العامة للخطب التى أثرت عن النبى ؟

إن نظرة سريعة فى هذه الخطب تدلنا على أنها اشتملت على المجالات التـالية :

أولا : الكلام فى مجال الدين من حيث أركانه وعباداته ومعاملاته، وقد استغرق ذلك معظم حياة النبى ﷺ منذ البعثة إلى نهايتها .

ثانياً : الكلام فى مجال الجهاد ، وقد شرحنا ذلك فى بعض فصول الباب الأول ومنها فصل بعنوان : الأحاديث النبوية قوة دعائية .

ثالثاً : الكلام فى مجال الأخلاق . وهو من أطول المجالات التى تكلم فيها الرسول . ذلك أنه ـ كما سبق القول فى الفصل الذى عنوانه : القرآن أكبر وسائل الإعلام فى عهد الإسلام ـ كان مسئولا عن بناء مجتمع جديد له مفاهيم جديدة وقيم جديدة، ومن ثم اشتمل هذا المجال على بيان الصفات التى يحمدها الإسلام والصفات التى نهى عنها .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نشرح هذين الجانبين، وفيما أوردناه من الـكلام فى مجال الأخلاق الجديدة التى صورها القرآن مايغنى عن المضى فى ذلك .

رابعاً : الثناء على الخالق سبحانه وتعالى بما هو أهله من الصفات ، وتصويره تعالى فى أذهان المسلمين بالصورة التى رسمها القرآن .

خامساً : الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم ـ وبنوع خاص ـ أبوبكر وعمر وعثمان وعلى، وحث المسلمين جميعاً على إكرامهم والرجوع إليهم فى كل ما أشكل عليهم من الأمر .

سادساً : أوصاف الجنة والنار كما جاءت كذلك فى القرآن .

هذه أشهر المجالات التى سبحت فيها خطب رسول الله ﷺ ونريد أن نختار منها مجالين فقط على سبيل المثال وهما :

١ — مجال الأخلاق .

٢ ــ مجال الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم

وسنأتى بمثل واحد فقط لكل واحد من هذين المجالين ، رغبة منا فى الإيجاز ، وتدليلا فى الوقت نفسه على الجانب الإعلامى أو الدعائى الذى قامت به الخطب النبوية خير قيام .

مجال الأخلاق

دعا رسول الله ﷺ إلى مكارم الأخلاق كما أوصى بها الكتاب الكريم وكما اقتضته ظروف الثورة الجديدة التى هى الإسلام ، فأمر بجملة أشياء منها :

محاسبة النفس ، وحسن المعاملة ، وحسن الجوار ، والشعور التام بالمسئولية الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعى ، كما يدل عليها الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) ، كما أمر المسلمين جميعاً بالعمل للآخرة وعدم إهمال الدنيا : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) ، كما أمر الرسول أيضاً بنصيحة الحاكم . ونهى رسول الله عن أشياء منها : الغيبة والنميمة وأكل مال اليتيم (وقتل النفس إلا بالحق) ، كما نهى عن الفخر وعن الظلم وعن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعن الغش وعن إيذاء المرأة والضعيف ، وعن الإضرار بالجار .

غير أن أهم الصفات التى دعا إليها الرسول وحذر من نقيضها ــ صفة الصدق ، وصفة الإخلاص .

خطبته فى معنى الإخلاص (١)

عن علقمة بن وقاص أنه سمع عمر بن الخطاب ، وهو يخطب الناس فقال :

---

(١) محمد خليل الخطيب : اتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام ص ٧٠ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها . فقال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لكى يقال :جرىء . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى وقال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به إلى ربه فعرفه نعمه فعرفها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت لك ، قال : كذبت ، ولكن فعلت ليقال : جواد . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار» (رواه مسلم والترمذى والنسائى)

النبي يثني على أصحابه (١)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :« صعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مالى أراكم تختلفون فى أصحابى أما علمتم أن حب آل بيتى وحب أصحابى فرضه الله تعالى على أمتى إلى يوم القيامة ؟ ثم قال . أين أبو بكر ؟ قال : هأنذا يارسول الله . قال . ادن منى . فضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجرى على خده ، ثم أخذه بيده وقال بأعلى صوته معاشر المسلمين هذا أبو بكر الصديق.

(١) المصدر السابق ص ٣٠٣ .

هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو صاحبي فى الغار ، صدقنى حين كذبنى الناس ، وآوانى حين طردونى ، واشترى لى بلالا من ماله . فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين . والله منه برىء . فمن أحب أن يبرأ من الله ومنى فليتبرأ من أبى بكر الصديق ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب »

ثم قال ﷺ : أين عمر بن الخطاب ؟ فوثب إليه عمر وقال : هأنذا يا رسول الله فقال : ادن منى . فدنا فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ورأينا دموع رسول الله ﷺ تجرى على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، هذا عمر بن الخطاب شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا الذى أمرنى الله أن أتخذه ظهيراً ومشيراً . هذا الذى يقول الحق وإن كان مراً ، هذا الذى لا يخاف فى الله لومة لائم . هذا الذى يفرق الشيطان من شخصه ، هو سراج أهل الجنة فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء . ثم قال : أين عثمان بن عفان ؟فوثب عثمان وقال : هأنذا يا رسول الله ، فقال : ادن منى فدنا منه وضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ، ورأينا دموعه تجرى على خـــده . ثم أخذ بيده ، وقال : يامعاشر المسلمين : هذا عثمان بن عفان . هذا شيخ المهاجرين والأنصار . هذا هو الذى أمرنى الله أن أتخذه سندا وختنا على ابنتى . ولو كان عندى ثالثة لزوجتها إياه ، هذا الذى استحيت منه ملائكة السماء . فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ثم قال : أين على بن أبى طالب ؟ فوثب إليه وقال : هأنذا يا رسول الله ؟ قال : ادن منى . فدنا منه ، وضمه إلى صدره ، وقبل بين عينيه ودموعه تجرى على خده ، ثم أخذ بيده . وقال بأعلى صوته : يا معاشر المسلمين ، هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا أخى وابن عمى وختنى ، وهذا لحمى ودمى وشعرى ، هذا أبو الحسن والحسين ، سيدى شباب أهل الجنة ، هذا مفرج الكرب عنى . هذا أسد الله وسيفه فى أرضه على أعدائه فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء وأنا منه برىء ، فمن أحب أن يبرأ من الله ومنى فليبرأ من على بن أبى طالب ،

وليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ثم قال : اجلس يا أبا الحسن ، فقد عرف لك ذلك » .

(أخرجه أبو سهل فى شرف النبوة . الرياض النضرة ، ج ٢٩ ، ٥٣ ، إن الله اختار أصحابى) .

* * *

حسبنا هذان المثلان السابقان من خطب رسول الله ﷺ ، وفى الخطبة الثانية لون من ألوان الدعاية الطيبة قام بها الرسول ليعلن الرضا عن هؤلاء الأربعة الكبار من أصحابه وهم الذين تولوا الخلافة من بعده كما هو معروف فى التاريخ .

غير أننا لا نستطيع أن نترك فصل (الخطبة النبوية) دون الوقوف قليلا عند أشهر خطب من خطب الرسول ، وهى الخطبة التى ألقاها فى :

حجة الوداع

وفيها يقول ﷺ . . . :

(أما بعد) أيها الناس .

اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . .

أيها الناس . . .

إن دماءكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ! ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير (السدانة) و (السقاية)[1] .

---

(١) أى خدمة الكعبة وسقاية الناس بها .

أيها الناس . . .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . .

إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . . فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً .

ألا — هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس :

إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى (١) .

ألا — هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس .

إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى فضل على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى .

ألا — بلغت ؟ اللهم فاشهد .

---

(١) وفى رواية : كتاب الله وعترته أهل بيتى .

قال السامعون : نعم .

قال رسول الله ﷺ : فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أرأيت لهذه الخطبة الجليلة كيف كانت بياناً صريحاً للعرب وتطبيقاً دقيقاً لمبادىء القرآن ، وإعلاماً قوياً بالمبادىء التى بنى عليها الإسلام :

إن أول شىء أوصى به رسول الله ﷺ أن ينسى المسلمون ديونهم التى كانت لهم فى الجاهلية ، وأن ينسوا كذلك دماءهم وثأرهم لهذه الدماء التى أسفكت الجاهلية وأن يتركوا ربا الأموال التى أقرضوها فى الجاهلية وأن يبدأ بربا العباس عمه ودم عامر بن عبد المطلب .

ثم دعا النبى ﷺ كذلك إلى نبذ التفاخر بمآثر الجاهلية ، واستثنى منها مفخرتين فقط هم السدانة أى: خدمة الكعبة ، والسقاية وهى سقى الحجاج فى الكعبة .

ثم دعا الناس إلى حسن معاملة المرأة ، وأوضح لهم حق الرجل عليها ، وحقها عليه . وقال للعرب: « اتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » ثم أوصى ﷺ قومه بمحافظة كل منهم على مال أخيه وعلى دمه ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ولا يحل لامرىء قتل أخيه إلا بالحق .

ثم قال لهم : لقد تركت فيكم شيئين إن حافظتم عليهما وأخذتم بهما لن تضلوا أبداً . هذان الشيئان هما كتاب الله وسنة رسوله .

وأخيراً دعاهم إلى نبذ التفرقة العنصرية أو غير العنصرية ، وكان كلامه ﷺ فى هذه النصيحة الأخيرة أوضح من ضوء الشمس . فقالها للمسلمين كلمة صريحة وحازمة .

« ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » .

وكم كان رسول الله بليغاً كل البلاغة ومبيناً أفصح إبانة حين كان يختم كل فقرات خطابه بهذه العبارة :

ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

لقد عرف التاريخ خطباء كثيرين من اليونان والعرب كانوا يستخدمون هذه الطريقة من طرق الخطابة وهى أنهم يختمون كل فقرة من فقرات كلامهم بجملة معينة يكررونها ويلحون فى تكرارها حتى تفصل بين فقرة وأخرى أو معنى ومعنى ، وتنقل السامع إلى الفقرة التالية أو الفكرة التى تأتى بعد ذلك وهكذا .. ولكن التاريخ قد يعجز عن الإتيان بمثل هذه العبارة التى كان يختم بها محمد جزءاً من أجزاء خطبته وهى قوله .. ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

إنها عبارة لها من قوة الإعلام وتنبيه الأذهان ، وتسجيل الشهادة على كل من حضر هذه الخطبة ما لا يمكن أن يكون لعبارة أخرى فى موضع كهذا فى موقف كهذا من رسول كريم كهذا الرسول .

سادسا: أعنى سادس المجالات التى اتسعت لخطب النبى ـ مجال استقبال الوفود التى تأتى لتعلن إسلامها بين يديه ،أو يأتى بعضها بعد إسلامها لكى تستزيد من عمالها وتزداد به هداية ،وكان المؤمنون الأوائل من الصحابة يشاركون فى هذه الفرص ويردون على خطباء الوفود إذا أذن لهم الرسول بذلك .

قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ . فقال : أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادى ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله نعرفه ،قال : فما فعل ؟ قالوا: هلك ،قال : ما أنساه بعكاظ فى الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس ، ويقول :

أيها الناس :
اسمعوا وعوا

من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت : إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ،وبحر يفور ،أقسم قس بالله قسما حقاً .. لئن كان فى الأرض

رضا ليكونن بعده سخط . إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : أفيكم من يروى شعره ؟

فأنشده بعضهم :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إليك ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

سابعاً : وكثيراً ماتكون خطب الرسول على شكل وصايا لجماعات من المسلمين فى المدينة أو لبعض الوفود التى تفد إليه فيها ، ومن الأمثلة على ذلك وصيته لوفد الأزد .

روى علقمة بن يزيد الأزدى عن جده قال :

وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه مارأى من سمتنا وزينتنا فقال : ما أنتم ؟ قلنا : مؤمنون ، فتبسم رسول الله ، وقال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قلنا: خمس عشرة خصلة، منها خمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ، فنحن عليها إلا أن نكره منها شيئاً ، فقال رسول الله : ما الخمس التى أمرتكم بها رسلى ؟ قلنا: أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، قال : ما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قلنا أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله وأن نقيم الصلاة ونؤدى الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا ، قال وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية قلنا : الشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء

والصدق فى الحرب عند اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال رسول الله ﷺ: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، ثم قال : وأنا أزيدكم خمساً فتم لكم عشرون خصلة : إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا مالا تأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه زائلون . واتقوا الله الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون . وارغبوا فيما عليه تقدمون ، وفيه تخلدون .

فتفرقوا وقد حفظوا وصيته عليه الصلاة والسلام .. وعملوا بها [١] .

* * *

أتينا بهذه الوصايا الأخيرة لتكون نموذجا من خطب الرسول ﷺ على هذه الصورة ، ولكى تكون مثلا حياً من طريقة الرسول فى تعليم الدين ، وهى مثل يقوم كما رأيت على الحوار اللطيف بين الأستاذ والتلاميذ ، كما يقوم كذلك على مسايرة عقول السامعين ، وإضافة المعلومات الجديدة على أساس من المعلومات القديمة — فعل المعلم البارع والمربى الماهر والمحدث اللبق .

(١) الأنوار المحمدية للنبهانى ص ١٩٢ .

الفصل الثامن
الدعاية الشعرية في عهد الرسول

رأينا من قبل كيف أن أهم وسائل الإعلام فى عهد الرسول وسيلة الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة ، أما الكلمة المسموعة فتمثلت فى خطب النبي وخطب الصحابة وفى القصائد الشعرية ، وأما الكلمة المكتوبة فكانت لها صورة واحدة لم تكن تعدوها إلى غيرها فى حياة الرسول والصحابة ، ونعنى بها صور الرسائل التى بعثها النبى إلى الملوك ورؤساء القبائل المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وفى الرسائل التى وردت عن النبى والصحابة فى غير هذا الغرض .

ولكن السؤال الذى يتبادر إلى أذهاننا الآن هو : ما منزلة الشعر بين الوسائل الإعلامية التى تعتمد على الكلمة المسموعة ؟ أو بمعنى آخر : أيهما كان أقوى تأثيراً فى الجموع العربية وأدعى إلى نجاح الرسالة المحمدية ؟ الخطابة أم الشعر ؟ .

مما لاشك فيه أن الخطب — ونخص بالذكر منها خطب صاحب الدعوة — كانت أقوى فى باب الإعلام والدعاية من جميع الوسائل الأخرى التى انطوت تحت عنوان : « الكلمة المسموعة » ومن السهل علينا أن نلاحظ قبل كل شىء أن العرب على عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين وإلى أواخر الدولة الأميرية كانوا أهل خطابة أكثر منهم أهل كتابة ، ذلك أن الخطابة ملائمة للبداوة والكتابة وليدة الحضارة وأكثر ملاءمة لها من الخطابة ، ولذلك لم يعرف المسلمون الكتابة الفنية بالمعنى الصحيح إلا بعد دخول الأمم الأجنبية فى الإسلام ، ومنها دولة الفرس بنوع خاص ؛ وهذا هو السبب فى أن الخطابة بقيت أولى وسائل الإعلام ، والتأثير عند العرب طول العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين وجزء كبير من العهد الأموى ،

ثم هذا هو السبب فى أن العرب فى عهد بنى أمية كانوا ينظرون إلى الخطيب نظرة أعلى من نظرتهم إلى الكاتب .

أما الشاعر فكان فى المنزلة التى تلى منزلة الخطيب ،ومن هنا كان النبى وخلفاؤه من بعده أشد حرصاً على الخطيب منهم على الشاعر ، ولولا أن التقاليد العربية القديمة أعطت الشاعر أهمية عظيمة لكان من الجائز أن يهمله النبى والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم احتفظوا به وبشعره لأن شعره كـــان يترك أثره فى نفوس العرب الذين تعودوا سماعه منذ العصر الجاهلى .

وإليك هذين الخبرين : أحدهما عن شاعر والآخر عن خطيب :

فأما خبر الشاعر فهو هنا : (الأسود بن شريح) وقد جاء إلى النبى ينشده بعض المدائح واستحسنه مرتين ، إذ دخل عليهما عمر ، والشاعر لا يعرفه ، فصاح قائلا : واثكلاه —من هذا الذى أسكت له عند النبى؟ فقال النبى : هذا عمر ، هذا رجل لايحب الباطل .

يؤخذ من هذا الخبر أن الشعر كان ينظر إليه منذ ظهور الإسلام على أنه باطل ، وذلك مصداق لما جاء فى القرآن الكريم : « والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون * إلا الذين آمنوا » .. إلخ .

معنى ذلك أن الشعر كـــان فى زمن النبى والخلفاء الراشدين يعتبر وسيلة إعلامية من الدرجة الثانية بعد الخطبة .

وأما خبر الخطيب فهو هنا (سهل بن عمرو) وقد أسر فى بدر فأشار عمر على النبى بكسر ثنيتيه السفليين ليصبح عاجزاً عن الكلام ، وكان مشقوق الشفة السفلى ، فأبى النبى ذلك وقال : « عسى أن يقـــوم قياماً لاتذمه » فما زال عمر حتى رآه فى حروب الردة أيام أبى بكر يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام وصدقت فيه نبوءة رسول الله ﷺ ،

ووضحت حجته فى الحرص على هذا الخطيب الذى قــد ينتفع به فى يوم من الأيام .

* * *

والخلاصة حتى الآن أن النبى ﷺ — وهو داعية الإسلام — لم يكن شاعراً « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وإنما كان خطيباً ومحدثاً ، ومن ثم كانت خطبه وأحاديثه من أكبر وسائل الإعلام والدعاية للإسلام وذلك بعد القرآن ، ومع هذا وذاك فإن محمداً لم يتجاهل الشعر ولم يرد الشعراء وهو يعلم جيدا أن لهؤلاء مــكانة كبيرة فى نفوس العرب منذ الجاهلية . ولذلك سمع الرسول شعراً فى مدحه ومدح الدين الذى جاء من أجله كما سمع الرسول شعرا فى ذم قريش وهو منهم وهم منه . وكان كبير الشعراء الذين هجوا قريشاً أمام الرسول (حسان بن ثابت) ، وقد أعرب له الرسول عن تعجبه من أنه يهجو قريشاً وهم أهله وعشيرته ، فأجابه حسان : أنا أعلم ذلك يارسول الله ، ولكنى أستلك منهم كما تسل الشعرة من العجين » . فسكت الرسول العظيم .

* * *

ولنا بعــد ذلك أن نستعرض طائفة قليلة من الأشعار التى قالها حسان ابن ثابت فى مدح النبى ﷺ (١) .

نبى أتانا بعــد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان فى الأرض تعبد
فأمسى سراجــاً مستنيراً وهــادياً ... يلــوح كمــا لاح الصقيل المهند
وأنــذرنــا نــاراً وبشر جنــة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمــد
وأنت إلــه الحــق ربى وخالقى ... بذلك مــا عمرت فى الناس أشهد
تعــاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلهاً أنت أعلى وأمجــد
لك الخلــق والنعماء والأمــر كله ... فإيــاك نستهدى وإيــاك نعبــد

(١) سمط اللآلىء ص ٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ ص ٩٦ .

لأن ثواب الله كـــل موحـــد جنان من الفردوس فيها يخلد

ألا ترى معى أن شعر حسان فى هذه الأبيات يوشك أن يكون نظما لبعض آيات القرآن الكريم التى تذكر أن محمداً بعثه الله بعدفترة من الرسل، وأنه بعث والناس يعبـــدون الأصنام بدلا من عبادة الله تعالى ، وأن الله أرسله إلى الخلق هادياً وبشيراً ونذيراً وسراجا منيراً ، وأنه بشر بالجنة وأنذر بالنار، وما بعد الحياة الدنيا شيء غيرهما وأن الله تعالى أعلى مما يعبدالناس غيره من الحجارة وغيرها ، وأن الأمر كله لله، له الخلق وله الحمد وهو وحده رب النعم التى ينعم بها الناس ، وأن الجنة هى المكان الذى وعد به كل مؤمن بالله تعالى ومقر بوحدانيته .

وكل هذه المعانى إسلامية بحتة وليس للعرب عهد بها قبل ظهور الدين الجديد — وانظر إلى شاعر آخر — وهو كـــعب بن زهير — كيف مدح الرسول ﷺ بقصيدة عظيمة أعجب الرسول نفسه بها فخلع بردته على قائلها تكريماً له ، وفيها يقول (١) :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لمـــا أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف (٢) عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل

لا يفرحون إذ نالت سهامهمو قوماً ، وليسوا مجاذيعاً إذا نيلوا

* * *

على أن الشعراء المحيطين بالنبى كان عليهم أن يقوموا بواجب آخر — فضلا عن مدح الرسول — وهذا الواجب — فى نظرهم — هو هجاء أعداء الإسلام من المشركين فى مكة واليهود فى خيبر وغيرها من المراكز اليهودية

(١) كتاب جمهرة أشعار العرب . طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ ص ١٥٠ .

(٢) أنـــكاس جمع نـــكس بـــكسر النون وهو الجبان والـــكشف بضم الشين الذين ينـــكشفون للعدو .

ومن قول حسان فى هجاء خيبر على سبيل المثال (١) :

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد ... أو عبد شمس وأصحاب اللوا الصيد
أو من بنى نوفل أو ولد مطلب ... لله درك لم تهتم بتهديد
أو كنت من زهرة الأبطال قد علموا ... أو من بنى خلف الزهر الأماجيد
ياآل تيم ألا تنهى سفيهكمو ... قبل (اللقاء)(٢) بأمثال الجلاميد

وقال يهجو أبا لهب (٣) :

أبا لهب أبلغ بأن محمداً ... سيعلو بما أدى وإن كنت راغما
وإن كنت قد كذبته وخذلته ... وحيداً وطاوعت الهجين الضراغماً
ولو كنت حرا فى أرومة هاشم ... وفى سرها منهم منحت المظالما
سمت هاشم للمكرمات وللعلا
وغودرت فى كاب (٤) من اللؤم جاثماً

وقال حسان يهجو أبا سفيان (٥) .

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم
هو الغصن ذو الأفنان لا الواجد الوغد
ومالك فيهم محتد يعرفونه ... فدونك لصق مثلما لصق القرد
وأبلغ أبا سفيان عنى رسالة ... فمالك من إصدار عزم ولاورد
وإن سناء المجد من آل هاشم ... بنو عبد مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أفناء زهرة منكمو ... كريماً ولم يقرب عجائزك الحمد
ولست كعباس ولا كابن أمه ... ولكن هجين ليس يورى له زند
وكنت دعياً نيط فى آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

---

(١) ديوان حسان ص ٨٤ .

(٢) فى الأصل الفئات .

(٣) ديوان حسان بن ثابت ص ٨ .

(٤) هكذا فى الأصل .

(٥) الديوان ص ٩١ .

وأفحش حسان فى هجاء أبى سفيان حتى قال فيه(١) :

غضضت بفرع من أبيك وخاله ــــ وغضت بنو النجار بالسكر الرطب
فلست بخير من أبيك وخاله ــــ ولست بخير من مفاضلة الكلب
ولست بذى دين ولاذى أمانة ــــ ولست بحر من لؤى ولا كعب

* * *

ثم كان على الشعراء الملازمين للنبى ﷺ واجب ثالث وهو تهنئة الرسول بيوم النصر و رثاء القتلى من ذويه وأصحابه فى ميدان الحرب :

قال حسان فى يوم بدر يرثى قتلى المسلمين فى هذه المعركة(٢) :

ألا ياقوم هل لما حـــم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تذكرت عصراً قد مضى فتهافتت
بنـــات الحشا وانهل منى المدامع

صبابة وجد ذكرتنى أحبة ــــ وقتلى مضوا منهم نقيع ورافع
وسعد فأضحى فى الجنان وأوحشت ــــ منازلهم والأرض منهم بلاقع
وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ــــ عذاب المنايا والسيوف اللوامع
دعـــا فأجابوه بحق وكلهم ــــ مطيع له فى كل أمر وسامع
فما بدلوا حتى توافوا جماعة ــــ ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهم يرجون منه شفاعة ــــ إذا لم يكن إلا النبيين شافع
وذلك يا خير العباد بلاؤنا ــــ ومشهدنا فى الله والموت نافع
لنا القدم الأولى إليك وخلفنا ــــ لأولنـــا فى طاعة الله تابع
ونعلم أن الملك لله وحـــده ــــ وأن قضاء الله لابد واقـــع

* * *

(١) الديوان ص ٦٢ .
(٢) الديوان ص ٥٨ .

وقال حسان يوم فتح مكة من قصيدة أولها :

عفت ذات الأصابع فالجواء   إلى عـذراء منزلها خلاء

ومنها :

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا   وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم   يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جندا   هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد   قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا   ونضرب حين تختلط الدماء
وقال الله قد أرسلت عبدا   يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقومى صدقوه   فقلتم : ما نجيب وما نشاء
وجبريل أمين الله فينا   وروح القدس ليس له كفاء

ومنها :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى   فأنت مجوف نخب هواء
هجوت محمداً فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم   ويمدحه وينصره سواء
لسانى صارم لا عيب فيه   وبحرى لا تكدره الدلاء

* * *

وأخيراً كان من عمل الشعراء الملتفين حول النبى ﷺ أنهم يردون على الشعراء الذين كانوا يهجونه ﷺ تقرباً للمشركين ، ومن هؤلاء شاعر يقال له (ابن الزبعرى) وقد ظل يهجو النبى حتى أسلم فانقلب شاعراً من شعرائه وأنصاره بعد أن كان من أعدائه وخصومه ، وقد رد عليه حسان ابن ثابت فى قصائد كثيرة منها على سبيل المثال(١) .

لاطت قريش حياض المجد فافترطت   سهم فأصبح منه حوضها صفرا

---

(١) الديوان ص ٧٨ .

وأوردوا وحياض المجد طامية فدل حوضهمو الوراد فانهدرا

ومنها :

يا آل سهم فإنى قد نصحت لكم لأبعثن على الأحياء من قبرا
ألا ترون بأنى قد ظلمت إذا كان (الزبعرى) لنعلى (ثابت) خطرا
كم من كريم يعض الكلب مئزره ثم يفر إذا ألقيته حجرا
لولا النبى وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكرا

* * *

وهكذا كان الشعر يقوم فى خدمة النبى ﷺ بكل هذه الواجبات التى ألقاها على كاهله ظهور الإسلام .

ولكنا نعود فنقول إن الرسول — فيما يظهر — كان لايعول كثيرا على هذه الوسيلة الإعلامية أو هذا الشكل من أشكال الدعاية ، وذلك أن الشعر مهما عظم شأنه فى تلك الفترة لايمكن أن يقاس من هذه النواحى بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو بخطب الرسول ﷺ أو بالقدوة الحسنة التى امتاز بها المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام .

ومما لاشك فيه أن الأفضلية كانت لهذه الوسائل الإعلامية التى أشرنا إليها ووقفنا عند كل واحدة منها ، وكانت كلها مقدمة على وسيلة الشعر الإسلامى الذى لان أسلوبه بظهور هذا الدين ولم يصلح فى جزالة الشعر الجاهلى ومتانة نسجه وقوة بنائه ، ذلك أن الشعراء فى الإسلام لانت عريكتهم ورقت عواطفهم وامتلأت نفوسهم بالمعانى الجديدة والمفاهيم الجديدة والقيم الجديدة وهى القيم التى من شأنها أن تخلق من العربى فى الإسلام رجلا بعيداً عن العنف وعن الحمق وعن البطش وعن الظلم ، والشعر عند العرب فى الجاهلية كان يبنى على الشر فى أكثره ، وذلك بغض النظر عن بعض الحكم التى وردت فى المعلقات والتى كانت تعبيراً عن تجاربهم فى الحياة .

ولنا أن نأخذ الدليل على ذلك من حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ .

فقد انقسم النقاد القدماء حول حسان قسمين :

القسم الأول : وهو الأقل — يحكم له حكما مطلقاً ويقول إنه من أجود الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

القسم الثانى : وهو الأكثرية من النقاد ومعهم حسان بن ثابت نفسه — يوازن بين جودة شعره فى الجاهلية وسقوطه فى الإسلام .

ومن أشهر رجال القسم الأخير الأصمعى ، وقد أثرت عنه ثلاث روايات :

الرواية الأولى وتقول : إن الشعر نكد ، يقوى فى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، وهذا حسان كان من فحول الشعراء فى الجاهلية — فلما جاء الإسلام سقط شعره[١] .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر . ثم قطع متنه فى الإسلام لحال النبى ﷺ[٢] .

والرواية الثالثة تقول : طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان « أى ضعف » . ألا ترى حسان بن ثابت كان قد علا فى الجاهلية فلما دخل شعره فى باب الخير : من مراثى النبى ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لان شعره . وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة فى صفات الديار والرحال والهجاء والتشبيب بالنساء والخمر والخيل والحرب والافتخار ، فإذا أدخلته فى باب الخير لان[٣] .

وقيل لحسان بن ثابت نفسه ، لان شعرك وهرم يا أبا الحسام .

فأجاب عن ذلك بقوله :

يا ابن أخى إن الإسلام يحجز عن الكذب فلا يجىء الشعر جيداً[٤] .

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ، ٤ .
(٢) الشعر والشعراء ص ١٧١ .
(٣) الموشح ص ٦٢ .
رأيت هذه الروايات الثلاث فى كتاب (حسان بن ثابت شاعر الرسول) للدكتور سيد حنفى حسنين — الحلقة رقم ٣٠ من مسلسلة أعلام العرب ص ٤٣ .
(٤) أسد الغابة جـ ٢ ، ٤ .

الباب الثالث

الدعاية والإعلام

في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد

نريد أن نلقى على أنفسنا هذا السؤال :

ماذا كان عليه الحكم الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ؟ مادام شكل الإعلام ونظام الاتصال بالناس مبنياً فى كل زمان ومكان على شكل الحكومة القائمة ؟

أجل — لكل نوع من أنواع الحكومات فى العالم نظام إعلامى يتفق معه ويوائمه ، وهذا قول صحيح بالقياس إلى الحكومات القديمة والحديثة على السواء ، والإعلام أو الاتصال بالناس هو الوسيلة الوحيدة لإيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ أقدم العصور ، وحاجة الحاكم إلى هذا الاتصال من حاجة المحكوم إليه .

غير أن شكل الحكومة فى عهد الخلفاء الراشدين كان يخالف شكل الحكومة عند الخلفاء الأمويين فالعباسيين وسائر الحكومات الإسلامية التى ظهرت بعد ذلك إلى اليوم ، وبناء على ذلك وجب أن يكون للإعلام أو الاتصال فى حكومة الخلفاء الراشدين صورة مخالفة للإعلام أو الاتصال فى عهود الحكومات الإسلامية التى أتت بعد ذلك .

وحسبنا أن نلفت النظر أولا إلى الطريقة التى اختار بها المسلمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليا — رضى الله عنهم . وهى طريقة مبنية على الانتخاب الحر فى أكثره ، أما الخلافة الأموية فالعباسية وما جاءت بعدها من الحكومات الإسلامية فقد بنيت على الوراثة ، وفرق كبير بين الانتخاب والوراثة — وهذا معنى ما قاله المؤرخون الإسلاميون القدماء من أن الخلافة الإسلامية بعد على بن أبى طالب تحولت إلى ملك عضوض كالملك الذى شهده الفرس أو الروم ، ومن إليهم .

وقد نستطيع أن ننظر نظرة سريعة إلى أنواع الحكومات عبر التاريخ ، وخاصة فى البلاد الأوربية ذاتها ، فنجد منها الحكومات الآتية :

الحكومة الديمقراطية :

ولهذه الديمقراطية أشكال مختلفة ، ولكن من المحقق أن الشبه بعيد بين هذه الأشكال جميعها من جهة ، وشكل الديمقراطية فى حكومة الخلفاء الراشدين من جهة أخرى ، ذلك أن الديمقراطية الإسلامية على أيدى الخلفاء الراشدين كانت تتمثل فى مظهر واحد فقط ، هو مظهر «أهل الحل والعقد» وهو أشبه بمجلس يتألف من كبار الصحابة ويستعين به الخليفة فى تسيير أمور المسلمين ، ولايكاد الخليفة يقطع فى أمر من هذه الأمور حتى يرجع إلى أولئك الصحابة . أما عامة المسلمين فلم يكن لهم رأى معمول به ، ولا يمنع ذلك واحداً من أولئك العامة — رجلا كان أو امرأة — أن ينتقد الخليفة فى بعض تصرفاته أو يعترض عليه فى بعض أحكامه . فإذا وافق هذا الاعتراض كلام الله أو كلام رسوله لم يسع الخليفة إلا النزول عن رأيه والاعتراف لهذا الرجل أو المرأة بأنه أو بأنها على حق ، ومن هنا جاء قول عمر فى بعض مواقفه : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

ومنها الحكومة الأوتوقراطية :

وهى حكومة الفرد المستبد ، ومن المؤكد أنها أبعد أشكال الحكومات عن حكومة الخلفاء الراشدين ، وهل كان واحد من أصحاب النبى ﷺ أبى بكر وعمر وعثمان وعلى يستبد برأيه بهذا المعنى ؟ لقد مدحهم النبى فى حياته وأثنى عليهم جميعاً ودعا لهم جميعاً وبشرهم جميعاً بالجنة ، وماذلك إلا لأن كل واحد منهم كان صورة من النبى نفسه فى جميع تصرفاته ؛ وحركاته وسكناته ، وكان كأنما يفكر بعقل النبى وينظر بعين النبى ويسمع بأذنه ، ويحس بقلبه ، ويبطش بيده إذا لزم الأمر ، ولم يمنع ذلك من أن يستقل كل واحد منهم بشخصيته التى تظهر فى سيرته . وسنعرض لجانب واحد من جوانبها فقط ، هو الجانب الإعلامى .

ومنها الحكومة الثيوقراطية :

وهى حكومة ترفع الحكام على أساس الدين إلى مرتبة فوق مراتب البشر ، ثم هى الحكومة التى تجعل لرجال الدين منزلة فوق منزلة المحكومين الذين ليست لهم هذه الصفة .

ولسنا بحاجة إلى التدليل على أن هذه الصورة من صور الحكم لاوجود لها فى حكومات الخلفاء الراشدين ، وذلك بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء كما بينا كانوا لايقطعون فى أمر من أمور المسلمين حتى يردوه إلى كبار رجال الدين ، وهم صحابة رسول الله ﷺ .

ومنها الحكومة الأوليجاركية :

وهى حكومة الصفوة أو الأقلية من الأشراف والسادة . وقد جاء الإسلام فساوى بين الناس ، وأنكر مثل هذه التفرقة . كما جاء فى الأثر عن رسول الله ﷺ — قوله :

« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

لم تكن حكومة الخلفاء الراشدين واحدة من هذه الحكومات التى أشرنا إليها ، وإنما كانت طرازاً خاصاً لم يعرفه الشرق ولاالغرب .

كانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم الديموقراطية بالمعنى الذى شرحناه وهو حكم الرعية بشرط أن يستعين الخليفة فى حكمها (بأهل الحل والعقد) من هذه الرعية .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم المساواة ، وذلك بين الحاكم والمحكوم ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وفى ذلك يقول الرسول فى حجة الوداع (ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى) . (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى الحرية ، فلكل فرد فى المجتمع الإسلامى حرية كاملة فى أن يوجه النقد للخليفة وذلك كما قلنا : صعد عمر بن الخطاب المنبر يوما وقال للناس : إن أخطأت فقومونى ،

فانبرى له أحد الحاضرين وقال : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا ، فما كان جواب عمر إلا أن قال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من إذا أخطأت قومنى بسيفه » .

وكانت حكومة الخلفاء الراشدين تفهم معنى العدل ، ولا نعلم حكومة فى تاريخ العالم كانت تلتزم بالعدل بالقدر الذى ظهر فى حكم الخلفاء الراشدين .. وأخبار عمر بن الخطاب فى هذا المجال أشهر من أن يشير إليها البحث ، لا نكاد نستثنى من هذا الحكم إلا الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رضى الله عنه ، فقد كان عثمان يفهم العدل بصورة تخالف ما كان عليه أبو بكر وعمر . وربما من أجل ذلك قامت (الفتنة الكبرى) التى اشتهر أمرها فى التاريخ الإسلامى ، وسنقف عندها فى الكلام عن الإعلام فى زمن عثمان .

ترى ما الذى جعل لحكومة الخلفاء الراشدين شكلا مخالفاً لجميع الحكومات الحديثة فى الإسلام ؟

إن الذى جعل لها ذلك هو الحقيقة القائلة بأن القصد الأول للخلفاء الراشدين هو المحافظة التامة على تراث النبى بالصورة التى تركه بها ، أو بأن الشأن الأول للخلفاء الراشدين كان للعقيدة الإسلامية كما تركها النبى بعد فراغه من أداء الرسالة .

وهذه الحقيقة السابقة هى التى نستطيع أن نفسر على أساسها جميع الأعمال التى صدرت عن الخلفاء الراشدين ، ومنها أعمال القضاء ، وأعمال السياسة ، وأعمال التربية والتعليم ، ومنها — بطبيعة الحال — أعمال التوسع فى الفتح .

فهل كانت الفتوحات الإسلامية بعد وفاة الرسول لمجرد الغلبة والسلطان أو لإشباع شهوات الغزو والقتال وغريزة للصراع ؟ كلا ثم كلا .

وننظر فى سيرة الخلفاء الراشدين فنرى أنهم كانوا مقيدين كل التقييد بسيرة الرسول ، فما دام الرسول لم يكن يهدف من غزواته إلى الجاه

والسلطان، وإنما كان يهدف إلى أمرين هما: نشر الدعوة الإسلامية وحماية هذه الدعوة فى داخل المدينة وفى خارجها ، فكذلك كان الخلفاء الراشدون لايهدفون وراء الفتوحات إلا إلى هذين الغرضين ولاشىء غير ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فما نظام الإعلام ، أو ما هى وسائل الاتصال التى كان يمارسها الخلفاء الراشدون بناء على هذه الحقيقة التى شرحناها ؟ وإلى أى حد نجحت هذه الوسائل فى إيجاد التفاهم بين الحاكم والمحكوم فى عهد أولئك الخلفاء بوجه عام ؟

مما لاشك فيه أن حكومات الخلفاء الراشدين ترسمت طريق الرسول فى أكثر المجالات الإعلامية التى ظهر فيهانشاطه ﷺ ، ثم زادت عليهامجالات أخرى دعت إليها الظروف المحيطة بكل واحد من أولئك الأربعة ، وسيشرح هذا الباب بعض هذه المجالات وما أحاط بها من ظروف .

من أجل ذلك اقتدى الخلفاء الراشدونبالرسول فى التركيز على الوسائل الإعلامية الآتية :

أولا — وسيلة القرآن .

ثانياً — وسيلة الحديث .

ثالثاً — وسيلة الخطابة .

رابعاً — وسيلة الحج والعمرة لله .

خامساً — وسيلة القدوة الحسنة .

سادساً — وسيلة الفتوح .

غير أنه فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالذات وجد أنه ابتعد عن السياسة الإعلامية التى سنها الشيخان من قبل «أبو بكر وعمر». واعتذر عن ذلك بأنه يرى مصلحة المسلمين تتحقق بطريقة أو أخرى غير طريقة الشيخين ، ومن ثم طفق عثمان يخص أقرباءه بالولاية على الأقاليم، ويخص الباقين منهم بكثير من الهدايا التى يأخذها من بيت المال . وكان يسمى هذا المال (مال الله) ، واعترض الصحابة على ذلك وقالوا إنه (مال المسلمين) والفرق بين المعنيين عظيم .

من أجل هذه الظروف — ونعنى بها ظروف المعارضة التى أدت إلى الثورة — ظهرت الحاجة ماسة إلى (الدعاية) ، ولكن هذه الدعاية لم تكن من جانب عثمان لتبرير مواقفه التى سخط عليها كبار الصحابة ، وإنما كانت من جانب الصحابة وأبناء الصحابة ، وقد انتشروا فى مصر والشام وقاموا فيهما وفى غيرهما من الأقطار بهذه الدعاية الخطيرة ، وهى الدعاية التى قتلت عثمان بن عفان ، وهى وحدها المسئولة عن قتله .

ولكن هذه الدعاية — كما سنشرح ذلك فى موضعه من الكتاب — لأمرين لا ثالث لهما :

أولهما — السياسة الإعلامية الرشيدة التى سار عليها الشيخان أبوبكر وعمر وهى السياسة المبنية على اتباع رسول الله ﷺ لايحيدان عنه قيد أنملة .

وثانيهما — انفرد عثمان بمخالفة هذه السياسة الإعلامية الرشيدة إلى الدرجة التى ظنها كبار الصحابة خروجاً على سنة رسول الله ، ولم يكن للصحابة كل الحق فى ذلك لولا أن صورة الحكم التى يمثلها الشيخان كانت لم تزل ماثلة فى أذهانهم ، ولولا أن بعضهم كانوا من صحابة رسول الله ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويشاركونه بأفكارهم وأموالهم وجهودهم التى بذلوها معه فى سبيل الإسلام .

هكذا كادت حركة (الإعلام) فى عهد الخلفاء الراشدين تكون صورة دقيقة من حركة (الدعوة) على يد الرسول ، مع فارق واحد لابد أن نذكره . وهو الفارق الذى لابد من وجوده بين النبى والحوارى ، أو بين الأستاذ والتلميذ ، أو بين المتبوع والتابع .

ومع فارق آخر لابد أن نذكره أيضاً وهو أن عثمان بن عفان كان يفهم الحكم والعدل بصورة تخالف صورتها عند أبى بكر وعمر ، ولذلك لم يكن من السهل على المؤرخ أن يصف عثمان بالخروج على سنة الرسول وابتداع سنة أخرى بعيدة عن سنته ﷺ .

الفصل الأول
الإعلام في عهد أبي بكر

كانت أولى الحركات الإعلامية التى أدت إلى انتخاب الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه تتمثل فيما عرف فى التاريخ باسم :

يوم السقيفة

فقد انعقد فى ذلك اليوم ما يشبه المؤتمر السياسى الكبير . الغرض منه هو اختيار خليفة لرسول الله ﷺ بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وحضر المؤتمر كثيرون من زعماء المهاجرين والأنصار ، ولم يكد يتخلف زعيم منهم عن الحضور ، حتى (سعد بن عبادة) زعيم الخزرج — وكان مريضاً فى ذلك اليوم — فحمله قومه إلى مكان الاجتماع ليعطى كلمته فيه .

انتشر فى المدينة نبأ وفاة الرسول : فبادر الأنصار إلى التجمع فى (سقيفة بنى ساعدة) ، وطفقوا يتحدثون فى أمر الخلافة دون أن يشركوا معهم أحداً من المهاجرين ، وكادت الفتنة تندلع نارها لهذا الخبر ، ولكن لم يقدر لهذه الفتنة أن يتجاوز لهيبها باب السقيفة .

فأما أبو بكر وعمر — وهما شيخا المهاجرين — فما كادا يعلمان بهذا الاجتماع الذى أسرع به الأنصار حتى بادرا بالذهاب إليه ، وهناك التقيا بزعماء الأوس والخزرج ، وإذ ذاك اتخذ المؤتمر لنفسه صورة متكاملة تجمع زعماء الفريقين ، وأتيحت الفرصة لكل زعيم منهم أن يلقى كلمته .

فتكلم زعيم الأنصار سعد بن عبادة يبين حقهم فى الخلافة فقال :

يا معشر الأنصار . لكم سابقة فى الدين ، وأفضلية فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمدا عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قومه

إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به حتى إذا كان متى أراد الله بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيد المقاد صاغراً داخراً ، حتى أثمن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ؛ وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس ».

ثم خطب أبو بكر يوضح حق المهاجرين فى الخلافة وكان عمر يريد الكلام ، فقال أبو بكر : على رسلك . ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم — فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله .

وفى رواية أخرى أن أبا بكر قال بعد ذلك :

إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج ، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، وإن العرب لاتدين إلا لهذا الحى من قريش. منا الأمراء ومنكم الوزراء .

ثم تقدم عمر بن الخطاب للكلام فقال :

(إن العرب تمتنع أن تولى أمرها إلا لمن كانت النبوة فيهم ، وولى أمرهم منهم) . وكأن عمر بذلك أيد صاحبه أبا بكر فى الرأى الذى

جهر به ، وكأنهما كانا يتفقان فيما بينهما عليه قبل أن يأتيا لحضور يوم سقيفة بنى ساعدة .

ثم جاء دور أبى عبيدة ، وهو أحد زعماء المهاجرين أيضاً ، فقال :

« يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير » .

وتوالى المتحدثون واحدا بعد الآخر بعد ذلك وإذا بالمجتمعين يسمعون أبا بكر مرة ثانية ينادى بأعلى صوته قائلا :

يا قوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .

وهنا انبرى عمر وقال : هذا أبو بكر إن شئتم فبايعوه .

ثم انبرى أبو عبيدة وقال مثل ذلك .

ثم سمع المجتمعون عمر يقول للمرة الثانية :

لا والله يا أبا بكر ، لا نتولى هذا الأمر عنك فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين[1] ، فمن هذا الذى ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

وسمع القوم — وفيهم أبو بكر . مقالة عمر . ومع ذلك تقدم أبو بكر إلى عمر وقال له :

---

(١) كان النبى صلى الله عليه وسلم طريح الفراش أيام المرض التى سبقت الوفاة ، فأمر زوجته السيدة عائشة بنت أبى بكر أن تبعث إلى أبيها من يقول له إن رسول الله يأمرك أن تؤم الناس فى الصلاة ، فترددت السيدة عائشة فى أول الأمر حتى لا تتهم بأنها تهيء الأمر لأبيها ليكون الخليفة بعد رسول الله ولكن الرسول ألح عليها فى ذلك ، فلم تجد بداً من تبليغ الرسالة إليه فجاء مسجد الرسول وأم الناس فى الصلاة .

ابسط يدك أبايعك يا عمر .

فقال عمر : أنت أفضل منى .

فقال أبو بكر : وأنت أقوى منى .

فقال عمر : إن قوتى لك مع فضلك، ولا ينبغى لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك ، إنك صاحب الغار مع رسول الله . وثانى اثنين ، وقد أمرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصليت بالناس ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر .

ثم وثب عمر فأخذ بيد أبى بكر وبايعه ، فوثب الجميع من علية الصحابة يتسابقون إلى البيعة .

ثم بايعه زعيم الأوس (بشير بن سعد) وهو يقول :

« كرهت أن أنازع قوماً فى حق جعله الله لهم » .

ورأى الخزرج الحاضرون هذه الحركة فلم يبق لهم عزم وراء ذلك . فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض (سعد بن عبادة) وماتت الفتنة فى مهدها وكفى الله المؤمنين القتال .

حركة إعلامية كبيرة حضرها الزعماء الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة فى الساعة الصحيحة، وظهروا أمام الناس بالمظهر الملائم ، فلا تنافس بينهم على الخلافة ، ولا تهافت منهم على الإمارة ، ولا جفاء منهم لأحد من الأنصار ، ولا تنكر منهم لما لهؤلاء من فضل على الإسلام ، ولا إخفاء منهم للحقيقة التى لا يمارى فيها أحد ، وهى الحقيقة التى افتتح بها أبو بكر قائلا :

« إن العرب لا تدين لغير هذا الحى من قريش » ، ولاشك أن الفضل فى نجاح هذه الحركة الإعلامية الكبيرة إنما يرجع لهؤلاء الثلاثة الكبار الذين علموا باجتماع الأوس والخزرج للتشاور فى أمر الخلافة فلم يبطئوا ولم يتهاونوا فى المبادرة إليهم والاشتراك معهم فى هذا الاجتماع ولو قد أبطئوا فى ذلك لضاعت عليهم الفرصة واندلعت نيران الفتنة ، ولا يعلم إلا الله ماذا كانت عواقبها .

أما خلافة أبى بكر — رضى الله عنه — فلم تدم أكثر من ثلاث سنوات كانت كلها بركة على الإسلام فقد اصطدم أبو بكر فى أول خلافته بحادث بالغ الخطورة ؛ وهذا الحادث هو (حركة الردة) ونعنى بها ارتداد الكثيرين من العرب عن الإسلام ، وبذلك تعرض هذا الدين لأكبر كارثة يمكن أن تمر بعد وفاة الرسول ، وإذا ذاك لم يجد أبو بكر بداً من محاربة العرب المرتدين وإنقاذ الدين من هذه الكارثة التى كادت تودى به .

ونستعرض حياة الخليفة الأول فى مدة توليه الأمور فنجد أنه قام فيها بأعمال أربعة :

١ — محاربة المرتدين .
٢ — بعثة أسامة بن زيد .
٣ — بعوثه إلى العراق والشام .
٤ — محاولة جمع القرآن .

وسننظر فى هذه الأعمال الأربعة المجيدة — كما وعدنا القراء — لا من الزاوية التاريخية ولكن من الزاوية الإعلامية .

حركة الردة

كانت هذه الحركة من الخطورة الخطيرة على الخليفة أبى بكر وعلى النظام القائم بحيث وجدنا عمر بن الخطاب يشفق منها على حياة أبى بكر ،

نعم — وجدنا عمر — وهو رجل معروف بشدته وقوة شكيمته — ينصح أبا بكر — وهو رجل معروف برقته ورأفته ولين عريكته — ويقول له :

« الزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب »

ولكن أبا بكر خالف رأى عمر فى ذلك ، ونظر إلى حركة الردة على أنها ثغرة فى الدين ، وإخلال بالأمانة التى تركها الرسول ﷺ ، وفساد لأمور المسلمين ، وخطر عظيم على المجتمع الإسلامى كله ، واذا كان رجل

كأبى بكر لا يغار على الدين ، ويضرب المثل الأعلى فى الغيرة عليه وعلى المسلمين فمن ذا الذى يغار عليه بعده ؟

جاء المرتدون إلى أبى بكر يزعمون له أنهم مسلمون يقبلون العمل بأركان الدين ولكنهم يرفضون منها ركناً واحداً فقط ، هو الزكاة ، فلم يقبل منهم أبو بكر ذلك ، وقال لهم يومئذ كلمته المشهورة : « والله لو منعتمونى عقالا كنتم تؤدونه لرسول الله لقاتلتكم دونه » .

وأبو بكر الصديق بهذا العمل الجليل والموقف العظيم يعتبر البانى الثانى للدعوة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ . فقد ظهرت هذه الدعوة على يد أبى بكر ، وفى موقفه هذا ، وكأنها تبنى من جديد بعد إذ عرضها المرتدون لكل هذا الخطر .

وتمادى المرتدون فى غرورهم ، وطفقوا يرددون بينهم قول قائلهم :

أطعنا رسول الله ما دام بيننا فيالعباد الله ما لأبى بكر ؟

ولكن أبا بكر لم يبال بهم ، ولم يتأثر بدعايتهم وأقوالهم ، ونظر إلى حركتهم على أنها امتحان له ولقدرته على تسيير الأمور ، وامتحان الدعوة الإسلامية ذاتها ، ولقدرتهم على البقاء بين العرب المسلمين ، وكيف لا تكون الردة امتحانا للإسلام بهذا المعنى ؟ وقد كشفت عن زيغ الزائغين ، وريب المرتابين . وبفضل أبى بكر وتغلبه على هذه الحركة الخبيثة عاد الإسلام قويا كما كان فى عهد الرسول ﷺ .

وقف أبو بكر من هذه الحركة موقف العزم والشدة وذلك على خلاف طبيعته التى تميل — كما قلنا — إلى اللين والرفق والرحمة ، وكان فى ذلك مخالفاً لمشورة عمر الذى أشار عليه بالسكوت عن هذه الحركة ، وكان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، كيف تقاتلهم ، وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم ونفوسهم إلا بحقها » .

فكان أبو بكر يجيب على ذلك بقوله :

« والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

ثم صاح لصاحبه قائلا :

« يابن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ؟ أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ؟ إنه انقطع الوحى ، وتم الدين .. أو ينقص وأنا حى ؟»

ثم جاءت الحوادث كلها شاهدة على صدق أبى بكر فيما رآه ، وعزم عليه من محاربة أهل الردة ، وعرف ذلك عمر وعلم أنه أخطأ فى نصيحته لأبى بكر واعترف لصاحبه بهذا الخطأ وقبل رأسه وأدرك حكمته .

إن الخليفة الأول بهذا العمل الأمثل قد أعطى المسلمين كلهم ، والمرتدين منهم بنوع خاص — أعظم درس تعلموا منه أن الدين كل لا يتجزأ ، وأن العقيدة يجب أن تكون محترمة من أتباعها من جميع جوانبها ، وأن التهاون فى جانب واحد من هذه الجوانب لابد أن يؤدى إلى التهاون فيها جميعاً ، وأن القوة ليست فى يد الباطل كما يتمثل فى فريق المرتدين عن الدين ، ولكنها فى جانب الحق الذى يتمثل فى فريق المسلمين المستمسكين بهذا الدين .

ذلك إذن هو الوجه الإعلامى لهذه الحادثة الأولى من الحوادث التى وقعت فى خلافة أبى بكر ، وقد سلك أبوبكر فيها مسلكا يدل على القاعدة التى بنى عليها الإعلام الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وهذه القاعدة هى : « بذل الطاعة للرسول بكل دقة وإخلاص وأمانة » .

وهل كان الرسول يقبل من بعض العرب المسلمين أن يكتفوا بالركن الأول من أركان الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ هل كان الرسول يكتفى بهذا الركن الأول من أركان الإسلام عن أحد الأركان الأخرى كالصلاة — أو الزكاة أو الصيام أو الحج .. كلا ثم كلا .

حسبنا ذلك حديثاً عن العمل الأول من الأعمال التى قام بها الخليفة الأول.

وهو مقاومة حركة الردة — لننتقل منه إلى العمل الثانى من أعماله رضى الله تعالى عنه وهو : بعثة أسامة بن زيد .

بعثة أسامة بن زيد

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد أعد جيشاً بقيادة أسامة ابن زيد وأمره أن يستعد للخروج من المدينة والوصول إلى تخوم الروم وذلك لتخويفهم من الإغارة على حدود المسلمين ، ولم يكن للنبى قصد وراء ذلك .

فلما ولى أبو بكر أمر الخلافة عزم على الإبقاء هذا الجيش ، وعلى تنفيذ المهمة التى مات عنها الرسول ، ولم يهتز إذ ذاك بالاضطرابات التى أعقبت هذا الحادث العظيم وهو وفاة الرسول ، ولم يأخذه الشغب الذى عم الجزيرة العربية بعد هذا الحادث ، وثبت أبو بكر على موقفه من هذا الجيش كما ثبت على موقفه من حركة الردة ، وخوفه المسلمون عواقب هذا الثبات على موقفه ، وأنذروه بالخطر على المدينة وعلى الجيش نفسه فى تلك الظروف ولكن أبا بكر قال لهم جميعاً :

« والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة » :

وجهز أبو بكر هذه البعثة العسكرية ، وخرج ماشياً على قدمه معها وأسامة راكب إلى جانبه ، وخاطبه المسلمون فى ذلك فقال :

« ما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله » .

وقال لأسامة : « اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تقصر فى شىء من أمره » .

وشاع فى الجزيرة العربية أمر تلك البعثة العسكرية ، وكانت لا تمر بقبيل من الناس يفكرون فى الارتداد عن الإسلام إلا استشعروا الخوف

والهيبة وآثروا السكوت والهدوء وقال بعضهم لبعض ، لولم يكن المسلمون على قوة حقيقية لما خرج من عندهم هؤلاء ؟ ؟.

وعاد جيش أسامة من تخوم الروم بأسلاب وغنائم كثيرة : ولم ينقض عليه وعلى بعثته أكثر من شهرين ، ولم يقتل من جيش المسلمين أحد ، وإن جيشاً يذهب إلى تخوم الروم ثم يعود غير مسحوق من الأعداء كيف تهزأ به قبائل العرب الهائمة فى الصحرء ؟ وكيف تخفى دلائل ذلك على حملة الأخبار والقادرين منهم على استنباط مواطن القوة والضعف فى كل من المسلمين والمرتدين على السواء .

يخيل إلى الباحث أن الغرض الأساسى لهذه البعثة منذ أن فكر فيها الرسول ومنذ أن صمم عليها أبو بكر كان هو الحرب النفسية قبل كل شىء ، فلقد أراد الرسول كما أراد خليفته أبو بكر أن يبقى الرعب فى فى نفوس الموالين للروم ، وفى نفوس القبائل العربية التى لم تزل ترى لها من القوة والمنعة والعزة ما يجعلها تتربص الدوائر بهذا الدين الجديد ، وتعلو بنفسها عن الخضوع لأحكامه .

أجل — كانت بعثة أسامة بعثة تأديبية قصد بها ردع القبائل التى مر بها فى الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قصد بها تأمين هذا الطريق وتوطيد هيبة الإسلام ، وكان هذا كله من أبى بكر إعلاماً للقبائل العربية أن هناك حكومة قوية أخذت للأمر عدته وفى استطاعتها أن تؤدب المرتدين ، وأن تقف العبث بالدين ، وأن تقضى على هذا الخطر الجسيم .

والآن لننتقل إلى العمل الثالث من الأعمال المجيدة التى قام بها الخليفة الأول وهذا العمل هو :

البعوث إلى العراق والشام

كما تنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه مسئول عن أمرين فى وقت واحد هما :

١ — تأمين الإسلام فى الداخل .

٢ — وتأمين الاسلام فى الخارج .

فكذلك تنبه خليفته الأول لهذين الأمرين معاً : وتم له الأمر الأول عن طريق حروب الردة ونجاحه فى تأديب المارقين حتى رجعوا إلى حظيرة الدين .

وتم له الأمر الثانى عن طريق البعوث التى بعث بها إلى العراق والشام ، ليس ذلك بقصد التوسع فى الفتح ، أو الجـاه والسلطة ، ولـكن لهدف واحد فقط هو الهدف الذى كان يقصد إليه رسول الله ﷺ وهو نشر هذا الدين وتثبيت قواعد المسلمين .

وبذلك التزم أبو بكر سياسة رسول الله ﷺ الخارجية وسياسته الداخلية وسياسته الاعلامية وهى السياسة التى سار عليها رسول الله فى بعثة (تبوك) ثم فى بعثة (أسامة بن زيد) فقد بعث النبى ﷺ بهاتين البعثتين ، وأعد بنفسه هذين الجيشين — لا للتعدى على بلاد الغير ، ولكن لدفع الأذى ، وحماية الطريق : ولنشر الدين .

ففى غزوة تبوك على عهد رسول الله ﷺ عاد الجيش الإسلامى بعد أن انصرف جيش الروم عن الحدود ولم يعد إليه فى تلك السنة ، وقد كانت دولة الروم ترسل البعوث من حين إلى حين إلى تخوم الجزيرة العربية ، وكان على المسلمين أن يقابلوا هذا العمل بمثله دائماً ولولا ذلك لعاشت القبائل العربية التى دخلت الاسلام فى فزع دائم وخوف لا ينقطع .

وعلى ذلك فقد كانت للبعوث الحربية فى عهد رسول الله ﷺ ثم فى عهد الخلفاء الراشدين أهداف إعلامية لابد منها ، وتنحصر هذه الأهداف فى تخويف دولة الروم وتخويف القبائل الموالية من جهة ؛ ثم المسلمين الذين يجب أن يعلموا أن للإسلام قوة تستطيع أن تضرب قوة الدولة الرومانية .

وعلى هذا النحو سار أبو بكر مع التخوم الفارسية ، ولنفس هذه

الغاية فرض على نفسه غزو فارس ، فقد كانت القبائل الموالية لفارس توالى غاراتها على أراضى المسلمين ، وكان على المسلمين أن يدفعوا هذه الغارات بمنتهى القوة ، وكان القائد الاسلامى لهذه الأعمال الحربية الأخيرة هو (المثنى بن حارثة الشيبانى) ، ثم ما لبثت هذه الغارات والرد عليها أن انقلبت إلى حرب ضروس دارت بين العرب والفرس ، وكان القائد الإسلامى فى هذه الحرب هو (خالد بن الوليد) الذى بعث به أبو بكر لنجدة المثنى بن حارثة . وأمره إذ ذاك أن يتألف أهل فارس ويتودد إلى الإمارة العربية الموالية لها — وهى إمارة الحيرة ، وفعل خالد بن الوليد كل ذلك .

وبكل هذه البعوث التى ملأت خلافة أبى بكر علمت العرب أن الاسلام لا يموت بموت صاحب الرسالة والقائم بالدعوة ، ونعنى به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا الدين متين يقوم على مبادىء قوية أولها مبدأ التوحيد. وأن هذا الدين فوق متانته قد تربى عليه رجال قادرون على صيانته من كل سوء ما داموا يسيرون على هذه القاعدة ، وهى الطاعة لله ورسوله .

معنى ذلك كله أن لهذه المعلومات السابقة وجهين متكاملين :

الوجه التاريخى والوجه الإعلامى — ونحن حين نتعرض بعض الشىء للوجه الأول لا نريد بذلك إلا للتعرض للوجه الآخر .

* * *

وننتقل إلى العمل الرابع والأخير من أعمال أبى بكر ، وهو :

جمع القرآن الكريم

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين ، وبه يتقيد الخليفة المسلم ، وعليه تسير الأمة الإسلامية فى كل عصر من عصورها ، ومن ثم كان العمل على جمع القرآن الكريم من أعظم الأعمال الإعلامية التى يقوم بها الخليفة الأول أبو بكر وما فى ذلك شك .

ثم إن القرآن فى ذاته — كما سبق أن أوضحنا ذلك فى الباب الأول

من أبواب هذا الكتاب — هو أقوى وسائل الإعلام فى الإسلام وهو أضخم هذه الوسائل وأضمنها وأثبتها وأصدقها ، وبعده أو بعدها تأتى الوسائل الإعلامية الأخرى ، ابتداء من الحديث الشريف أو السنة النبوية إلى الغزوات والبعوث الإسلامية التى بدأها النبى ﷺ واستمر فيها الخلفاء الراشدون من بعده .

ومن هنا كانت حركة جمع القرآن الكريم حركة إعلامية قوية التأثير فى حياة المسلمين ، وكان لابد لها أن تتم على يد الخليفة الأول . وكان على هذا الخليفة أن يضرب المثل الأعلى والقدوة الحسنة فى هذا المشروع العظيم بحيث لو أهمله — رضى الله عنه — لكان القرآن نفسه عرضة للضياع والتحريف .

وقد مات من مات من حفظة القرآن الكريم ، وذلك فى حرب الردة ، فأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر أن يجمع القرآن الكريم ، فانشرح صدر أبى بكر لهذه الفكرة الطيبة ولم تنته خلافته القصيرة المدى إلا والقرآن الكريم مجموع من الصدور ومكتوب على نحو سليم ، لم يضع منه حرف ، ولم تسقط منه سورة ، ولم ينله شىء من التحريف أو التغيير أو التبديل ، وصدق الله تعالى إذ يقول :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

(والخلاصة) أنه إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صاحب (الدعوة) الأولى ، وقد سلك من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة ، فإن أبا بكر هو صاحب (الدعوة) الثانية — إن صح هذا التعبير — وقد سلك فى خلافته القصيرة المدى من الطرق الإعلامية ما يتفق وهذه الصفة .

وجدير بالتنويه أن نلاحظ أن أبا بكر كانت له حاسة إعلامية دقيقة لا سبيل إلى إنكارها .

وبهذه الحاسة حضر فى الوقت المناسب (يوم السقيفة) واشترك مع زعماء المهاجرين والأنصار فى هذه المعركة .

وبهذه الحماسة أدرك خطورة الموقف الذى خلفته حركة الردة ، وانفرد بالرأى الذى لم يوافقه فيه أحد ، وهو تصميمه على مكافحة هذه الحركة .

ثم بهذه الحماسة وضع لنفسه قاعدة سياسية وإعلامية لم يحد عنها ، وهى السياسة التى قامت على إطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتذائه فى كل حركاته وسكناته ، والقيام بجميع الأعمال التى تضمن صيانة العقيدة الجديدة ، لايحيد عنها كذلك .

ولو أن أبا بكر تخلف عن هذه المعركة الانتخابية يوم السقيفة ، ولو أنه ظهر للناس يومذاك بأنه من طلاب الملك أو الجاه أوالدنيا ، ولو أنه استمع إلى مشورة أصحابه فى الإغضاء عن حركة الردة ، ولو أنه قصر فى البعوث العسكرية ، ولو أنه أهمل جمع القرآن الكريم لأصبحت خلافته فارغة من الأعمال التى يعضد بها الاسلام ، والإسلام وحده .

فلهذه الحماسة الإعلامية وللعقيدة الإسلامية التى تميز بها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه عن المسلمين كافة يرجع الفضل فى بقاء الدين وحفظ تراث رسول الله ﷺ .

الفصل الثانى
الإعلام فى عهد الخليفة الثانى
الفاروق عمر بن الخطاب

إذا كان التاريخ قد نظر إلى أبى بكر على أنه البانى للدعوة الإعلامية بعد رسول الله ﷺ وهو بانيها الأول ، فإن التاريخ قد نظر إلى عمر بن الخطاب على أنه المؤسس الأول للدولة الإسلامية ، لأن الإسلام قبله لم تنشأ له دولة بالمعنى الصحيح « لهذه الكلمة » وقد استحق عمر بن الخطاب هذه الصفة لاعتبارات منها :

أولا : أنه أول من دون الدواوين ، ومن ذلك أنه أنشأ ديوان القضاء ، وديوان الإحصاء ، وديوان الخراج ، وديوان البريد ، وديوان بيت المال ، وديوان الثغور .

ولم يكتف عمر بذلك حتى رأيناه ينشىء داراً لسك النقود ، وداراً للحبس يعاقب فيها المذنبين ، وداراً تسمى « بيت الدقيق » ، وهو ما يقابل عندنا فى الوقت الحاضر « الأوقاف الخيرية » وعمله إغاثة الجياع الذين لايجدون طعاماً لهم « ومن الأوقاف الخيرية » التى تتبع هذا البيت أرض بخيبر اختارها عمر فى عهد الرسول ﷺ ، وقد أشار عليه يومئذ بحبسها وحفظها من أن تباع أو توهب أو تورث ، ولكن تصبح موقوفة على مصالح الفقراء من المسلمين .

ومن أجل ذلك نظر التاريخ إلى عمر بن الخطاب على أنه أول مؤسس للدولة الإسلامية — كما قلنا — وذلك فضلا عن كونه المؤسس الثالث للدعوة الإسلامية بعد النبى ﷺ وبعد أبى بكر الصديق الخليفة الأول .

ثم من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ كلمته المشهورة فى عمر بن

الخطاب : لم أر عبقرياً يفرى فريه (١) ، والكلمة جزء من رؤيا رآها رسول الله ﷺ نفسه .

قال عليه الصلاة والسلام :

رأيت في المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب (أى بئر) . فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (بفتح الذال أى دلوا) . وذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً (٢) — ولم أر عبقرياً يفرى فريه ، (أى ينزع قبله) حتى روى الناس وضربوا بعطن » (٣) .

الحق — لقد كانت هذه الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ خير معبر عن الجهود التى بذلها الشيخان من بعده ، فأما أولها — وهو أبو بكر — فقد كانت خلافته قصيرة العمر لم تدم أكثر من ثلاث سنوات أنفقها كلها فى محاربة أهل الردة ، والدفاع عن الحدود الإسلامية . وأما الثانى — فإنه قام ببناء الدولة الإسلامية. وكان ذلك بتدوين الدواوين من جهة ، وبالفتوح الكثيرة من جهة ثانية .

ولم يكن الباعث على هذه الفتوح العمرية رغبة فى السلطان والصولجان ، أو شهوة إلى التوسع والغلبة ، وإنما كان الباعث إليها هو نفس الدافع الذى دفع رسول الله ﷺ والخليفة الأول ، ونعنى به تأمين حدود الإسلام من عدويه الكبيرين : الروم من جهة ، والفرس من جهة ثانية .

وبوازع من هذه البواعث ، وبتقدير من عمر بن الخطاب لهذه المسئولية أقدم على فتح مصر ، وفتح بلاد المقدس ، وفتح فارس — وجاء هذا الفتح الأخير على كره منه ، لا لشىء إلا أنه يكره الحرب لأنها حرب ، ويبغض الدم لأنه دم ، وفى ذلك يقول عمر : « إن رجلا واحداً من

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .

(٢) الغرب (بسكون الراء) : الملء — ومن معانيه كثرة المال وحسن المآل ، وجريان الفرس بسرعة (القاموس المحيط) .

(٣) العطن (لفتح العين والطاء) مربط الإبل حول الماء .

المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار » ومعنى ذلك أنه يضن برجل واحد من المسلمين أن يموت فى الحرب .

ومن أقواله كذلك :

«وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار فلا يصلون إلينا ولا نصل إليهم » وليست هناك ألفاظ يعبر بها قائد من القواد عن كراهيته لسفك الدماء أقوى وأبين من هذه الألفاظ التى نطق بها عمر .

عمر والسياسة الإعلامية

سبق أن أكدنا هذا المعنى وقلنا إننا حين نسأل عن نظام الحكم فى أمة من الأمم فقد سألنا فى الوقت نفسه عن نظام الإعلام فى هذه الأمة، ذلك أن نظام الإعلام فى جميع الظروف والأحوال مرتبط أشد الارتباط بنظام الحكم وظروف الحاكم ، وإذا كان نظام الحكومة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين قائماً على العقيدة التى تأمر بطاعة الله ورسوله فإن نظام الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين ينبغى أن يبنى كذلك على نفس العقيدة .

من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يبدأ عمر بن الخطاب خلافته بكلمة يعلن فيها عن منهجه فى الحكم يقول فيها :

أيها الناس : أطيعونى ما أطعت فيكم الله ورسوله . فإن عصيتهما فلا طاعة لى عليكم » .

وعلى هذا الأساس يصح أن ننظر فى أعمال عمر بن الخطاب فسنرى أن سياسته الإعلامية تظهر بوضوح فيما يلى :

أولا — فى الفتوح :

وقد فرغنا من الكلام عن هذه الناحية وقلنا إن عمر بن الخطاب كان فيها مقيداً بسياسة النبى ﷺ وأبى بكر الصديق، ولم يكن ينظر وراء ذلك .

ثانياً — سياسة عمر مع كبار الصحابة :

وهم كبار رجال الدين والعقيدة ، وهم أفهم الناس لجوهر الإسلام ولأهدافه القريبة والبعيدة ، وكلمة واحدة يقولها أحدهم تحدث أثرا قوياً فى نفوس المسلمين الخاصة منهم والعامة ، وعمل طيب يصدر من أحدهم يصبح مثلا أعلى يحتذى به ، وقدوة حسنة للمسلمين جميعاً .

من أجل ذلك وضع عمر لنفسه سياسة خطة حكيمة فى معاملة كبار الصحابة ، وتتلخص هذه الخطة فى الاحتفاظ بهم جميعاً إلى جانبه فى المدينة وجعل عمر من كبار الصحابه شيئاً يشبه « مجلس الشورى » يرجع إليهم فى كل أمر من أموره ، ويستمع إلى آرائهم فى كل مشكلة من مشكلاته ، ويعرض عليهم كل تصرف من تصرفاته ، فإذا كان هذا التصرف موافقاً للدين والرسول والعقيدة مضى فيه ، وإلا عدل عنه عدولا تاماً .

وكان من خطة عمر ألا يأذن لأحد من هؤلاء الصحابة بترك المدينة والسفر إلى الأمصار والأقاليم والإقامة فيها ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك خوفاً عليهم من شرور هذه الأمصار ، وفتنة الجاه والمال ، وهى فتنة لابد أن يتعرضو لها بحكم المناصب الكبيرة التى يلونها ، والخضوع الذى يظهره الناس لهم من الناحيتين الدينية والسياسية ، والصحابة بشر ، وقد تحدثهم نفوسهم البشرية بأمور تفسد عليهم دينهم ، وتقلل عندهم من سلطان العقيدة ، وتحدث خللا فى سياسة عمر .

والحق — لقد كان عمر رشيداً فى هذه السياسة التى رسمها لكبار الصحابة ، وسيأتى الحديث عن الخليفة الثالث — عثمان بن عفان رضى الله عنه — وسنجد أنه خرج على هذه السياسة ، وأنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأمصار .

فجنى من وراء ذلك ضررين كبيرين :

أولهما — حرمانه من مشورة الصحابة .

وثانيهما — حدوث الفتنة الكبرى على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

قال عمر لابن عباس وهو رجل من كبار الصحابة :

إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وتركـكم والله ما أدرى أصرفكم عن العمل ؟ أو رفعكم عنه ؟ وأنتم أهل ذلك ، أم خشى رسول الله أن تعاونوا لمكانكم منه ، فليرجع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب .

ومما قاله عمر أيضاً :

« إن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم ، إلا أن فى قريش من يضمر الفرقة ويروم خلع الربقة ، أما وابن الخطاب حى فلا ، إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشارهم فى البلاد » .

لا ريب أن هذه السياسة التى اختطها عمر لنفسه تجـاه كبار الصحابة لأكبر دليل على « الحاسة الإعلامية » الدقيقة التى انفرد بها هذا الخليفة وهى الحاسة التى قلنا إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان كان يفتقدها فى نفسه ، ولو وجدت عنده لتغير وجه التاريخ الإسلامى فى زمنه ، ولما حدثت الفتنة الكبرى — كما سنشرح ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

ثانياً — العسس :

لم يكن التاريخ البشرى يعرف رجلا بلغ فى الشعور بمسئولية الحاكم بعض ما بلغه عمر بن الخطاب من الشعور بهذه المسئولية ، كان قلبه مشغولا على الدوام بأمور الرعية ، وبلغ من حرصه على ذلك أن قال كلمته المشهورة : « لو عثرت بغلة فى العراق لرأيتنى مسئولا عنها » كما بلغ من حرصه على رعيته أن ابتدع نظام « العسس » ، وهو السير بالليل للوقوف على أحوال الرعية .

ويحكى لنا التاريخ أنه كان يتجول فى ليلة من الليالى فى أنحاء المدينة فسمع من وراء الجدران صوت امرأة تبكى ، فدخل دارها فوجدها أمام قدر من الماء فيه حصى تعلل به أولادها حتى يغلبهم النوم ، ورأى عمر بنفسه هذا المنظر المؤلم وصاح فى نفسه قائلا : ليت أم عمر لم تلـد عمر ،

وليت عمر لم يلك من البشر ، ثم عاد مسرعاً إلى بيته وأمر زوجته أن تحمل قدراً من السمن ، وحمل هو على كتفه قدراً من الدقيق ، وصنع بنفسه طعاماً لهؤلاء الأطفال الجياع ، وأيقظهم وأكلوا وناموا .

وحكى لنا التاريخ كذلك عن عمر أنه سار فى ليلة ما حتى وصل إلى بيت كانت فيه امرأة تغنى بصوت مرتفع تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ‌ ‌ ‌ ‌ أو من سبيل إلى عمرو بن سيار

وفى اليوم التالى سأل عن عمرو بن سيار هذا فوجده شاباً له شعر طويل ، وله بهذا الشعر الجميل عناية تامة ، ومن ثم أصبح فتنة لنساء المدينة ، فأمر بأن يقص شعره .

ويطول بنا القول إن أردنا أن نتتبع أخبار عمر من هذه الناحية .

معنى ذلك أن عمر كان يحصل على أخبار الرعية بنفسه ، وكان يقف على أحوالهـــا بنفسه . ويقوم بإصلاح الخلل فى الأحوال ، كما يعهد إلى تقويم المعوج فى الأخلاق ، وكان يرى أنه المسئول الأول عن كل ذلك .

والحديث عن تقدير عمر للتبعة الملقاة على عاتقه يجرنا إلى الحديث عن بعض نوادره فى الحرب فقد قيل أنه كان يملك فى نفسه قدرة عجيبة على المكاشفة Telebaehy .

كان عمر يخطب بالمدينة خطبة الجمعة ، فرآه الناس وهو يقطع كلامه على حين غرة وينادى بأعلى صوته قائلا : ياسارية بن حصن .. الجبل ، الجبل . فلم يفهم الحاضرون ماذا أراد بهذه الكلمات التى قطع بها الخطبة . ثم عاد عمر يتم خطبته ، وصلى بالناس الجمعة . وبعد أن فرغ من الصلاة سأله على بن أبى طالب : ماهذا الذى ناديت به . فقال عمر : أو سمعته منى ؟ قال : نعم أنا وكل من فى المسجد . فقال عمر ، وقع فى نفسى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عـــدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا بعدوهم ، وإن جاوزوه هلكوا . فخرج منى هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر من خطبة عمر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وفى تلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر وهو يقول، «يا سارية بن حصن، الجبل . . الجبل» فعدلنا إلى هذا ، ففتح الله علينا .

فى تصورى كذلك أن القارىء الحديث يعجب كل العجب كيف كانت المكاشفة وسيلة من وسائل الإعلام قد مارسها عمر رضى الله عنه .

ثالثاً — الرسائل :

كانت الرسالة من أقوى وسائل الإعلام فى عهد عمر بن الخطاب ، وقد حفظ لنا التاريخ طائفة صالحة من الرسائل التى بعث بها عمر إلى قواده فى الحرب تارة ، وإلى عماله فى الأقاليم تارة أخرى ، وإلى القضاة الذين كان يبعث بهم إلى الأمصار تارة ثالثة .

وكان عمر لايدع لقائد من قواده أن يتحرك من مكان إلى مكان إلا برأيه ، ولا أن يستبدل خطة بخطة إلا بمشورته ، ولم يكن إلا فى أحيان قليلة ، بل نادرة يترك لهم حرية الحركة .

من ذلك أن أبا عبيدة بن الجراح استشاره فى دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه عمر يقول :

« أنت الشاهد وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدو وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإذا رأيت الدخول إلى الدروب صواباً ، فابعث إليهم السرايا وادخل عليهم بلادهم ، وضيق عليهم مسالكهم وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم » .

وترك قائده أبو عبيدة حصار حلب ، فكتب إليه عمر يستضعف رأيه ويقول له :

سرنى ما علمت من الفتح ، وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ماذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأى . أتترك رجلا ملكك دياره ومدينته ثم ترحل وتسمع أهل النواحى والبلاد إنك ما قدرت عليه فما هذا برأى ، فإياك أن تبرح حتى

بحكم الله وهو خير الحاكمين ، وقد أنفذت كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن فمن وهب نفسه لله ورسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله فليفعل ، وهم عرب وموال ورجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً إن شاء الله تعالى » .

هذان نموذجان من رسائل عمر إلى القواد يظهر منهما أن عمر كان لايغل يده أو رجله عن الحركة ولكن كان معه خطوة خطوة . . وكان فى الوقت نفسه يأمره بالزحف إن رأى الخير فى ذلك ، ويأمره بالصلح إن كان طلب الصلح صادراً من العدو .

نموذج من رسائله إلى القضاة :

عمر هو الذى وضع دستور القضاة فى الإسلام ، وتلك حقيقة من الحقائق التى لا جدال فيها ، والدستور الذى وضعه كان ولا يزال وثيقة إعلامية إلى جانب أنه وثيقة قضائية .

كتب عمر إلى بعض القضاة فقال :

إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال . فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم ترد فيه سنة رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس ، فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم تكن فيه سنة رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت ؟ إن شئت أن تجتهد فى رأيك وتتقدم فتقدم وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك » .

وهذه الرسالة الصغيرة هى التى وضعت دستور القضاء فى الإسلام ، وبها علم القضاة أنهم إما أن يحكموا بشىء وجدوه فى القرآن الكريم ، وإما أن يحكموا بشىء ورد فى سنة رسول الله ﷺ ، وإما أن يحكموا بما عليه الجماعة وإما أن يحكموا بطريقة الاجتهاد فى الرأى . وتلك هى المصادر الأربعة للتشريع الإسلامى منذ أيام عمر بن الخطاب إلى اليوم .

وقد أشار عمر فى رسالته إلى أن طريقة الاجتهاد أشق على القضاة من الطرق الثلاثة الأولى ، وهى القرآن والسنة والإجماع ، وهذا معنى قوله :

وإن شئت أن تجتهد فى رأيك وتتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك .

ومن ثم شعر القضاة فى الإسلام أن القضاء أمانة ثقيلة ، وكانوا لذلك يفضلون وظائف التدريس على وظائف القضاء .

وهكذا وضعت هذه الرسالة على القاعدة الإعلامية التى يبنى عليها الحكم الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وهى العقيدة التى أوجبت على هذا الحكم أن ينبنى على طاعة الله ورسوله ، فإن لم يوجد فى الكتاب والسنة شىء لحل القضايا المعروضة فليلجأ القاضى إلى رأى الجماعة ، فإن ضاقت به جميع هذه المصادر الثلاثة — وقلما تضيق — فله أن يجتهد برأيه .

ولولا أن عمر ممتلىء بهذه العقيدة ، ولولا أنه يملك الحاسة الإعلامية الدقيقة ، لما استطاع أن يضع دستورا للقضاء بمثل هذا اليسر والوضوح والسهولة .

رابعاً — زيارات عمر الأمصار والأقاليم :

كان من دأب عمر أن يزور الأمصار من آن لآن ، وقصده من هذه الزيارات أن يتفقد أحوال المسلمين فى هذه الأقاليم ، وأن يلتقى فيها بالعمال أو الأمراء الذين يحكمون باسمه هذه الأقاليم ، وكان كل أمير من أولئك الأمراء يتوقع فى كل لحظة من اللحظات زيارة الخليفة له ليحاسبه على عمله ويجمع إليه الناس ليبدوا رأيهم فى الأمير نفسه ، ويعرضوا مظالمهم على الخليفة إذا كان عامله قد تراخى فى النظر فيها لأمر أو لآخر .

وكان عمر لايكتفى بزيارة الأقاليم من وقت لآخر ولكنه كان يدعو أمراء هذه الأقاليم للحضور إليه بين فترةوأخرى ، وذلك ليتأكد من حسن سيرتهم مع الرعية ، ويطمئن إلى سير العدالة فى تلك الجهات .

والحق — لقد ضرب عمر فى هذاالمجال أروع المثل ، وكان فيه أسوة

حسنة للحاكم المسلم الذى أخذ نفسه بالعقيدة السليمة التى تقوم على تقوى الله وحده ، ولايتسع مثل هذا البحث لإيراد الشواهد على ذلك ، وإن البحث ليفترض أن هذه الشواهد شائعة بين الناس جميعا ، يتحدث بها التاريخ منذ خلافة عمر بن الخطاب إلى اليوم .

ولذلك سننص فيما بعد على أن القدوة الحسنة أكبر وسائل الإعلام فى عهد هذا الخليفة الفاروق الذى هو رمز العدل فى الإسلام ، وهو فى هذه الصفة مقدم على غيره .

والذى لاشك فيه أن عمر بهذه السياسة القضائية كان يخدم الناس فى مجال الإعلام خدمة لاتقل عن خدماته لهم فى مجال القضاء .

فأى طريقة أقوى من طريقة الزيارات والاتصال بالناس فى المدينة وخارج المدينة والتعرف إلى آرائهم فى الحكام ، والوقوف على احتياجاتهم والمظالم التى ترفع إلى هؤلاء الحكام ، وذلك فى إثبات أن الخليفة يشعر بتبعته نحو الرعية على هذا الوجه ، وأنه مسئول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل مايحتاج إليه الرعية .

إن الزيارات مازالت إلى العصر الذى نعيش من أكبر دعائم الاعلام ومازلنا فى العصر الحديث ننظر إلى زيارة الملوك والرؤساء للأقاليم ، أو زياراتهم للبلاد الأجنبية على أنها من أنجح الوسائل الاعلامية . ولكن زيارات عمر بن الخطاب كانت أوسع أهدافاً ، وأنبل أغراضا ، وأبعد عن الرياء والتظاهر ، وأدنى إلى تقوى الله من جميع الزيارات التى نشهدها الآن .

حكى لنا التاريخ أن عمر بن الخطاب قدم إلى الشام راكبا على حمار ، فتلقاه معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة ، فمضى عمر إلى سبيله ولم يرد عليه السلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله :

أثنك لصاحب الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم . قال عمر : مع شدة احتجابك ووقوف ذوى الحاجات ببابك ! قال : نعم . قال عمر : ولم ويحك! قال معاوية : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف العدو بنا وهجم علينا ، وأما الحجاز فإننا نخاف من البذلة وجرأة الرعية ، وأنا بعد عاملك ، فإن استنقصتنى نقصت ، وإن استزدتنى زدت ، وإن استوقفتنى وقفت .

قال عمر : ماسألتك عن شىء إلا خرجت عنه ، إن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك .

هكذا كان عمر يلم بعماله من حين لآخر لـكى يقف على أعمالهم وتصرفاتهم ، ولم يكتف عمر بذلك فى سبيل الحصول على المعلومات الصحيحة عن أولئك الأمراء ، بل كان يرصد لهم العيون والرقباء يختلطون بالرعية ويأتونه بما ظهر وما خفى من أعمال أولئك الأمراء ، حتى كان الوالى من كبار الولاة يخشى من أقرب الناس إليه أن يرجع بكل أخباره إلى الخليفة . كما كان عمر ينتدب لـكل عامل من العمال أو أمير من الأمراء وكيلا خاصا يجمع شكاوى الناس ومظالمهم ، ويتولى عمر التحقيق فى هذه المظالم ومراجعتها بنفسه .

نرى — هل عمر يفعل ذلك خوفا على سلطانه ، أو صيانة لملـكه ، أو محافظة على منصبه الذى وضعه الله فيه — وهو منصب الخلافة ؟ كلا ثم كلا ؟ بل كان عمر يفعل ذلك بوازع من ضميره ، وبدافع من تقواه ، وبشعور عميق بالمسئولية التى وضعها الناس على كتفه .

ومن أجل ذلك اتخذ لنفسه كل هذه الذرائع الاعلامية ، وأحسن استخدام هذه الذرائع . وكانت الرعية على ثقة من حسن طويته ونبل غرضه فى استخدام كل هذه الذرائع .

والدليل على ذلك أن عمر كان يحصى أموال الولاة ، ثم يستصفى مازاد

منها . وذلك كلما فشت فاشية من مال أو إبل أو خيل أو غير ذلك من النعم وكان عمر يسألهم دائما ! من أين لك هذا ؟ وكان عليهم أن يخبروه بمصادرها وإلا حرمهم منها .

فعل ذلك مع عمرو بن العاص حين كان واليا على مصر ، وضاق عمرو ابن العاص بهذه المحاسبة وكان يقول :

« إن زمانا يحكمنا فيه ابن حنتمة (يريد عمر) لزمان سوء »

الحق — لقد كان عمر نموذجاً فريدا فى الحكم لا نعرف له نظيرا فى التاريخ الإسلامى كله . وكانت له حاسة لم تكن لحاكم غيره :

خامساً — القدوة الحسنة :

لقد أكثرنا إلى الآن من إيراد الأمثلة على عدل عمر ورحمة عمر واتساع عقل عمر ، وشجاعة عمر ، ولم نترك أو لم نكد نترك صفة من الصفات الحسنة فى الإسلام حتى وصفناه بها ، وجعلنا منه مثلا أعلى فى هذه الصفات .

ولم نكن مبالغين فى كل ما أوردناه من هذه الخصال ، وكتب التاريخ مملوءة بالأمثلة الطيبة على هذا الذى قلناه ، والبحث الذى بين أيدينا لا يتسع الجزء ولو ضئيلا لهذه الأمثلة .

أفليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب كان قدوة حسنة فى قومه؟ بلى . وقد سبق لنا القول فى أن القدوة الحسنة فى ذاتها تعتبر من أقوى وسائل الإعلام ، وعلى القدوة الحسنة بنيت حياة عمر منذ دخل الإسلام إلى أن فرغ من الحياة الدنيا .

وإنى إذ أحيل القارئ للكتب التاريخية التى امتلأت بحكايات عن عمر بن الخطاب أجدنى مضطرا إلى الإشارة إلى واحدة منها . للقارى أن يضيفها إلى ما سبق من حكايات وأخبار .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب وشكا إليه أمرا حدث من الوالى

عمرو بن العاص ، وخلاصته أن الوالى أجرى خيلا كعادته ، فأقبلت فرس المصرى ، فحبسها محمد بن عمرو بن العاص وصاح : فرسى ورب الكعبة . ثم اقترب منه صاحبها وعرفه أنها فرسه هو. فغضب محمد بن عمرو بن العاص ووثب على المصرى فضربه بالسوط وهو يقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى إلى عمر . فحبسه زمناً . وما زال محبوساً حتى هرب من الحبس ووصل إلى المدينة وقدم على الخليفة ، وأبلغه شكواه . فما كان من عمر إلا أن استقدم إليه عمرو بن العاص ومعه ولده . فوقفا فى مجلس القضاء . فنادى عمر : أين المصرى ؟ فأتى المصرى فقال له عمر : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين . فضربه المصرى حتى أثخنه . ثم قال عمر للمصرى : أجلها - أى مر بهذه الدرة - على صلعة عمرو ابن العاص . فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه . فقال عمرو بن العاص فزعا : يا أمير المؤمنين لقد استوفيت حق المصرى . ثم قال المصرى : يا أمير المؤمنين — لقد ضربت من ضربنى . فالتفت الخليفة إلى عمرو بن العاص وقال كلمته المشهورة :

« يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

ترى هل تحفظ كتب التاريخ البشرى مثلا واحداً كهذا المثل . وهل تستطيع أن تنسب مثله لحاكم أو ملك ؟ أظن لا .

بهذه الطريقة نستطيع أن نستوعب جميع الذرائع الإعلامية التى استعان بها عمر بن الخطاب فى خلافته . فنجد منها كذلك : الخطب وهى كثيرة . منها خطبه فى أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج . ومنها أحاديثه للقادة والعمال والقضاة بصرف النظر عن الرسائل التى يبعث بها إلى كل واحد من هؤلاء. أما الشعر فلم يجد له صدراً رحباً عند عمر ، ويظهر أنه لم يعتمد عليه كثيراً ولا قليلا فى الدعاية السياسية التى انتهجها ، وهى السياسة التى بنيت على العدل وعلى الحق ، وقل أن تحتاج مثل هذه السياسة إلى وسيلة من وسائل الدعاية ، وذلك لأنها سياسة تعلن عن نفسها بنفسها وتحمى نفسها

بنفسها ، وتستطيع أن تتغلب بقوتها على كل سياسة غيرها لا يكون لها من الحق ومن العدل كل هذا القدر الذى اشتملت عليه سياسة عمر .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه (عبقرية عمر) :

« وإذا أحصيت له فى سيرته الطويلة أوامر تحرم الذميين وبعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ، ويقرها العقل والعرف . كما يقرها الدين والكتاب . ولم يصدر قط عن مقصود ، أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها ، أو حقاً هم أحرار فيه » .

فأما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين ، أو كراهته أن يبدلوا أزياءهم التى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لم كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة .أكانوا يتشبهون بهم حباً لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام ؟ أم يتشبهون بالمسلمين كيداً لهم ورغبة فى التسلل بينهم والإفلات من عهودهم »، وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمون فيه جميعاً فى حكم الجنود وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن تشاء .

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة العربية فما خرج أحد إلا وقد غدر بذمته وكرر الغدر مرة بعد المرة . كما صنع أهل خيبر ، ومنهم من أجلى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضه للعهد . كما فعل أهل نجران عندما تعاهدوا على منع سرية ثم عادوا إليه .

ولما قال له التجار من أهل (منبج) .

دعنا ندخل أرضك وتعشرنا (أى ندفع لك العشور) شاور أصحاب النبى فأشاروا عليه بقبولهم فدعاهم إليه » .

وهذه الأخبار التى رويت فى سيرة عمر تدلنا على أشياء كثيرة من أهمها فى نظرنا أن عمر كانت له حاسة إعلامية دقيقة . وأنه صدر عن هذه هذه الحاسة فى كثير من أفعاله وآرائه .

ومما يدلنا على هذه الحاسة كذلك أن عمر سأل ابنته يوما وقال لها: كم تتحملين أن يغيب عنك زوجك فى الحرب ؟ فخجلت ابنته خجلا شديداً ووجدت حرجاً كبيراً فى الإجابة عن سؤاله . فألح عليها عمر ونهرها وحذرها أن تسكت عن الإجابة . فقالت ابنته فى حياء شديد: ثلاثة شهور ، ثم اختفت من حضرته .

إذ ذاك أصدر عمر أمره إلى أمراء الجيوش بألا يتغيب أحد من جنود المسلمين عن بيته أكثر من هذه المدة .

هكذا أجرى عمر نوعا من استقصاء الرأى أو استطلاعه بطريقة سليمة قبل أن يصدر أمره للجند .

والغريب أن هذه الطريقة البسيطة أخذت تتطور فيما بعد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت طريقة معقدة . وهى الطريقة المتبعة فى وقتنا هذا لقياس الرأى العام فى كل من أمريكا وأوربا . كما نرى ذلك فى معهد (جالوب) الأمريكى ، ومعهد (قياس الرأى العام) الفرنسى ، والمعروف أن العلاقات العامة تقوم على شقين فى وقت معاً ، أولها: الرأى العام ، وثانيهما : الإعلام .

وقد رأينا فى فصل من فصول الباب الأول من أبواب هذا الكتاب بعنوان (العلاقات الإنسانية) كيف أن المسلمين منذ عهد الرسول كانوا يدركونها إدراكا سليما من الناحية الإعلامية الخاصة ، وكيف أنهم أفادوا منها فائدة جليلة فى نشر الدعوة الإسلامية من جهة ، وفى سياسة الأمة الإسلامية من جهة أخرى .

لقد كان يسع عمر أن يسأل عدداً كبيراً من الجنود وزوجات الجنود سؤالا مثل هذا ، ولكنه بدأ بأهل بيته أولا ، واستغنى بذلك عن سؤال الجنود أو زوجات الجنود خارج بيته وأسرته بعد ذلك ، وكأنه بهذه الطريقة سار على أحدث ما وصل إليه علماء العلاقات الإنسانية حين قالوا : إن هذه العلاقات إنما تبدأ من الداخل ثم تتعداه إلى خارج بعد ذلك .

مرة أخرى أحيل القارىء إلى الفصل الخاص بالعلاقات الإنسانية ليستذكر بعض الحقائق التى استعدنا الإشارة إليها فى الحديث عن عمر .

الفصل الثالث

الدعاية والإعلام في عهد الخليفة الثالث

عثمان بن عفان

اقترن عهد عثمان بن عفان بماسمي فى التاريخ الاسلامى «بالفتنةالكبرى» وهى الفتنة التى انتهت بقتله ، ومن غير المعقول أن تحدث هذه الفتنةدون أن يكون وراءهاشىء كثير من الدعايات التى دبرت ضدهذا الرجل الذى كان هدفاً لهذه الفتنة ، وهو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى اللهعنه .

وكان إلى جانب هذه الدعايات السيئة التى انتهت بهذه المسألة جهود إعلامية وليست دعائية — وذلك على النحو الذى كان عليه الاعلام فى أيام النبى ﷺ وأيام الشيخين أبى بكر وعمر ، وكان القصد الأول والأخير من هذه الجهود الإعلامية فى أيام عثمان هو انتشار الإسلام وصيانته من كيد أعدائه فى الداخل والخارج .

وننظر فى أمر الدعاية والإعلام فى زمن عثمان فنلاحظ أولا أننالم نكد نشير إلى لفظ « الدعاية » فى أيام النبى ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ، وذلك باستثناء الدعاية التى مارسها رسول الله ﷺ فى الغزوات وكانت تطبيقا للقاعدة التى تقول :

« الحرب خدعة » .

ذلك أن الأمر فى عهد الرسول كان أمر « دعوة » دعا فيها الرسول إلى دين جديد ، وفى أيام الشيخين أبى بكر وعمر لم يكن هناك دعوة جديدة يدعوان بها ، فقد فرغ النبى ﷺ من أمرها ، ولكن كان هناك شىء آخر ، هو المحافظة على هذا الدين الجديد ، والعمل على نشره فى نطاق واسع .

فلما كان عهد عثمان حدثت أحداث غيرت وجه الإعلام ، وفتحت الطريق

لنوع آخر من أنواع الاتصال والتأثير فى الناس ، هو الدعاية ، وربما كان من أسباب ذلك أمران خطيران يتداخل بعضهما فى بعض تداخلا قوياً :

أولهما — أن نظرة عثمان إلى الخلافة أو السلطان كانت تخالف نظرة الشيخين بعض المخالفة أو كل المخالفة .

ثانيهما — أن سيرة عثمان فى الخلافة كانت مغايرة بسبب ذلك لسيرة صاحبيه أبى بكر وعمر .

صورة السلطان فى رأى عثمان

كان عثمان يرى أن للإمام الحق كل الحق فى أن يتصرف فى بيت المال حسبما تؤدى إليه المصلحة فى نظره ، وما دام هو منقطعاً لعمل واحد — هو الخلافة — فله أن يأخذ من بيت المال ما يكفيه ويكفى أهل بيته وذوى قرابته . لا يترك منهم أحداً . وزاد عثمان على ذلك فرأى أن المسلمين ليس لهم الحق فى مراجعته فضلا عن مؤاخذته ، ولم تكن الخلافة عنده تكليفاً من المسلمين . ولكن كانت تكليفاً من الله تعالى ، ولذلك قال لمن أرادوا أن يخلعوه :

« ما كنت لأخلع قميصاً هو من صنعة الله عز وجل » .

فأين هذا من أبى بكر ، فقد قيل فيه أنه حين ولى الخلافة خرج إلى السوق فى صبيحة اليوم التالى ومعه بعض الأقمشة ، فلقيه عمر بن الخطاب فى الطريق وقال له : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ قال : إلى السوق . قال عمر : ولماذا ؟ قال : لأحصل على رزق عيالى . فأخذه عمر من يده إلى بيت المال وقال لصاحبه : دبر للخليفة من المال ما يغنيه عن التجارة حتى يفرغ للخلافة . ومنذ يومئذ أخذ أبو بكر من بيت المال ما يكفيه ويكفى زوجته فقط ، ولم ينظر إلى أبعد من ذلك .

أما عثمان فكان يتصور السلطان بصورة أخرى غير الصورة التى تصورها عمر ، تدلنا عليها الرواية التالية :

« روى أن ملكة الروم أهدت أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب عقداً

من جوهر . وكانت أم كلثوم أهدت إليها شيئاً من طرائف بلاد العرب. فوقع العقد فى يد عمر فى الوقت الذى أقبل به البريد من بلاد الروم . فلم يشأ عمر أن يؤديه إلى زوجته حتى أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ، الصلاة جامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون شاورهم فى أمر العقد . فكلهم أشار عليه بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها . ولـكن عمر تحرج من ذالك لأنه حمل إليها فى بريد المسلمين . وأمر برده إلى بيت المال . ورد إلى زوجته ما أنفقت فى هديتها إلى ملكة الروم » .

فأين هذا مما كان يفعله عثمان حين كان يدفع إلى أهله بجواهر من بيت المال ، وحين أعطى كل بنت من بناته الثلاث أو الأربع ألف دينار فور زواجها من أحد فتيان قريش .

إن الذى لاريب فيه أن عثمان كان يفعل كل ذلك عن حسن نية . وكان بصدد ذلك من تصوره للسلطان بهذه الصورة التى تخالف ما عند أبى بكر وعمر . ومن أجل ذلك كان يقول فى عمر :

« إن عمر كان يحرم قرابته احتسابا لله . وأنا أعطى قرابتى احتسابا لله. وأين لنا بمثل عمر ؟ » .

ولذلك أعطى مروان بن الحكم وحده خمس الغنيمة التى غنمها المسلمون فى أفريقيا لأنه أحد أقاربه . وأعطى عبد الله بن خالد الأموى ثلثمائة ألف . وأعطى ابنه الحارث ألف . وأعطى كل واحد من الوافدين مع عبد الله بن خالد مائة ألفا وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف .. إلخ .

وإلى جانب هذا كله كان عثمان يؤثر أقرباءه بولاية الأمصار ، ويفضلهم على كثيرين من صحابة رسول الله ﷺ . وأغضب بذلك عامة المسلمين . كما غضب لذلك الصحابة أنفسهم .

وتحدث الناس فى جميع هذه الأمور حديث السر تارة ، وحديث الجهر تارة ، فكانت حركة الهمس فى ذاتها من أكبر العوامل التى أدت إلى الفتنة . كل ذلك مع أن سيرة الشيخين برئت من مثل هذه الحركة الخطيرة.

وفى ذلك يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الفتنة الكبرى »[1] :

« لولا شيء من التحفظ والاحتياط لقلت إن المسئول الأول والأخير عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطر إنما هو هذه العبقرية الفذة التى أتيحت لعمر ، ولم تتح لأحد من أصحابه ومنهم عثمان » .

خلافة عثمان من الزاوية الإعلامية

مهما يكن من شيء فإننا ننظر إلى خلافة عثمان من زاوية الإعلام فيتبين لنا أنها اقترنت بحركات منها :

أولا — الحركة الانتخابية التى انتهت بانتخابه خليفة بعد عمر .

ثانياً — حركة الفتوح وهى استمرار الحركات التى سبقتها .

ثالثاً — الحركة التى ظهرت فى إيثاره الأقرباء بمناصب الولاية على الأمصار .

ونحن مضطرون إلى الوقوف عند كل حركة من هذه الحركات الثلاث قبل أن نخوض فى الحديث عن الفتنة نفسها وعن الدعايات التى مهدت لظهورها .

الحركة الانتخابية

تمت هذه الحركة عن طريق الانتخاب فى أضيق صوره ، لأنه انتخاب مقصور على « أهل الحل والعقد » .

غير أن هذه الحركة الانتخابية فى ذاتها كان لها وجه إعلامى ظهر فى تزويد المسلمين بصورة عن الدين الذى جاء به الرسول ﷺ ، وهو الدين الذى دعا إلى الشورى ، كما زودهم بصورة صحيحة للحكم الإسلامى ، كيف يكون ، وصورة صحيحة عن الإمامة فيمن تكون .

من أجل ذلك بدأت الحركة الانتخابية بعد وفاة عمر باجتماع الصحابة من أهل الحل والعقد . وتقدم أحدهم — وهو هنا عبد الرحمن بن عوف ونادى علياً رضى الله عنه وقبض على يديه وقال له :

---

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى ص ٢١٨ .

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟

قال على : الله لا ، ولـكني أحاول من ذلك جهدى وطاقتى .

فأرسل يده ، وقال : هلم إلى ياعثمان . وألقى عليه نفس السؤال . فقال عثمان : نعم . فقال عبد الرحمن بن عوف : اللهم اشهد . اللهم اشهد .

مما لاشك فيه أن إجابة على بن أبي طالب عن سؤال عبد الرحمن ابن عوف كانت أدنى إلى الدقة وأقرب إلى التقوى من إجابة عثمان ، ولـكن عثمان أفاد من هذه الإجابة التى أجاب بها على ، وبادر إلى الرد بصورة الإيجاب على سؤال عبد الرحمن بن عوف ، وهكذا شاءت إرادة الله أن تصير الخلافة إلى عثمان فى ذلك الوقت . فماذا فعل الخليفة الثالث رضى الله عنه ؟

حـكم عثمان

بدأ عثمان حكمه بداية طيبة ، وسلك فى ذلك طريقة إعلانية ناجحة ، فقد أخذ يكتب الرسائل إلى العمال فى الأمصار ، وجاء فى بعض هذه الرسائل ما يلى :

أما بعد : فإنكم بلغتم مابلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلاتلفتنكم الدنيا عن أمركم . فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تـكامل النعم ، وبلوغ أولادكم سن الشباب ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ؛ وأن رسول الله ﷺ قال : الـكفر فى العجم ، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

وعثمان فى هذه الرسالة التى بعث بها إلى أحد أمراء الأقاليم صورة من صاحبيه أبي بكر وعمر ، وذلك فى المحافظة على سنة رسول الله ﷺ باعتبارها ركيزة من ركائز الإعلام وقاعدة من قواعده ، ولامحل للريبة فى شىء من ذلك ، لقد صرح عثمان فى هذه الرسالة بأنه من أنصار الاتباع . وليس من أنصار الابتداع ، وأن هذا الابتداع سيكون على يد جيل من الناس الذين

هم أولاد السبايا ، وهؤلاء الناس الذين امتزجت دماؤهم العربية بدماء غير العربية هم الذين سيدخلون فى الدين ماليس فيه .

وهكذا جاء هذا الكتاب الذى كتبه عثمان لبعض الأمراء تصويرا دقيقا لجميع المحن التى تعرض لها المسلمون بعد الفتح ، ومنها محنة البطر عند تكامل النعم ، ومحنة انحراف الشباب أو الجيل الجديد الذى هو من سبايا الفتح ، ومنها المحنة الكبرى التى هى عجز الجيل الجديد من أولاد السبايا عن فهم نصوص القرآن على الوجه الأكمل .

الفتوح فى عهد عثمان

فى أيام عثمان تم فتح بلاد فارس ، ومات ملكهم يزدجرد وهو آخر ملوكهم ، ووصلت الفتوح الإسلامية إلى بلاد الترك ، وتم فتح أرمينيا وفتحت أفريقيا ، وأغار العرب على بلاد الأندلس ، وغزا المسلمون بلاد الروم من جهة البحر . وفتحوا قبرص ، ووصل المسلمون إلى مضيق قسطنطين ، وانتصروا على الروم فى واقعة (ذات الصوارى) .

ومرة أخرى نقول إن هذه الفتوح لم تكن للغلبة والسلطان ، وإنما كانت لنشر الدين والهداية .

وهنا جاز لرجل الإعلام أن ينظر إلى هذه الفتوح على أنها استمرار فى ممارسة الوسائل الإعلامية التى هيأها الله لرسوله ﷺ . ومنها وسيلة الغزو أو الفتح .

ومن أجل ذلك كثر أعداء الإسلام بقدر ما كثر أتباعه وأنصاره ، وبذل الخلفاء الراشدون جهوداً كبيرة فى حماية الدين من أولئك الأعداء .

غير أن هذه الفتوح كان من أهم نتائجها فى الواقع أنها فتحت على المسلمين أبواب الغنى والثروة ، ووقع فى أيديهم كثير من الغنائم . وكان عثمان يتصرف فى هذه الغنائم بطريقة لاترضى الصحابة ، وقد كان يؤثر بها — كما قلنا — ذوى القربى ، ويحرم منها كل من ليست لديه صلة أو قرابة ، وكان ذلك يثير فى نفوس الكثيرين شيئاً غير قليل من مشاعر الحقد والحفيظة .

تولية عثمان أقرباءه على الأمصار

وهى الحركة الثانية التى أخذت عليه ، وعدها التاريخ من عيوبه — نعم كان من أخطاء عثمان فى خلافته أنه آثر أقرباءه من بنى أمية بالولاية على الأمصار ، وفيها — أى فى تلك الأمصار — كان يعيش بعض الصحابة فقد سمح لهم عثمان بالسفر إلى تلك الأمصار مخالفاً بذلك تلك السياسة التى سار عليها عمر ، وهى السياسة التى قامت على احتجاز الصحابة فى المدينة حتى لايفتتن الناس بهم ، أو يفتتنوا بأنفسهم ، وحتى لايحدثوا لأنفسهم فى تلك الأقاليم ثروات ضخمة ربما صرفتهم عن الدين أو قللت من هيبتهم فى نفوس المسلمين الصالحين ، وهذا ماحدث بالفعل فى عهد عثمان ، وبسببه أصبحت الأقاليم مهيأة للفتنة ، فما كان أبعد نظر عمر بن الخطاب حين عامل هذه الأرستقراطية الجديدة التى تألفت من كبار الصحابة بمثل هذه المعاملة التى وقتهم شر الأقاليم . فلما ذهبوا إليها فى زمن عثمان جرفتهم إلى الفتنة ، وذلك بما أتاحت لهم من الفراغ والثروة ، وأوصلتهم إلى المناصب العليا فى الدولة وطبعتهم بأخلاق غير التى كانوا عليها قبل الوصول إلى كل ذلك .

مهما يكن من أمر فقد أبقى عثمان فى السنة الأولى من خلافته على عمال الأقاليم كما تركهم عمر ، ومنذ السنة الثانية أخذ يعزل ويولى من جديد .

فأما الكوفة :

فقد ولى عليها واليين من أوليائه وأقربائه وهما الوليد بن عقبة وسعيد ابن العاص ، عرف أولهما برقة دينه وكان يشرب الخمر حتى أقيم عليه الحد ، وما زال أهل الكوفة بهذا الأمير وصاحبه سعيد بن العاص حتى طردوهما وأجبروا عثمان على قبول ذلك .

ومنذ يومئذ أطلت الفتنة برأسها على الناس وجذبتهم إليها .

وأما فى الشام :

فقد ولى أمرها معاوية بن أبى سفيان قبل مجىء عثمان ، ثم أتى عثمان فثبته فى وضعه لأنه من ذوى قرابته ، ولذا طالت مدة معاوية بهذه البلاد ،

وأصبح أشبه بملك عليها ، وكان العمال من حوله يعزلون بين الحين والحين وهو باق فى الشام لايزول عنها ، ولم يكتف عثمان بذلك حتى أضاف إلى معاوية ولايات أخرى ، وهى الأردن وفلسطين وحمص ، ولذلك كان عثمان يبعث إلى الشام بأكثر المتمردين عليه ليعاقبهم معاوية ويؤدبهم بطريقته ، وبعد وفاة عثمان جرؤ معاوية بن أبى سفيان فاقتطع من الدولة بلاد مصر فالحجاز حتى نظر على بن أبى طالب فإذا معاوية قد استأثر من الأمصار الإسلامية بأجودها وأحسنها .

وأما فى مصر :

فقد أرسل عمر بن الخطاب والياً عليها هو (عمرو بن العاص) . ولما انقضى عام على خلافة عثمان ولى عليها أخاه فى الرضاع (عبد الله بن أبى السرح) وأذن له فغزا شمال أفريقية ، وأعطاه الخمس من غنائمها . فعل عثمان كل ذلك برغم ما أشيع عن ابن أبى السرح قبل إسلامه من أنه سخر من القرآن وقال سأنزل مثل ما أنزل الله . حتى لقد أهدر النبى ﷺ دمه يوم الفتح لولا أن جاء به عثمان مسلما بين يدى الرسول ﷺ فعصم الرسول دمه .

وأمام كل هذه الشائعات حول ابن أبى السرح ، وهذه السيرة التى كان عليها ، وأمام حديث الناس فى كل هذه ، وأمام الماضى الذى عرف لهذا الوالى اضطر عثمان إلى عزله ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر . وفى عهد هذا الأخير خرج الثائرون من مصر ، واجتمع إليهم غيرهم من أهل الأقاليم الأخرى . وانتهى الأمر بقتل الخليفة .

قوة المعارضة :

أنكر الكثيرون من أهل الأمصار على عثمان كل هذه التصرفات . كما اعترض طلبه كبار الصحابة فى داخل المدينة ، ومنهم الخمسة الذين اختاروه للخلافة بعهد من عمر قبل وفاته وكلهم من السابقين الأولين ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن

عبيد الله ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وكان عثمان قد أعطى هذا الأخير ولاية بيت المال فى الكوفة ، وذلك حين كان سعد ابن أبى وقاص والياً عليها ، ثم عزل سعداً وولى مكانه الوليد بن عقبة كما سبق القول فى ذلك ، فاقترض الوليد شيئاً من بيت المال فأقرضه ابن مسعود ماأراد من بيت المال ، ولما حان موعد السداد طالبه ابن مسعود بالمال فالتوى الوليد . فألح عليه ابن مسعود . فشكا الوليد إلى عثمان . فكتب عثمان إلى ابن مسعود يقول له : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال .

فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ولزم بيته .

منذ ذلك الوقت أخذت المعارضة من جانب ابن مسعود تشتد شيئاً فشيئاً وازدادت الخصومة بينه وبين الخليفة ، وتطور الحديث بينهما حتى اضطر عثمان فى ذات يوم إلى إخراج ابن مسعود من المسجد إخراجا شنيعاً ، ودقت صاعته .. وأقبل على بن أبى طالب على عثمان فلامه لوماً شديداً على ذلك ، ثم تولى على أمر ابن مسعود وأخذ يعنى به حتى حملوه إلى منزله .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد حتى قطع عطاء ابن مسعود ، وحدد إقامته بالمدينة ، ثم أمر به فانتقل إلى الكوفة ، وانتقلت معه هذه الحركة أو الثورة التى كان محورا لها بالمدينة .

وكان من المعارضين لعثمان فى سياسته كذلك رجل آخر من الصحابة هو أبو ذر الغفارى .

نظر أبو ذر فإذا عثمان قد خص مروان بن الحكم من أقربائه كذلك بأموال كثيرة وأعطى أخاه الحارث مائة ألف ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف ، فأنكر كل ذلك على الخليفة ، ونهاه عثمان عن كل ذلك فقال :

« لأن أرضى الله بسخط عثمان أحب إلى من أن أرضى عثمان بسخط الله »

ثم نفاه عثمان من المدينة إلى الشام فانتقل بحركته أو سخطه إلى الشام ، وجعل يقول فيه ما كان يقوله فى المدينة ، وزاد على ذلك أنه أخذ ينكر على معاوية بعض ما أنكره على عثمان ، وأنكر على معاوية قوله (مال الله) وقال مكانها (مال المسلمين) ، فنفاه معاوية إلى المدينة ، واستمر أبو ذر فى سخطه وطعنه على عثمان لأنه أطلق يده فى مال المسلمين ، فنفاه مرة أخرى إلى (الربذة) حتى مات بها .

تلك صورة موجزة لما كانت عليه المعارضة فى أيام عثمان ابن عفان .

ثار كبار الصحابة فى داخل المدينة ، وأما فى الأمصار فقد كان الأمر على أشد من ذلك وحسبنا هنا أن نشير كذلك إلى رجلين فقط من أولئك الثوار .

أولهما : محمد بن أبى حذيفة ، والثانى : محمد بن أبى بكر . وكان الأول ابناً لرجل من السابقين الأولين أسلم قبل أن يذهب النبى إلى (دار الأرقم) واجتمع هناك بعدد قليل جداً من المسلمين وذلك فى أثناء المرحلة السرية من مراحل الدعوة .

وأما الثانى فهو محمد بن أبى بكر الصديق ، أخو السيدة عائشة أم المؤمنين .

والذى يرجحه المؤرخون أن كلا من هذين الرجلين كان يطمع فى الولاية ، لما له من عظيم المنزلة ورفيع المكانة . فلما لم يبلغ ما أراد ذهب إلى مصر . وقام بالدعاية ضد عثمان ، وكان الجو ملائماً لهذه الدعاية .

ولما عاد عبدالله بن أبى السرح من موقعة (ذات الصوارى) التى انتصر فيها على الروم وجد محمد بن أبى حذيفة يثير الفتنة بين المصريين ويقول لهم :

إنكم تسعون إلى الجهاد ... والجهاد وراءكم بالمدينة حيث يقيم عثمان ويسوس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيه : يعزل أصحاب النبى عن العمل ، ويولى أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب

الخون . انظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهاد (يريد ابن أبى السرح) إنه رجل نزل القرآن بكفره وأهدر النبي دمه. ولكن عثمان يوليه أمركم لأنه أخوه فى الرضاع . انظروا إلى سيرته فيكم : أترونه يهتدى فيها بهدى النبى وصاحبيه ؟ أترونه لايغير ولايبدل، ولايكلفكم من أموالكم وأعمالكم مالا تطيقونه ؟

وكان ابن أبى حذيفة يذيع مثل هذه الدعايات الخطيرة فى الجيش وكان محمد بن أبى بكر يذيع مثل هذه الدعايات فى الرعية . واشترك الرجلان فى توجيه النقد واللوم بكل هذا العنف إلى معاوية بالشام وإلى عثمان بالمدينة .

ويقال إن عثمان أخذ يترضى هذين المحمدين بالمال . ولكن أحدهما لم يرض بذلك بحال من الأحوال . بل إن محمد بن أبى حذيفة أخذ الكسوة التى بعث إليه بها عثمان فى مصر وذهب بهذه الكسوة إلى المسجد ، وقال يخاطب الحاضرين من المسلمين :

انظروا إلى عثمان كيف يريد أن يخدعنى عن دينى بهذه الكسوة ! !

وإلى هذا الحد بلغت الدعاية ضد عثمان . وكان القائمون بها من خيرة الصحابة وأبناء الصحابة . مع أن الأمور التى أخذت على عثمان كانت مما يمكن وقوعه من أى خليفة عدا الشيخين أبا بكر وعمر .

ترى ما الذى أوقع عثمان فى كل هذا الحرج ؟

وما الذى أثار على عثمان كل هذا السخط ؟

إن الذى أوقع عثمان فى كل ذلك شىء واحد فقط ، هو مخالفته للسياسة الإسلامية التى كان ينبغى أن تسير عليها سياسة الخلفاء الراشدين الذين عاشروا النبى بأنفسهم ، ورأوه بأعينهم ، وسمعوه بآذانهم ، واشتركوا معه بآرائهم وأموالهم وجهودهم . وعلى هذه السياسة الإسلامية الرشيدة — وهى سياسة الاتباع للرسول — سار أبو بكر وسار عمر . ولكن هذه السياسة تغيرت على يد عثمان . وحدث هذا التغير المفاجىء وكثيرون من الصحابة على قيد الحياة ، وأبناء الصحابة كلهم من الشباب المتحمس

للعقيدة وللكتاب والسنة كما تركهما الرسول . فلم يكن من السهل على هذا الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ وأبنائهم أن يسمحوا بهذه الأمور التى حدثت من عثمان . ولو وقعت هذه الأمور وأكبر منها بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين لكانت مقبولة إلى حد ما . ولذلك وقع فى الخلافة الأموية فالخلافة العباسية من عظائم الأمور ما يشيب لها الولدان : وكان الرعيل الأول من الصحابة وأبنائهم قد انقضى ، وخلف من بعدهم خلف حادوا عن الطريق وتنكبوا عن السياسة الإعلامية الرشيدة التى سار عليها أبو بكر وعمر .

(والخلاصة) أن المسئول عن وقوع الفتنة الكبرى التى انتهت بهذه المأساة الكبرى ، وهى قتل عثمان أمران :

أولهما : تشدد أبى بكر وعمر فى اتباع سنة رسول الله رعاية منهما للإسلام وحرصا منهما على رضاء الله ورسوله. وبهذا التشدد فى اتباع رسول الله ظهر الفرق واضحاً جلياً بين سيرة الشيخين من جهة وسيرة عثمان من جهة ثانية . وعذر عثمان فى ذلك أنه كان يفهم للعدل صورة غير الصورة التى كان يفهمها صاحباه، ومعنى ذلك أن عثمان لم يصدر فى عمل من أعماله عن معصية لله وللرسول ،أو عن تنفيذ لسياسة الابتداع بدل الاتباع . ولكنه صدر فى كل ذلك عن هذه الصورة التى تكونت فى ذهنه .

ثانيهما : مخالفة عثمان للسياسة الإعلامية التى كان عليه أن يرعاها بغاية الدقة ويتوخاها بغاية التحرج . وأكبر الظن عندى أنه كان فى وسع عثمان أن يفعل ذلك لولا أنه وقع تحت تأثير أقاربه من بنى أمية وغيرهم . وبنو أمية جدهم أبو سفيان ، وهو من قريش أسلم على يد النبى ﷺ قبيل الفتح. ودخل النبى ﷺ عليه وعلى قومه الكعبة فقال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وليس الطلقاء فى الإسلام كالأحرار الذين أسلموا قبل الفتح من تلقاء أنفسهم لا تحت ضغط من السيف أو الرمح .

الفصل الرابع
الدعاية والإعلام في عهد علي

لايسع المؤرخ الإعلامى عندما يتكلم عن الإمام على إلا أن يشير إلى الشخصية التى انفرد بها بين الصحابة ، ولا نبالغ إذا قلنا عن الإمام أنه كان أكبر شخصية عرفها الإسلام وذلك بعد رسول الإسلام . وما كان اخلقه أن يكون أول خليفة لرسول الله لولا أن حالت دون ذلك أمور كثيرة . كل أمر منها له اعتباره ومنها :

أولا : حداثة سنه عند وفاة النبي ﷺ ووجود الشيوخ من الصحابة الكبار من أمثال أبى بكر وعمر وغيرهما . فقد كان على عند وفاة النبى ﷺ فتى لم يتجاوز الثلاثين ، وكان أبو بكر وعثمان قد صحبوا النبى ﷺ بضع عشرة سنة وهم شيوخ قبل ظهور على بن أبى طالب على مسرح الحياة العامة .

ثانياً : وهو الأهم — قرابة على للنبى ﷺ . وقد كانت هذه القرابة حجاباً له دون الوصول إلى الخلافة. وخاصة عقب النبى ﷺ نفسه مباشرة . ذلك أن القبائل العربية — ومنها قريش — أبت ألا يجتمع لآل هاشم ميراثان كبيران فى وقت واحد ، وهما ميراث النبوة وميراث الخلافة . وأهم من هذا وذاك أن الإسلام نفسه لا يقر العصبية بل يقوم على أساس المساواة بين الناس . وفى ذلك يقول عمر :

« إن قريشاً قد اختارت لنفسها وأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة » .

ثالثاً : أن على بن أبى طالب قتل من بنى أمية عددا كبيرا فى غزوة بدر ، فحقد عليه بنو أمية منذ ذلك الوقت. وظل هذا الحقد فى صدورهم حتى بعد أن دخلوا الإسلام . وفى ذلك يقول على :

« مالى ولقريش أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنهم مفتونين ، ووالله لأضربن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته » .

موقف على من الفتنة

تلك شخصية على ، وتلك هى بعض الظروف التى كانت عقبة فى سبيل وصوله إلى الخلافة قبل كل من أبى بكر وعمر وعثمان . على أن التاريخ الإسلامى لايكاد يعرف ظروفاً أفظع ولا أسوأ من الظروف التى بويع فيها على ، ويكفى أن نذكر من تلك الظروف أنه بويع بعد المأساة الأليمة التى قتل فيها عثمان بن عفان فى أعقاب الفتنة الكبرى التى انتهت بقتله ، وأكثر من ذلك أن على بن أبى طالب بويع بالخلافة وهو متهم بدم عثمان رغم الجهود التى بذلها فى المحافظة على حياته .

على أن هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالبيعة تحتاج منا إلى هذه الإشارة الموجزة :

أولا : أن على بن أبى طالب توسط بين عثمان بن عفان والثوار ، واستمهلهم ثلاثة أيام يرد بعدها جميع المظالم فيعزل فيها العمال المكروهين من الرعية ، ويصلح الأمور التى من أجلها قامت الثورة .

ومرت الأيام الثلاثة ، ولم يقبل عثمان مشورة على بن أبى طالب فى شىء من ذلك .

ثانياً : علم الثوار بأن وساطة على لم تثمر وأن عثمان رفض أن يستجيب لمطالبهم ، فعادوا إلى الثورة من جديد ، وتهيئوا جميعا لقتل عثمان ، فخرج على بن أبى طالب من بيته بعمامة الرسول ﷺ ، ومتقلداً سيفه ، وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار ، وحمل على وأصحابه على الثوار حتى أبعدوهم عن دار عثمان . ثم دخل الإمام على بيت عثمان ، فسلم عليه ، وحدثه حديثا طويلا جاء فى نهايته :

« ولا أرى القوم إلا قاتليك . فمرنا فلنقاتلهم » فأبى الخليفة الطيب عثمان كل ذلك حقنا لدماء المسلمين . فأعاد عليه القول فى ذلك فأصر عثمان على موقفه .

ثم خرج على من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فناداه جميع من فى المسجد : « يا أبا الحسن . تقدم فصل بالناس » .

فقال على بن أبى طالب : « لا — لا أصلى بهم والإمام محصور » . وصلى على وحده فى ذلك اليوم .

ثالثاً : رجع على بن أبى طالب إلى منزله وترك ابنيه الحسن والحسين مع أبناء الصحابة فى حراسة عثمان ، وضاق الثوار بالانتظار على هذه الحال . وأخيرا تسوروا دار عثمان ووصلوا إليه وفعلوا فعلتهم وتخلصوا من الرجل .

وسمع بذلك على فأسرع إلى بيت عثمان ولطم ابنيه لطمات قوية ، ووجه إلى أبناء الصحابة أقسى العبارات . فقال أحدهم — وهو طلحة : «لاتضرب ياعلى ولا تلعن . لو دافع مروان بن الحكم عن عثمان ما قتل عثمان » ومروان هذا من أقرباء الخليفة المقتول .

معنى ذلك أن على بن أبى طالب كان بريئاً من دم عثمان ، لاشك فى هذا ، وأنه لم يكن يقدر على تجنب هذه الكارثة وحماية عثمان من نتائجها معاوية بن أبى سفيان ، وأن الخطأ الأول والأخير هو خطأ عثمان ، لأنه لم يشأ أن يستمع إلى نصائح الصحابة ، وفيهم على — ولم يشأ أن يعمل بمشورة على بوجه خاص ، وذلك فى اللحظات الأخيرة ، أو الساعات الحرجة التى سبقت وقوع الحادث ، وكان يطلب النجدة أو الغوث كلما اشتد هجوم الثوار على دار عثمان ، ومع ذلك لم يستجب له معاوية بن أبى سفيان مع أنه كان أقرب إلى عثمان من على بن أبى طالب ، ومع هذا وذاك فقد كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتهم علياً بدم عثمان كما ستأتى الإشارة إلى ذلك فيما بعد .

وكان الثوار من جانبهم ينظرون إلى على على أنه المسئول الأول عن الإصلاح من حيث هو ، وفى المؤتمر الذى عقده عثمان لهذا الإصلاح لم يكن على عضوا من أعضائه لأن عثمان توخى أن يكون أعضاء هذا المؤتمر من ذوى قرباه ، فحضر هذا المؤتمر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، وفى استطاعة القارىء أن يتكهن بالنتائج التى يتمخض عنها مثل هذا المؤتمر الذى يتألف من رجال كهؤلاء ليس فيهم رجل كعلى ابن أبى طالب أو رجل من كبار الصحابة .

الثورة تبايع عثمان

بعد مقتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام بدون خليفة ، وألح الثوار على الإمام على فى قبول الخلافة ، وهو يهرب منهم ويبتعد عنهم ، ثم اتجهوا إلى الزبير وعرضوا عليه الخلافة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى طلحة فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى سعد بن أبى وقاص فهرب منهم ، ثم اتجهوا إلى عبد الله بن عمر فهرب منهم ، ثم قال بعضهم لبعض : لانستطيع أن نرجع إلى أمصارنا بعد قتل عثمان من غير أن نختار ولياً الأمر مكانه ، فرجعوا إلى على بن أبى طالب ، وألح الأشتر النخعى عليه فى قبول الخلافة ، وأخذ بيده فبايعه وبايعه الناس بعد ذلك ، وتقدم طلحة والزبير فبايعاه ، ثم صعد الإمام المنبر فبايعه من الناس من لم يكونوا قد بايعوه من قبل ، ولكن قريشاً وبنى هاشم لم يكن لهم رأى فى هذه البيعة ، فقد تركا للثورة وحدها أن تكون صاحبة الرأى فى مبايعة على .

وسمع معاوية بن أبى سفيان بهذه البيعة فساءته أخبارها ، وتوقع الشر كل الشر من ورائها ، وظهر فى الإسلام لأول مرة فى تاريخه خلاف شديد بين نظامين مختلفين هما :

نظام الخلافة الدينية .

ونظام الملك الدنيوى .

الأول يمثله على بن أبى طالب والثانى يمثله معاوية ، وانقسم المسلمون لأول مرة فى التاريخ كذلك إلى أحزاب ثلاثة : حزب على ، وحزب معاوية ، وحزب خارج على الفريقين هو حزب الخوارج :

حزبان متعارضان

غير أن الذى يعنينا من هذه الأحزاب الثلاثة حزبان فقط هما حزب على وحزب معاوية :

١ ـ أما حزب على فكان يتألف من جمهور القراء والفقهاء والنساك والحفاظ ، وكان هؤلاء وهؤلاء من أفراد الحزب يسخطون على ترف الأغنياء الذين أثروا فى أيام عثمان من وراء المناصب الكبيرة التى وضعهم فيها ، وكانوا كذلك ينكرون كل خلاف يقع بين المسلمين يؤدى إلى تفريق الكلمة ، وكانوا حافظين لحدود الله ولا يرضون عن أولئك الذين لا هم لهم إلا هذه الدنيا ، وكانوا يكرهون الحرب إلا لنشر الدين : وطالما عارضوا علياً نفسه فى رغبته فى الحرب ، وخاصة تلك التى أراد أن يشنها على معاوية .

٢ ـ وأما حزب معاوية فكانوا طلاب دنيا ومال وجاه ، وكانوا يسمعون الحق كما يسمعون الباطل ، لأنهم لا يفرقون بينهما ، وكانوا لا يعرفون غير الطاعة العمياء لمعاوية بن أبى سفيان ، لا يجيزون إلا ما أجازه ، ولا يميزون معه بين ناقة وجمل :

فما أبعد الفرق بين الفريقين .. فريق على وفريق معاوية ؟

« كان أصحاب على ـ كما يقول الأستاذ عباس العقاد ـ أقرب الناس فى ذلك الوقت إلى الإصغاء إلى صوت الضمير قبل صوت الأمير ، وكان أصحاب معاوية على العكس من ذلك » .

وقد شاء القدر أن يرث على من عثمان تركة مثقلة بالأخطاء التى ارتكبها عثمان نتيجة السياسة الإعلامية التى انتهجها مخالفاً بها سياسة صاحبيه أبى بكر وعمر .

وهذا الخطأ الذى ارتكبه عثمان هو أنه لم يحتجز كبار الصحابة بالحجاز ولم يمنعهم من الانطلاق فى الأمصار ، ولم يحل بينهم وبين الإقبال على الدنيا والانصراف إلى الجاه والسلطان ، وقد جنى عثمان من وراء هــذه السياسة أن كبار الصحابة كانوا حرباً عليه وعلى الخلافة ، من أجل ذلك كان أبو بكر قا ُوصى من يخلفه قائلا له :

« احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أوداجهم وطمست أبصارهم وأحب كل امرىء نفسه » . . . إلخ .

ومن أجل ذ ك كان أبو بكر يحذر رجلا كعبد الرحمن بن عوف من الدنيا ويقول له :

« . . . ور يتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخــذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان » .

وهذه الطبقة التى تحدث عنها أبو بكر وحذر منها الخلفاء من بعده هى الطبقة التى كانت مصدر القلق والمتاعب الكثيرة للإمام على بن أبى طالب ، على حين أن معاوية بن أبى سفيان كان رجاله وأتباعه خلاف ذلك . وكانوا فى الوقت ذاته أطوع له من بنانه .

ولا ننسى أن أمية (جد الأمويين) هو الذى اختار الشام لنفسه مقاماً منذ الجاهلية ، وأنه وأولاده من بعده كانوا يتألفون الشاميين منذ ذلك الحين ، فنشأ هؤلاء على حبهم وإيثارهم على غيرهم من المنتمين إلى قريش .

يضاف إلى ذلك أن تجارة الشام كانت للشام حيث يقيم بنو أمية ، وأن خراج الشام كان للشام أيضاً ، وأما موارد الحجاز فلم تكن للحجاز ، وكانت مصر والعراق من نصيب على ، ومع ذلك لم ينتفع على بهما فى شىء ، وذلك لفساد الأمر فيهما بسبب الولاة والفتن التى أحدثها أولئك الولاة .

وباختصار شديد كانت كل عوامل القلق والاضطراب فى جانب على ، وكانت كل عوامل الراحة والطمأنينة والطاعة فى جانب معاوية . . وحسبك أن تستمع إلى على بن أبى طالب وهو يقول لأخيه .

« دع عنك قريشاً وتراكضهم فى الضلال فإن قريشاً قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها قبل اليوم على حرب رسول الله ﷺ »

من أجل ذلك وجدنا على بن أبى طالب يقع عليه كل ذنوب عصره:

وقعت عليه شكوى الناس من قريش .

ووقع عليه شعور الفقراء بالضيم مع أنه واحد منهم .

ووقع عليه تهافت الولاة على المال ، مع أنه شديد المحاسبة لهم .

ووقعت عليه مسئولية الدعوة إلى الإصلاح الذى دعا به الحفاظ والنساك ومن إليهم . فماذا يفعل على بن أبى طالب أمام هذه الظروف كلها ؟

وما حيلته فى الشعور بالتبرم والسخط من جميع الناس فى عصره ؟

وما عسى أن تكون سياسته الاعلامية فى تلك الفترة التى انقسم فيها المسلمون قسمين أو حزبين ، حزب مع على ، وحزب مع معاوية ؟

الدعاية والإعلام فى عهد على

رأينا كيف كان الفرق عظيما جداً بين على ومعاوية من حيث نظام الحكم عندهما ومن حيث الرعية التى كان يحكمها كل واحد منهما ، ومن حيث السنة التى اتبعاها ، ومن حيث البطانة التى كانت تحيط بكل منهما ، ومن حيث الأخلاق والمبادىء التى أخذت بها كل بطانة على حدة ، ومن حيث الموارد الماليه التى تملكها ، ثم من حيث الهدف الذى تهدف إليه آخر الأمر. وقد شرحنا كل هذه الفروق بإيجاز تام ، ونريد أن نعرف بعض الوسائل الاعلامية والدعائية التى تذرع بها كل واحد من هذين الفريقين .

ويمكن أن نوجز القول فى كلمة نذكرها أولا ، ثم نقدم الأدلة عليها بعد ذلك .

وهذه الكلمة هى أن (الإعلام) كان وسيلة الإمام ، أما (الدعاية) فكانت وسيلة معاوية .

وهكذا وجدنا طرق الدعاية تتسع أمام معاوية لأنه إنما يسعى إلى ملك

دنيوى . وأن طرق الإعلام تضيق أمام على لأنه إنما يتقلد أمر خلافة دينية قبل كل شيء .

ثم هكذا شاءت حكمة الله أن يكون للحق طريق واحد لاثانى له ، وأمام الباطل طرق متعددة ، وأساليب منوعة ،ووسائل لاحصر لها . وقد أشرنا إلى بعض وسائل الدعاية عند معاوية ، ولم نذكرها كلها . لأننا إنما نتحدث عن الدعاية الأموية لمجرد موازنتها بالإعلام العلوى،فما هى وسائل هذا الإعلام ؟ .

الواقع أن الإمام لم يكن يملك من وسائل الإعلام غير وسيلتين هما :

١ — وسيلة الخطبة .

٢ — ووسيلة الرسالة .

وكان يساعده على النجاح فى ممارسة هاتين الوسيلتين أمور كثيرة من أهمها :

١ — قوة شخصيته .

٢ — وحسن أخلاقه وجميل سيرته .

وقد كان فى هذه الصفة أشبه رجل برسول الله ﷺ . وفضلا عن هذا وذاك كان الإمام مضرب المثل فى الفروسية العربية، وما اقترن بها من أخلاق ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نسوق شاهدين :

١ — أن معاوية كان من خطته فى الحروب التى دارت بينه وبين على — ومنها حرب صفين — أن يبدأ بامتلاك موارد الماء ، ومتى امتلك هذه الموارد منعها عن أصحاب على حتى يقتلهم الظمأ .

فعل معاوية ذلك مع أصحاب على ، فأشار عليه أصحابه أن يفاوض معاوية فى السلم ولكن معاوية لم يقبل منه ذلك،فما كان من على وأصحابه إلا أن هاجموا معاوية وأصحابه حتى امتلكوا موارد الماء ، وإذ ذاك أشار أصحاب على بأن يمنع الإمام الماء عن أصحاب معاوية فأبى عليهم ذلك كل الإباء، وقال لأصحاب معاوية : خذوا من الماء ماشئتم وارجعوا

إلى معسكركم . ثم قال الإمام لأصحابه : خلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » .

وهذا خلق من أخلاق الفروسية العربية الإسلامية كان خليقاً بعلى بن أبى طالب ولم يقدر عليه رجل كمعاوية بن أبى سفيان .

٢ — والشاهد الثانى على أخلاق الفروسية عند على :

رأى على عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوءة يحاول أن يدفع عن نفسه الموت بما حضره من وقاء ، فصرف على وجهه عن عمرو وهو فى هذه الحالة وأنف أن يصرع رجلا يخاف الموت بهذه الصورة التى لاترضاها كرامة الصراع فى أى درجة من درجاته ، ولو غير على رأى عدوه بهذه الحالة لانتهز الفرصة فقضى عليه وتخلص منه .

بقى أن نضرب المثل على نجاح الإمام فى ممارسة هاتين الوسيلتين من وسائل الإعلام — وهما الخطب والرسائل .

خطب على

والمعروف أن كتاب نهج البلاغة يشتمل على كثير من خطب الإمام على ، وللنقاد والباحثين أن يشكوا فى هذا الكتاب وفى نسبة الخطب التى يشتمل عليها إلى الإمام على ، وأن هذه القضية من قضايا الأدب لاتعنينا فى هذا البحث ، ومما لا شك فيه أن قدراً كبيراً من الخطب يمكن نسبته إليه ، وأن الباقى من هذه الخطب لابد أنه صيغ على غرار الخطب التى صدرت من على ، وجرت على النمط البلاغى أو الأسلوب الخطابى الذى عرف به ، ونحن نعلم أن الفرق عظيم بين الإعلام من جهة ، والدعاية من جهة ثانية .

فالإعلام لابد أن يبنى على الصدق ، وعلى الصدق وحده . ورجل الإعلام هو الذى يزود الناس بالأخبار الصادقة والمعلومات الصحيحة ، هو الذى يفسر هذه المعلومات — إن أراد — ولكنه يحاول أن يؤثر فى الناس بطريقة من الطرق حتى يفهموا هذه المعلومات بالطريقة التى أرادها رجل

الإعلام ، ولكنه يترك لهم الحرية التامة فى فهم هذه المعلومات وإدراكها بعد أن قدمها لهم وأعقب ذلك بشرحها وتفسيرها قدر المستطاع .

أما الدعاية فقد تبنى على الصدق وقد تبنى على الكذب ، وهى على الكذب أكثر اعتماداً فى أغلب الأحيان . والقصد من الدعاية هو استهواء الناس والتأثير فى نفوسهم وعقولهم لغرض مشكوك فيه ، ومع أن الدعاية لها هذا الطابع المخالف لطابع الإعلام فإنها قوة كبيرة من القوى التى تستطيع أن تغير ميزان العالم فى جميع الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والفنية على السواء .

ومن أجل ذلك أثر عن معاوية بن أبى سفيان أنه كان يقول : « للوصول إلى الحق ينبغى أن نخوض كثيراً من الباطل » ومثل هذه الكلمة لايمكن أن تصدر عن على ، لأن علياً لايعرف غير الحق ، أو ما يعتقد أنه حق ، ولا يسلك طريقاً غيره ، لذلك لم يكن لعلى أعوان مخلصون يتعاونون معه ، على حين أن معاوية كان أعوانه يتفانون فى الإخلاص له ، ولا يقدمون إلا على الأعمال التى يرضى عنها ، ولهذا السبب بنى معاوية سياسته فى الدعاية على الطعن فى أعدائه — وعلى رأسهم على بن أبى طالب ، فى حين أن علياً كان لايرضى لنفسه ، ولا يرضى له دينه وخلقه أن يبنى سياسته الإعلامية على الطعن فى أعدائه بنفس الطريقة التى سلكها معاوية .

حدث أن علياً سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام ممن اشتركوا فى واقعة (صفين) فقال لهؤلاء :

« إنى أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به .

فأين هذا من فعل معاوية حين كان يأمر بأن يسب على فوق المنابر ، ويأتى من الأعمال ما أشرنا إلى بعضه فى الفصل الذى عنوانه « الأحاديث

النبوية وقوتها الدعائية » ، وفى ذلك الفصل ذكرنا بعض الأحاديث التى زيفها معاوية على النبى ﷺ .

ومنها : مارواه الزهرى أن عروة بن الزبير حدثه فقال :

حدثتنى عائشة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ إذ أقبل العباس وعلى ، فقال النبى ﷺ : « ياعائشة إن هذين يموتان على غير ملتى » ولا شك أن هذا من الأحاديث الموضوعة وليس له أدنى قسط من الصدق .

ويدلنا كل ذلك على صحة مـا قلناه من أن (الإعلام) كان وسيلة الإمـام . وأما (الدعاية) . والدعاية السوداء لا البيضاء — فقد كانت وسيلة معاوية .

الدعاية ضد على

وبغض النظر عن الأساليب التى اتبعها معاوية فى نشر الدعـاية السيئة حـول على ومنها أسلوب الأحاديث الموضوعة أو الكاذبة ، ومنها أسلوب تفسير آيات القرآن تفسيرا يسىء إلى سمعة على ، وقد أشرنا إلى أمثلة من ذلك فى الفصل الذى عنوانه (الأحاديث النبوية وقوتها الدعائية) ، نقول بصرف النظر عن هذه الأساليب التى اتبعها معاوية فى محاربة على ننظر فى كتب التاريخ فنجد أن معاوية أشاع عن الإمام صفات غير حقيقية وأخذه بعيوب ليست فيه ، ومنها :

١ — أشاع معاوية عن على أنه رجل ذو دعابة . وهى صفة أراد بها معاوية أن يقلل من هيبة الإمام فى النفس ، لأن مثل على لايصح أن يكون كذلك ، وإلا نظر إليه حزبه من كبار الصحابة نظرة استخفاف ، وهم قوم درجوا على الجد لا الهزل ، وبلغ ذلك علياً فقال :

عجباً لابن النابغة يزعم لأهل الشام أن فى دعابة ، وأنى امرؤ تلعابة ، لقد قال باطلا ، ونطق آثما . أما وشر القول الكذب ، وإنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيحلف ، ويخون العهد ، ويقطع الأهل ، أما

والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت . وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة .

٢ — كما أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل الدهاء ، فكان الإمام يرد عليه بقوله : والله ما معاوية بأدهى منى . ولكنه يغدر ويهجر . ولولا كراهيتى الغدر لكنت من أدهى الناس . ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

وكان معاوية يفخر بذكر الخصال التى استعان بها على الإمام فيقول عنه :

إنه كان لا يكتم سراً . وكنت كتوماً لسرى وإنه كان يظلى فى مكاته حتى يفاجئه الأمر وكنت أبادر إلى ذلك . وكان فى أخبث جند وأشدهم أخلاقاً . وكنت فى أطوع جند وكنت أحب إلى قريش منه فنلت ماشئت .

٣ — وكان معاوية يشيع عن على أنه رجل لا علم له بالحرب وفنون الحرب برغم أنه رجل شجاع وفارس فذ .

٤ — وكان معاوية يشيع عن الإمام أنه رجل لايصلح للخلافة . وكان يستشهد بقول عمرو بن العاص .. لا يصلح للخلافة إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم الناس بالآخر ، وربما كانت هذه نظرية عثمان بن عفان قبل أن تكون نظرية معاوية أو ابن العاص . ولذلك بذل هؤلاء الثلاثة كثيراً من المال للأتباع والأعوان . وكانوا يقربون إليهم أبناء الصحابة ويبالغون فى إكرامهم ويوفرون لهم أرغد العيش .

٥ — وكان معاوية يشيع عن الإمام بأنه رجل لا يعرف رجاله معرفة جيدة . أما معاوية فكان على العكس من ذلك يحاول أن يدرسهم . وكان يبعث إليهم بالرسل من عنده . وكان يقول للرسل ، حدثوا أصحابى بما يرضيهم وأجيبوهم إلى ما يحقق لهم كل ما يرغبون فيه أما على فكان لا يجامل أحداً من أصحابه فى الحق ولا يشترى غضب الله برضاء الأصدقاء .

٦ — أشاع معاوية عن الإمام على أنه قليل العلم بأخلاق الرعية . أما هو

نعلى العكس من ذلك يزعم لنفسه أنه أتقن درس الرعية ، وكان يصفها بقوله :

« إنهم أتباع كل ناعق ، وأنهم إذا اجتمعوا أضروا ، وإذا تفرقوا نفعوا لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنهم . فانتفع الناس بهم » .

وزعم معاوية أن الذى أعانه على دراسة الناس وأخلاقهم إلى هذا الحد هم العيون والأرصاد ، وهم الجواسيس بلغة العصر الحاضر ، يبعث بهم إلى البلاد فيأتونه بأخبار أهلها جميعاً ، فيسوسهم على النحو الذى يرضيهم .

وبفضل هؤلاء الجواسيس كذلك كان معاوية يعرف كيف يختار الرجال القادرين على خلق القلاقل وصنع المكائد وإيجاد الفتن فى بلاد كالحجاز والعراق حيث يقيم على وكبار الصحابة ، ويحبب هؤلاء فى المجىء إلى الشام وترك الإمام على بن أبى طالب ، وقد كان فى استطاعة الإمام أن يجرد سيفه ، ويعمد إلى قتل هؤلاء — ومعظمهم من الخوارج الذين يتزعمهم الأشعث بن قيس — ولكنه لم يفعل ذلك ، ولو فعل لأمن على نفسه من شرور كثيرة .

٧ — كما اعتمد معاوية فى دعايته ضد الإمام كذلك على الطرق المسرحية ، فما أن سمع بمقتل عثمان حتى بعث إلى المدينة من أتى له بقميصه — أى بقميص عثمان وعليه دمه ، وأمر الرسول فحمل القميص على علم ووصل به إلى معاوية ففرشه على الأرض ، وجمع أصحابه ، وجلسوا يبكون على عثمان ويقولون : على بن أبى طالب هو القاتل .

٨ — والذى لابد من ذكره كذلك أن معاوية استغل فى دعايته هذه جهل الرعية فى زمانه ، وقد كان العلم فى الشام — حيث الأعوان الملتفون بمعاوية — أقل من العلم فى الحجاز حيث كبار الصحابة وأبناء الصحابة الذين تألف منهم حزب على . واستمع إلى المسعودى إذ يقول :

« وبلغ من إحكام معاوية للسياسة (يريد الدعاية) وإتقانه لها واجتذاب قلوب خواصه وأعوانه أن رجلا من أهل الكوفة دخل ببعيره إلى دمشق، فتعلق به رجل من أهلها وقال : هذه ناقتى أخذت منى ، فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقى خمسين رجلا يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية للدمشقى على الكوفى وأمره بتسليم الناقة إليه . فقال الكوفى : أصلحك الله أيها الأمير ، إنه جمل وليس بناقة ، فقال معاوية : هذا حكم قد مضى ، ثم دس معاوية إلى الكوفى بعد تفرق الجماعة من أحضره إليه ، وسأله معاوية عن ثمن الجمل ودفعه إليه، وبر به وقال له: أبلغ عليا أنى أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »[1] .

واستطردنا إلى وصف شيء من الدعاية التى قام بها معاوية ضد على لتدرك الحقيقة التالية وهى :

— أن الدعاية — ولو كانت قائمة على الباطل فى بعض الأحيان — لها من التأثير فى النفوس والقدرة على قلب النظم والأوضاع — ما للإعلام برغم أنه قائم على الحق وعلى الحق وحده قبل أى شيء . وإنها لحقيقة مؤلمة ؛ ولكن السكوت عنها يضر بالحق نفسه فإن الساكت على الدعاية لا يقاومها بكل الطرق الممكنة كالساكت على النار تقترب منه شيئاً فشيئاً حتى تشتعل بثيابه وتأكله .

صحيح أن من أمضى الأسلحة فى مقاومة الدعاية هو الإعلام ، والإعلام هو القادر على إسكات الدعاية، وذلك بالكشف عما فيها من الكذب والزيغ عن الحقائق والبعد عن الصحة ومخالفة الواقع ، ولكن الإعلام فى هذه الحالة لابد من أن يبذل من الجهود الكبيرة أضعاف ما تبذله الدعاية ، وبغير ذلك تكون الغلبة للأخيرة فى النهاية »

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ص ١٧٦ نشر دار الفكر العربى . نقلا عن مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٧٢ — المطبعة البهية .

وهذا هو الموقف الحرج الذى وقفه الإمام على من داهية الشام معاوية ابن أبى سفيان .

لقد كان الامام محوطا بقوم من أصحابه يعرفون أن لهم حقاً فى مناقشة الحساب فى كل شىء ، وكانوا قلما يطيعونه فى شىء ، فى حين أن معاوية كان محوطا بقوم من أتباعه بلغ من أمر طاعتهم له أن صلى بهم عند مسيرته إلى (صفين) صلاة الجمعة يوم الأربعاء .

(تم بحمد الله)

الخاتمة

بقلم الدكتور إبراهيم إمام

أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة

عندما تفضل أستاذنا الراحل العالم العظيم الدكتور عبد اللطيف حمزة — رحمه الله وأسكنه فسيح جناته — بإعطائى مسودة هذا الكتاب «الإعلام فى صدر الإسلام» لكى أطلع عليها ، كما كان يفعل دائماً معى فى كل كتبه ، لم يدر بخلدى أن هذه الدرة الثمينة سوف تكون آخر بحوثه العلمية القيمة التى أربت على الثمانين كتاباً وبحثاً .

ومع ذلك ، فإن قارىء هذا الكتاب يشعر شعوراً غريباً بأن مؤلفه العظيم يكتب وكأنه يصلى ، وينشىء العبارات وكأنه يتعبد ، وبتواضع المؤمن العالم يقول — رحمه الله — أنه كان يتهيب الخوض فى هذا الموضوع ، وأنه تردد كثيرا قبل الإقدام عليه .

هذا ، مع أن أستاذنا الراحل كان مؤهلا حقاً تمام التأهيل للبحث فى هذا الموضوع الجليل ، ويكفى أنه شارك بالبحث فى الثقافة الإسلامية بأكثر من عشرين كتاباً ، كما أسهم فى الدراسات الإعلامية بأكثر من أربعين بحثاً قيما ، منها مايعد بحق خير ماكتب باللغة العربية فى فنون الدعاية والإعلام حتى الآن .

والواقع أن كتاب « الإعلام فى صدر الإسلام » هو افتتاحية سلسلة جديدة من الكتب ، وضع أستاذنا الراحل خطتها بإحكام ، على أساس أن الثقافة الاسلامية تحتوى على كنوز من فنون الدعوة والاعلام والدعاية ، تبدأ منذ أخذ الرسول — عليه الصلاة والسلام — يدعو للدين الحنيف سرا ، إلى أن اتخذت الدعوة شكلها العلنى ، ثم مرحلة الاضطهاد ، ومنها إلى

الهجرة حتى مرحلة الاستقرار فى المدينة ، التى شهدت ذروة الدعوة المقدسة ».

ويفرق المغفور له الدكتور عبد اللطيف حمزة بين الدعوة والاعلام والدعاية فيقول أن اصطلاح « الدعوة » مقصور على جهود الرسول — عليه الصلاة والسلام — فى نشر الرسالة كما بينا من قبل ، أما كلمة « الاعلام » فتختص بأعمال الخلفاء الراشدين فى هذا المضمار ، ولاشك أن « الاعلام » هنا يقصد به التفسير والتنوير والشرح القائم على فكر سليم ، وضمير حى ، وأصول أخلاقية متينة ، فى حين أن كلمة « دعاية » تنطبق على أوجه النشاط السياسى التى تعددت بعد تكوين الدولة الاسلامية الكبرى ، وهنا نجد كنوزا من المعرفة والفنون الدعائية فى عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين ، فضلا عن الدعاية المدروسة المتقنة عند الشيعة والقرامطة وغيرهم .

وما من شك فى أن كنوز الدعاية فى الحضارة الاسلامية ، لم تجد بعد من يجلوها ويزيل عنها ركام النسيان الذى ران عليها عبر القرون . صحيح أن المستشرقين وغيرهم من الكتاب الغربيين قد قاموا بجهود متعددة الأهداف ، ومتنوعة الأغراض ، لدراسة الفكر السياسى الإسلامى وفنون الدعاية ، وخاصة عند الشيعة وغيرهم ، إلا أن هذه الجهود كان يحدوها التحيز أحيانا ، والهوى أحيانا أخرى . وقد كان أستاذنا — رحمه الله — يتساءل : وحتى هؤلاء الذين يقومون بالبحث العلمى لوجه الله والحقيقة ، هؤلاء المستشرقون والأجانب ، هل نتركهم يفكرون لنا ؟ وهل نرضى أن نظل مكتوفى الأيدى ، ننظر فى سلبية إلى إنتاج الأجانب الفكرى دون أن نبذل أى جهد من جانبنا ؟

ويتحمس مؤلفنا — الراحل — فيقدم اقتراحا يقول فيه : « فإذا كان لى أن أقترح شيئا على الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الاسلامى ، فإنى أقترح أن تتألف لجنة علمية للقيام بهذا المشروع الضخم ، وأعنى به مشروع « التأريخ للدعاية والاعلام فى الاسلام »

ولهذه اللجنة أن تقوم ببحث هذا التاريخ عصراً عصراً ، أو فكرة فكرة ، أو مذهبا مذهبا ، فى النهاية ستحصل المكتبة العربية على مجموعات غنية من الكتب الإسلامية ، تصبح كل واحدة منها بمثابة رافد من الروافد التى تصب فى نهر الإعلام » .

وقد كان يحلو لأستاذنا الراحل أن يتحدث عن مؤامرة الصمت التى ابتلى بها العالم الإسلامى فى تاريخه وحضارته ، فقارىء كتب التاريخ ؛ ودوائر المعارف الأجنبية ، يجد الكثير عن الفكر اليونانى والعصور الوسطى المسيحية ، وعصر النهضة ، والعصور الحديثة مرتبة ترتيبا زمنيا ، ولكن لا يجد شيئاً عن الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ، رغم ما أعلنه بعض كبار المفكرين الغربيين من اعتراف بفضل الحضارة الاسلامية على الحضارة الأوربية الحديثة .

ومع أن الجوانب التاريخية والسياسية والأدبية من الحضارة الاسلامية قد حظيت ببعض اهتمام الباحثين ، كما ظفرت الدراسات الدينية بعناية ملموسة ، إلا أن الجوانب الإعلامية والدعائية ، لم تكن موضع بحث علمى رغم ثرائها وخصبها وتنوع فنونها على مر العصور الاسلامية .

ولا أريد أن يفهم القارىء أن مؤلفنا — رحمه الله — كان لا يحفل بالدراسات الأجنبية أو أنه كان معاديا لها ، لأنه كان على — النقيض من ذلك — محتفيا بها مقدراً لجهودها ، غير أنه كان يفرق دائما بين الغزو الفكرى لحضارتنا العربية — وهو مالم يكن يقره أبداً — وبين التعاون العلمى ، وتبادل المعرفة ، وهذا ما كان يشجعه ويؤيده كل التأييد .

ورب سائل يقول : ولكن ألم تزدهر الحضارة الإسلامية قبل ظهور أجهزة الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما ، وغيرها من فنون الإعلام المختلفة ؟ فهل نقحم على حضارتنا الإسلامية ، تلك المفاهيم الحديثة ، التى لم تكن جزءاً من صلب كيانها ؟

الحقيقة أن هناك علما جديدا يقال له « علم الاتصال بالجماهير » وهو

فرع من دراسة الاتصال الإنسانى، عنى به العلماء منذ ظهور الدول الشمولية والدكتاتورية الحديثة، كالفاشية والنازية وغيرها، وما كان من أثر قوى للزعماء وأجهزة الدعاية على سائر الناس، وكانت ذروة ذلك كله فى إنشاء وزارة الدعاية الألمانية تولاها جوبلز لأول مرة فى التاريخ .

وقد توجهت عناية العلماء والباحثين إلى دراسة الاتصال وفنونه المختلفة، مبتدئين بالاتصال الطبيعى عن طريق المحادثة الشخصية والاتصال المباشر وجها لوجه، ثم الاتصال الجمعى الذى يظهر فى الخطابة السياسية والدينية، والتجمعات المختلفة التى يلتقى فيها القادة بأفراد الشعب من الجماهير، إلى أن تنتهى الدراسة بالاتصال الجماهيرى أو الاتصال الصناعى، حيث لا يتم لقاء بين المصادر والجماهير مباشرة وإنما تنقل المادة الإعلامية من خلال صحيفة مطبوعة، أو كلمة مذاعة، أو صورة مرئية على شاشة التلفزيون الصغيرة، أو شاشة السينما الكبيرة .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية لم تشهد هذا النوع الأخير من الاتصال الصناعى، فقد ازدهرت فيها طرق الاتصال الشخصى والجمعى ازدهارا شديدا، فالقصائد الشعرية، والنثر الفنى الرائع، والخطب السياسية والدينية والرسائل البليغة، وحلقات الفقهاء والدعاة، وفنون النداء والمنادين، وأسواق الأدب والبلاغة، والندوات على اختلاف أنواعها، فضلا عن أوجه النشاط الدبلوماسى التى وضع أساسها الأول رسولنا الكريم ﷺ بأصولها الرائعة، التى أخذها عنا الغربيون فيما بعد، مع تطويعها وفقاً لمذاهبهم وأخلاقهم ومصالحهم . كل هذه الفنون الاتصالية . وغيرها من الكتابات الممتازة التى ازدهرت بها الحضارة الإسلامية بمذاهبها المختلفة، وفرقها الفكرية والدينية المتعددة، تصلح أساسا طيبا للدراسة العلمية الجادة، وهذا ما أراده أستاذنا الراحل الكريم .

ولكن بيت القصيد فى الدراسات الإعلامية يكمن فى الأبعاد النفسية والاجتماعية لعمليات الاتصال بوجه عام والاتصال الجماهيرى بوجه خاص، كما تشمل تلك الدراسات بحث العلاقة الوثيقة بين النظم السياسية والاجتماعية

من جهة ، والنظم الإعلامية من جهة أخرى . وهذه هى الدراسات التى اهتم بها الباحثون فى العالم الغربى ، وأراد — أستاذنا الراحل — أن ينحو نحوها فى العالم الإسلامى ، وذلك تأصيلا لهذه الثقافة الإعلامية الجديدة ، وبحثا عن جذورها وأصولها الراسخة فى حضارتنا ، وقد وضع العالم الراحل تلك اللبنة الأولى فى صرح البناء ، فكان ذلك الرائد الأول فى هذا المضمار . وإن خير مايمكن أن نقوم به لإحياء ذكرى فقيدنا العظيم هو مواصلة البحث والدرس فى هذا الميدان . وهذا مافعلته كريمته الفاضلة السيدة كريمان حمزة ، وما سوف يفعله بإذن الله تلاميذه وعارفو فضله ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

دكتور

إبراهيم إمام

الفهرس

الصفحة

صور الاتصال والاعلام
عند العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام

الباب الأول
أشهر صور الاعلام فى صدر الاسلام

صفحة

الباب الثانى

الدعوة فى عهد الرسول وأساليب نجاحها

الصفحة

الباب الثالث

الدعاية والاعلام في عهد الخلفاء الراشدين

الصفحة

رقم الإيداع ٨٩/٢١١٨ ترقيم دولى ٦ — ٠٣٣٥ — ١٠ — ٩٧٧

مطبعة الدجوى